
سياحة في رحاب آية الكرسي
وعروس القرآن (الرحمن)

**الطبعة الأولى**

**١٤٣١هـ - ٢٠١٠م**

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٣٤٩٩/٨/٢٠٠٩)

٢٢٢

الهودلي، سعيد مفلح

سياحة في رحاب آية الكرسي وعروس القرآن الرحمن/ سعيد مفلح الهودلي_ عمان: المؤلف، ٢٠٠٩.

(٣٦٠) ص

ر.أ: (٣٤٩٩ / ٨/ ٢٠٠٩).

الواصفات: / تفاسير القرآن/ / سور القرآن /

- ❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
- ❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.





دار المأمون للنشر والتوزيع

العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E- mail: daralmamoun@maktoob.com




المهندس
**سعيد مفلح الهودلي**

**الجزء الأول**



دار المأمون للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

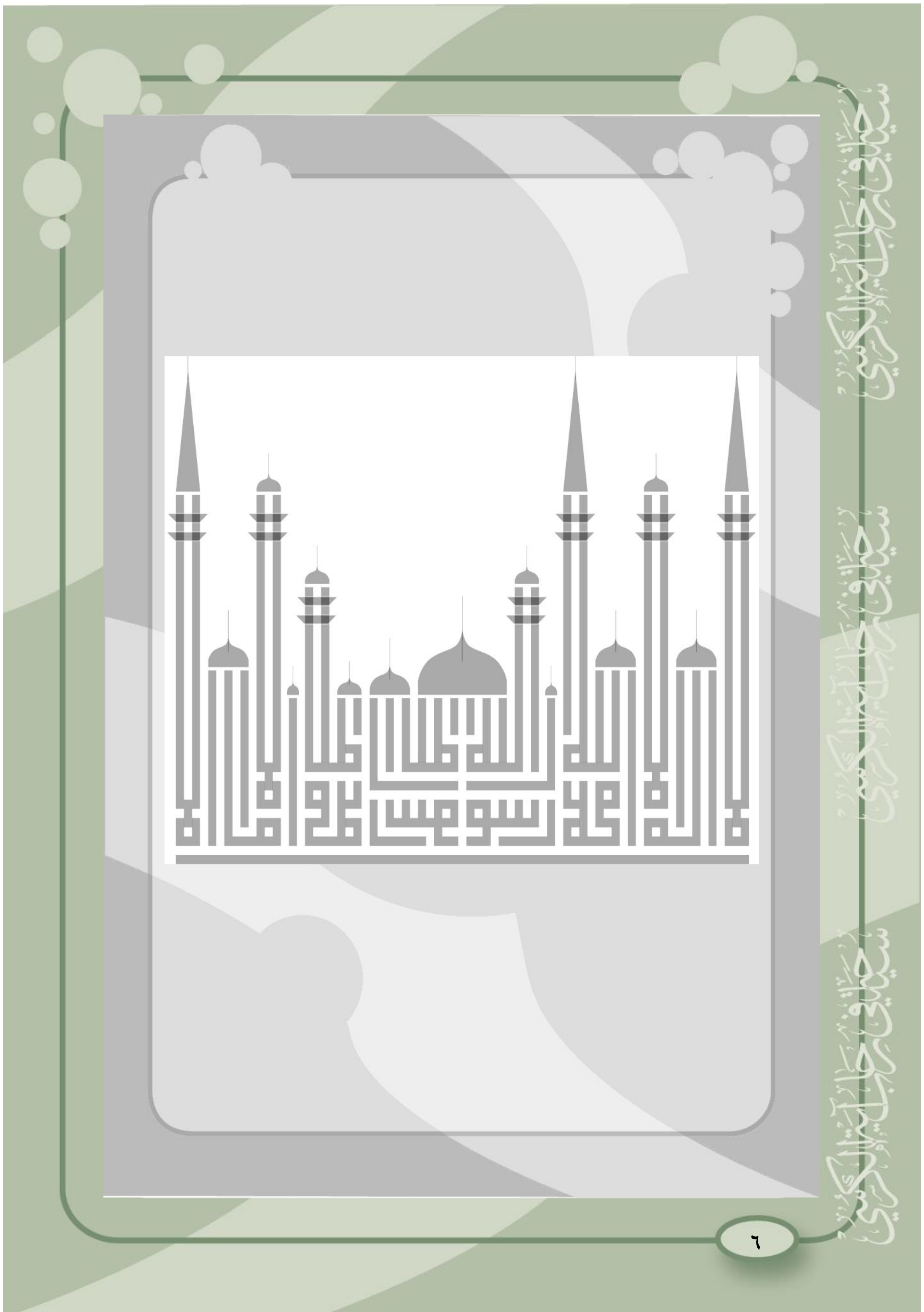
# الإهداء

إلى روحَي من وصاني بهما ربي حسنا...

﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾

وإلى كل من يتوق ويصبو إلى فهم آيات الذكر الحكيم من خلال معطيات العصر الحديث ووسائله في إرساء المعتقدات والمفاهيم.

أهدي هذا الجهد المتواضع سائلاً الله أن يتقبله وينفعنا جميعاً بما جاء فيه.





# المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد.

فإن خدمة كتاب الله، وتعلمه وتعليمه من أعظم القربات إلى الله، وأجزلها مثوبة عنده، كيف لا، وهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، فجدير بالمسلمين أن يتمسكوا بمبادئه السامية، ويتحلوا بآدابه الكريمة سلوكاً ومنهجاً.

قال معاذ بن جبل: قال رسول الله ﷺ: تعلموا العلم، فإنه لله خشية، ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة، والفكر في العلم يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام.

وهذا الكتاب الذي بين يديك يا أخي القارئ هو بداية سلسلة جديدة أسأل الله تعالى أن يعين على إتمامها، كما أعان على إصدار جزءين من سلسلة (**آيات قرآنية في الآفاق والإنسان**).

وكتابنا هذا مجموعان(*) في سفر واحد، المجموع الأول منهما هو تفسير آية الكرسي أعظم آية في القرآن الكريم، والمجموع الثاني هو تفسير سورة الرحمن (عروس القرآن) وقد أودعتهما ما وقع عليه اختياري من التفاسير، وأضفت ما فتح الله به علي من المعاني المستنبطة في ضوء ما وصل إليه العلم في عصرنا.

---

(*) كتابان.

وقد تنافس علماء المسلمين قديماً وحديثاً في تفسير هذا الكتاب العظيم، وصار لكل منهم منهجه الخاص به جزاهم الله خير الجزاء، وقد انتهجت فيه بدوري منهجاً وسطاً بين التطويل، والاختصار المخلّ، فكان بذلك مناسباً للقارئ المختص، والقارئ العادي، بأسلوب عصرنا الحاضر، ليستطيع القارئ أن يدرك ما في كتاب الله الكريم من أسرار في سهولة ويسر، وقصدت أن أجمع في هذا التفسير (بقدر الإمكان) ما يحقق الفائدة لكل القرّاء على اختلاف مستوياتهم، ولذلك اتبعت في هذه المحاولة منهجاً يتضمن شرح المفردات الصعبة، والتراكيب الغريبة، شرحاً يوضِّحها، وقد يكون مستفيضاً في بعض الأحيان، وذلك عندما تكون هنالك أهمية تستدعيه، ومقتضباً في أحيان أخرى مع الإسهاب في كل ما يزيد المعنى وضوحاً، ويرشد إلى شيء من قوة البيان، وروعة إعجاز القرآن، ثم إيراد ما تشير إليه الآية من معانٍ كريمة، وعدم إغفال استنباط ما يمكن أن يندرج تحتها من أسس دينية أو أخلاقية أو اجتماعية.

**ومن أهم من رجعت إليه من كتب التفسير:**

١- **تفسير القرآن العظيم:** للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.

٢- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي.

٣- **صفوة البيان لمعاني القرآن:** للشيخ حسنين محمد مخلوف.

٤- **تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن** لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.

٥- **صفوة التفاسير** تأليف محمد على الصابوني.

٦- زبدة التفسير من فتح القدير للسيد محمد سليمان عبد الله الأشقر.

ولا يفوتني في هذا المقام بل يسعدني أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لكل من أسدى إلى عوناً في إخراج هذا الكتاب إلى حيز النور.

وأخص بالشكر أخي الفاضل الأديب خليل أمين ربابعة الذي تفضل بمراجعة الكتاب وإبداء ملاحظات قيمة.

وفضيلة الشيخ محمد سعيد مطر (أبو مالك) إمام جامع المحسنين لمساعدته لي بتوفير العديد من تفاسير القرآن الكريم.

والأستاذ وليد العورتاني الذي تفضل بالمراجعة اللغوية للكتاب وكانت له لمسات جميلة زادت من قيمة الكتاب.

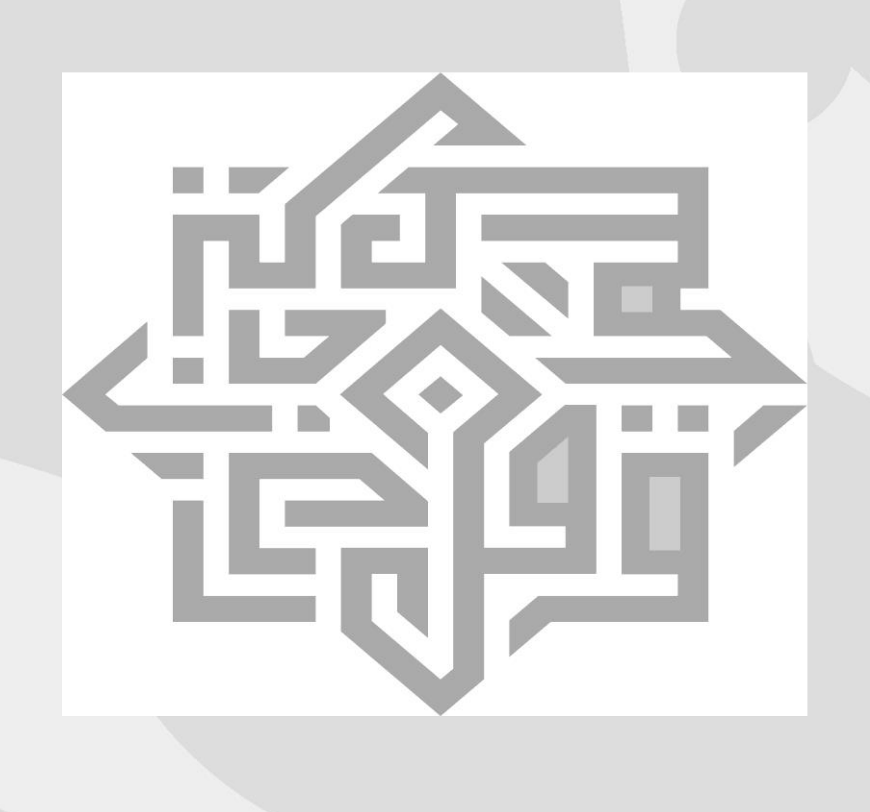
والباحث الإسلامي السوداني السيد محمد طه عبد القادر الذي أبدى ملاحظات قيمة حين عرضت عليه الكتاب قبل طباعته.

والله الكريم أسأل أن يشملنا بعطفه ورضاه، وأن يلهمنا السداد والصواب، وأن يوفقنا دائماً إلى ما فيه الخير والفلاح، في الدنيا والآخرة، إنه هو السميع المجيب، وهو نعم المولى ونعم النصير.

**سعيد مفلح الهودلي**

**عمان - الأردن**

**٠٠٩٦٢/ ٧٩٦٦٠١١٠٦**



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# تقديم

الحمد لله، والشكر لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد؛

فقد رَغب إليَّ صديقي الباحث الديني الأستاذ/ سعيد مفلح هودلى، أن أتصفَّح كتابه: سياحة في رحاب آية الكرسي، وعروس القرآن (الرحمن). فامتثلت لرغبته شاكراً له ثقته المطلقة بي، التي سأظل معتزاً بها ما حييت، وقد أتممت قراءتها قراءة مستأنية، قراءة تعقل، وتدبر لما احتوته من بيان فصيح، وجادت به من معان سامية، استمدها المؤلف من موارد عذبة كلها شديدة الزحام.

وقد وفق المؤلف في اختياره للآية كما وُفق في اختياره للسورة، فالآية شهد لها رسولنا الكريم ﷺ بالعظمة، عن أبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: "يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟، قلت: "الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم" فضربَ في صدري وقال: "ليهنك العلم يا أبا المنذر". والسورة التي اختارها كانت عروساً للقرآن كله، والعروس لأي شيء تستأثر باهتمام الناس لها، وتقديرهم لمكانتها، واحتفائهم بها، وإجلالهم لمكانتها، وللحق، والحق أقول: لو لم تكن آيات هذه السورة غاصة بالمعاني السامية والفضائل الجمّة، والمثل العليا، والنعم الوفيرة، والحجج الدامغة، والبراهين الساطعة لما اختيرت أن تكون عروساً لكلام الله سبحانه وتعالى.

وإن أجمل ما خطه اليراع على القرطاس، وأحلى ما انتشت به الفِكرةُ فرحاً بلقاء محبي الإطلاع من خلق الله، وأجمل ما يُنعت به كتاب من الكتب: "سياحة في رحابة آية عظيمة، يصاحبها عروس القرآن العظيم". هو حمد الله سبحانه وتعالى الذي شرف لغة العرب بالقرآن الكريم، وأرسل لنا نبيًّاً منزهاً عن الرّيب هو سيدنا محمد ﷺ. فمن أحب الله أحب رسوله الكريم، ومن أحب رسوله الكريم، أحب قومه العرب، ومن أحب قومه العرب أحب لغتهم العربية، ومن أحب اللغة العربية

التي نزل بها أفضل الكتب، صرف همته إليها، لأن الإقبال على تفهمها من الديانة كونها مفتاح التفقه في الدين، وعن طريقها يحوز المرء اليقين، فيتقرب إلى رب العالمين.

هذا الكتاب (سياحة في رحاب آية الكرسي، وعروس القرآن (الرحمن)، أودع فيه المؤلف ما وقع عليه اختياره من مصادر التفاسير القيمة التي استعان بها إلاّ أنه لم يغفل عن إبداء رأيه جلياً، أو توضيح معنى غامض، أو ترجيح رأي على آخر، وكان في الغالب مصيباً لكثرة مدارسته للتفاسير. ولا يفوتني أن أعزز القول المأثور: **اختيار المرء جزء من عقله يدل على علمه وفضله.**

هذا ويتحدث الكتاب عن نفسه فيقول لك أيها القارئ الكريم: جُدراني لا تحدّ انطلاقك، وضيق فنائي لا يقبض نفسك، وكل غذاء يتخمك ما عدا المعرفة فبين حناياى عطاء كثير يقنع كل ذي ذوق لأنك تكتسب علماً شاملاً، مناهله مختلفة، فهو كالماء للعطشان يشفى الغلة ويروى الصدى، وذكّرني هذا بقول كشاجم:

مـا كـان أحـوج ذا الكمـال إلى ... عيـبٍ يوقّيـه مـن العـين

فهذا الكتاب يهدي للتي هي أقوم. جزى الله مؤلفه خير الجزاء، وأثابه أحسن المثوبة، وأكثر في الأمة من أمثاله لتبلغ من القول والفعل غاية الكمال. لقد عرفته قارئاً لا يملُّ، باحثاً مستقصياً في بحثه وله سوابق في التأليف والبحوث شاهدة للعيان، لا ينكرها إلاّ جاحد، يدل عليه تفكيره، كما يدل على الجواد عنانه، فمن قرأ له عرف عقله،.

قـد عرفنـاك باختيـارك إذ ... كـان دلـيلاً علـى اللبيـب اختيـارهُ

وزبدة القول أن أبا طارق أهدى إلى القارئين تفسيراً يلطف في رقة ويسيل في عذوبة، يمتزج مع النفوس لنفاسته، ويُشرب بالقلوب لسلاسته والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

**موجه لغة عربية**
**وليد عورتاني**

بسم الله الرحمن الرحيم

# تقديم

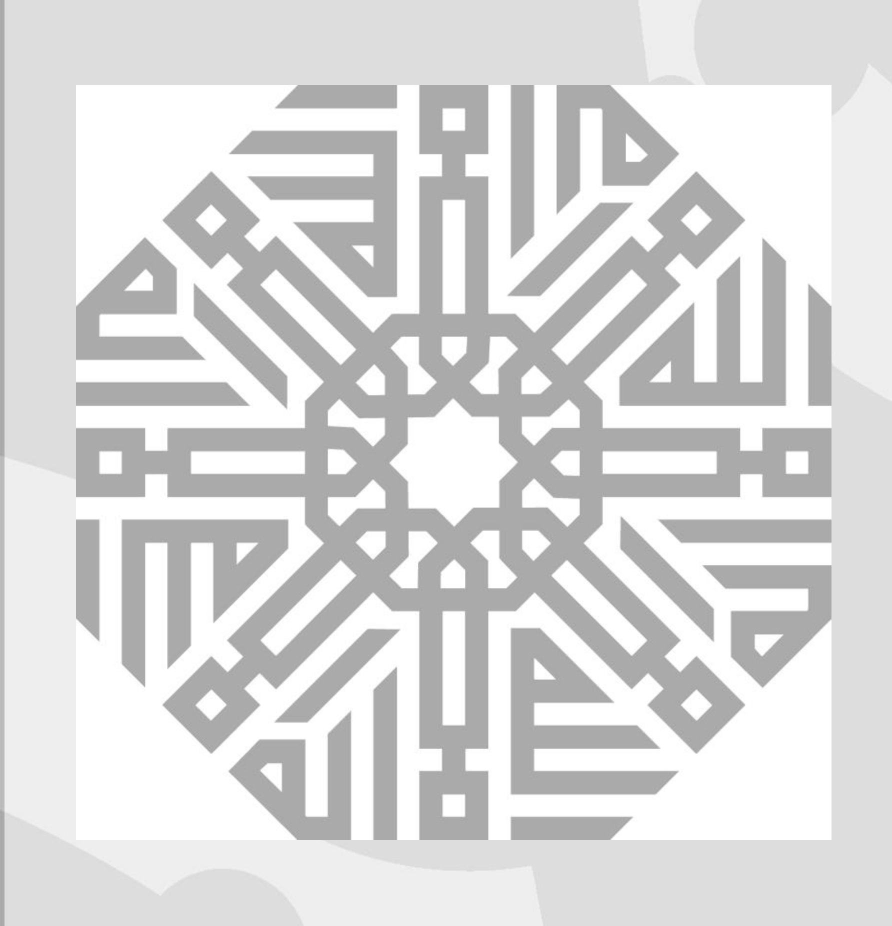
لا بد لمن يطلع على هذا الكتاب القيم من أن يشده الأسلوب المستحدث والبعيد عن التعقيد الذي اتبعه الكاتب في التناول، الأمر الذي يجعل من قراءته متعة حقيقية، ينهل من خلالها القارئ ما شاء من معين لا ينضب من المنافع الروحية والفكرية والإيمانية.

انطلاقاً من التنوية أعلاه فإن الإشارة الجديرة بالذكر حول الأسلوب الذي انتهجه الكاتب، تتمثل في تبنيه لما يسمى بالطريقة العلمية وذلك من خلال مناقشته لكافة جوانب موضوع الكتاب. وقد انعكس ذلك جلياً ظاهر التناول ومضمونه. فمن حيث الشكل الظاهر فقد تأسس الكتاب على منطق متسلسل في عبارات سلسلة مشوقة جاذبة، تشد القارئ لمواصلة القراءة. ومن هذا المنطلق فإن القارئ سيلاحظ من خلال اطلاعه على الكتاب بنياناً مرصوصاً من الأفكار والحجج والبراهين الأمر الذي يشكل خلفية موائمة وضرورية لتقبل نتائج وحالات ما يتم التعرض له في الكتاب، مما يحقق للقارئ المتعة بجانب الفائدة. أما من زاوية المضمون فإن الكتاب قد ساق من خلال تناوله لمختلف جوانب موضوع الكتاب العديد من الحقائق العلمية، والظواهر الكونية، التي تشكل إضافة حقيقية وتوجها مستحدثاً وعصرياً يلبي احتياجات وتطلعات الفرد المسلم في القرن الحادي والعشرين، حين تتصاعد التوجيهات عامة لمعرفة الكون واستكشافه. لا شك أنه يحمد للكاتب هذا التوجه من خلال كتابه القيم ونسأل الله أن يثقل به ميزان حسناته ويجزيه عن أمة الإسلام خير الجزاء.

محمد طه عبد القادر

باحث إسلامي

مدير عام بنك الشمال الإسلامي "سابقاً – السودان.



# الفصل الأول

# آَية الكرسي

- **تعريف بسورة البقرة التي وردت فيها آية الكرسي**

أ- فضائل سورة البقرة

ب- محــاور ســورة البقرة

- **تعريف بآية الكرسي**
- **لماذا سميت بهذا الاسم**
- **فضــائل آيــة الكرسي**
- **سياحة في رحــاب آية الكرسي**
- **وقفات تربوية مع آية الكرسي**


ما شاء الله
ما توفيقي إلا بالله
لا حول ولا قوة إلا بالله
لا إله إلا الله محمد رسول الله


ٱللَّهُ
لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ
لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ
مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ
وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ
وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ
وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ
وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ



# تعريف بسورة البقرة

# التي وردت فيها آية الكرسي

آية الكرسي هي الآية الخامسة والخمسون بعد المئتين من سورة البقرة، وسورة البقرة هي الثانية في كتاب الله من حيث التسلسل، والسورة جميعها مدنية بلا خلاف، وهي من أوائل ما نزل بعد الهجرة النبوية الشريفة، بل يعتقد بعض العلماء أنها أول سورة[1] نزلت في المدينة المنورة بعد الهجرة.

سُميت سورة البقرة بهذا الاسم إحياً وتخليداً لذكرى تلك المعجزة الباهرة التي ظهرت في زمن كليم الله موسى عليه السلام.

وهي أطول[2] سور القرآن على الإطلاق تحوي ستاً وثمانين ومئتي (٢٨٦) آية[3]، وهذه الآيات (شأنها شأن آيات السور الطوال) لم تنزل متتالية، وأن تجميعها وترتيبها في السورة على هذا الشكل كان توقيفياً موحى به من الله سبحانه وتعالى.

يقول بعض العلماء: إن سورة البقرة تحتوى على آخر آية نزلت من القرآن الكريم، وهي الآية الحادية والثمانون بعد المئتين (٢٨١) والتي يقول فيها سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وأنه

(١) يخصّون بذلك مُقدمتها حيث أن المُعوَل عليه في ترتيب السور من حيث النزول هو سبق نزول أوائلها لا جميعها.

(٢) يفسر بعض علمائنا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي .......﴾ [الحجر:٨٧] على أنها السبع الطوال وهي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس. وسورة البقرة هي أطولها على الإطلاق.

(٣) وقد جاء في كتاب إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء أن عدد آياتها ٢٨٧ آية (لعلهم اعتبروا البسملة آية، وأن عدد كلماتها هو (٦٢٢١) وأن عدد حروفها ٢٥٥٠٠ حرف) والله أعلم.

بنزول هذه الآية الجامعة المانعة قد انقطع الوحي، وأن رسولنا ﷺ قد عاش بعدها تسع ليال ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى.

## فضائل سورة البقرة

قال ﷺ لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله شيطان.

وكان خالد بن معدان يسميها فسطاط القرآن.

كما قال ﷺ: البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستُخرجت آية الكرسي من تحت العرش، فوصلت بسورة البقرة" .

وقال ﷺ أيضاً: لكل شيء سنام، وسنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة أي القرآن الكريم وهي آية الكرسي.

## محاور سورة البقرة

لهذه السورة الطويلة العظيمة الكثير من الفضائل أذكر لك بعضاً منها على سبيل التمثيل لا الحصر: يقول بعض العلماء أنها اشتملت على ألف خبر وألف أمر وألف نهي، وتكون بذلك قد اشتملت على معظم الأحكام الشرعية، وعلى صفات المؤمنين والكافرين والمنافقين، كما تحدثت السورة عن بدء الخليقة، فذكرت قصة آدم عليه السلام،

ومن أبرز ما بيّنته هذه السورة الكريمة طبائع يهود اللا أخلاقية واللاإنسانية من صفات الغدر والخداع والمكر، وما يتصفون به من كفر ونفاق بل ومحاربةٍ للحق ولدين الله، ومن قتل للأنبياء.

كما تحدثت السورة عن شر الربا وسوء عاقبته، وفيها آية الدّيْن التي هي أطول آية في القرآن الكريم على الإطلاق.

ومن أعظم آياتها (بل هي الأعظم في القرآن الكريم) آية الكرسي التي نحن بصدد السياحة في رحابها.

بسم الله الرحمن الرحيم

**قال تعالى في سورة البقرة:**

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[البقرة:٢٥٥].

**لماذا سًميت آية الكرسي بهذا الاسم؟**

سُميت آية الكرسي بهذا الاسم لأن كلمة الكرسي هي الظاهرة فيها، وكلمة كرسي تعني السلطان والقدرة والملكية، وقد يتبعها القهر كما قد تعني العلم. وكرسي الملك هو عرشه، والكراسي هم العلماء، كرسي الحائط هو ما يمسكه ويشده.

جميع هذه الصفات هي من صفات الحق سبحانه وتعالى وتتوافر في هذه الآية بشكل أو بآخر.

آية وُصفت بالإجماع بأنها أعظم آي القرآن الكريم، فلابد أنها تزخر بكل معاني الحكمة والهدى والعقيدة الناصعة السليمة.

آية كهذه تشجعنا وتدفعنا على القيام بجولة تنويرية على مشارفها، لعلنا نشتم عبقها، ونتلمس بعضاً من دررها، وننعم بإيمانياتها العميقة.

آية حُمّلت ألفاظها معانٍ كثيرةٍ حتى ناءت بحملها الألفاظ وستظل مورداً عذباً يرتاده العلماء ينهلون منه، وقديماً قالوا: المنهل العذب كثير الزحام.

ولو حاول متخصص منهم سبر غورها فلن يفلح، لتبقى معيناً لا ينضبُ لكل متعطش لتقوى الله يتزود منها تقوى وروحانيةً.

# فضل آية الكرسي

لقد قيل في فضل هذه الآية الكثير، ولعلهم مهما قالوا لـن يوفوهـا حقهـا، ولـن يبلغوا قدرها..

أما بالنسبة لي فإن أفضل ما قيل فيها، وما ينصفها هو قول الرسول ﷺ، وما ورد في السنة الصحيحة المطهرة من أن هذه الآية **هي أعظم آية في القرآن الكريم**، وأنها الأولى مكانة ومقاماً من بين آيات القرآن الكريم البالغ عددها ٦٢٣٦ آية.

وبإيجاز شديد أسرد لك أهم وأوضح ما قيل في حقها:

١) عن أُبيّ بن كعب قال: سألني رسول الله ﷺ أي آية في كتاب الله أعظم؟

قلت له: الله ورسوله أعلم.

كرر عليّ السؤال مراراً فأجبته:

آية الكرسي **﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾**.

فقال الرسول ﷺ: (ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده أن لها لساناً وشفتين تُقدّس الملك عند ساق العرش.

٢) عن أسماء بنت يزيد بن السكن أنها قالت:

سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين:

**﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾** و **﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾** أن فيهما اسم الله الأعظم.

(الاسم الذي إذا دُعي الله به أجاب وإذا سُئل به أعطى).

٣) قال رسول الله ﷺ:

لكل شيء سنام، وسنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن، لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه، هي: آية الكرسي).

٤) روى سيدنا علي كرم الله وجهه عن الرسول ﷺ أنه قال:

(من قرأ آية الكرسي حين يأخذ مضجعه، آمنه الله تعالى على داره، ودار جاره، وأهل دويرات حوله).

٥) جاء عن الحاكم أبي عبد الله في مستدركه أن الرسول ﷺ قال:

(من قرأ دبر كل صلاة أية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت).

٦) عن أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ: أي ما أنزل عليك أعظم؟

قال ﷺ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ...﴾ [رواه النسائي].

٧) عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال:

من قرأ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ سورة غافر (المؤمن)

وآية الكرسي حين يصبح، حُفظ بهما حتى يُمسى، ومن قرأهما حين يُمسي حُفظ بهما حتى يصبح).

٨) عن أبي أمامة قال ابن مردويه:

اسم الله الأعظم موجود في ثلاث هي:

سورة البقرة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾.

سورة آل عمران ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ .

وسورة طه ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾.

٩) بيّنت هذه الآية ووضحت قواعد التصور الإيماني، وأنشأت عقيدة متكاملة تشتمل على جميع مقومات الإيمان.

١٠) استنبط منها العلماء ستة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى، وبعضهم قال أنها تحتوي على سبعة عشر اسماً وآخرون قالوا إحدى وعشرين اسماً.

وكما سبق وأشرت، فإن ما قيل في فضلها كثير، لكن ما تستحقه أكثر، وسأختم لك أفضالها بما جاء في هذه القصة المقتبسة من كتاب تفسير الشعراوي المجلد الثاني (ص ١١٠٨+ ١١٠٩). لقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

"وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو الطعام فأخذته وقلت: والله لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة. فال: فخليت عنه، فأصبحت فقال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة»؟ قال: قلت يا رسول الله:شكا حاجة شديدة وعيالا، فرحمته، خُليت سبيله، قال: «أمّا إنه كذبك وسيعود، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ «إنه سيعود»، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فإني محتاج، وعليّ عيال، لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة: «ما فعل أسيرك البارحة»؟ فقلت يا رسول الله: شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله قال: "أما إنه قد كذلك وسعود"، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، وهذا أخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود، قال: دعني أعلمْك كلمات ينفعْك الله بها، قلت: ما هي؟

قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكري ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربّك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة»؟ قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قالﷺ: «ما هي»؟ قلت: قال

لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح وكانوا، (أي الصحابة) أحرص شيء على تعلم الخير، فقال النبي ﷺ: «أما أنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟ قال: لا، قال ﷺ: ذاك الشيطان».

**في تصوري أن من يريد أن ينال فضل تلاوة آية الكرسي، وينعم بالأجر العميم على قراءتها، لا بد أن يعي ويعيش ويستحضر ( على الأقل ) ما يلي من المعاني عند قراءتها.**

عليه أن يستحضر وجود الله الواحد الأحد الخالق المصور، وأنه لا إله في هذا الكون إلا هو، وأنه لا يوجد من يستحق العبادة (بحق أو بغير حق) غيره، وأن الله سبحانه حي لا يموت، قَيِّم على هذا الكون وعلى هذه الأرض وعلى ما فيهما من مخلوقات حية أو غير حية، وأنه سبحانه لا يغفل عنهم لحظة واحدة، بل ولا تأخذه سِنةٌ من النوم مهما قصرت، كذلك على القارئ أن يستحضر مُلك الله الواسع الذي يملك به السماوات والأرض، وما بينهما، وأن جميع ما في هذا الوجود مُلك لله وحده. وأن يستحضر كذلك أنه يوم الحساب لا تنفع عند الله شفاعة ولا واسطة ولا جاه، وأن الشفاعة عنده غير مقبولة وغير متاحة إلا لمن يسمح لهم سبحانه بهذه الشفاعة، والأمر كذلك فلن يشفع أحد لأي إنسان إلا إذا كان مستحقاً لهذه الشفاعة.

كذلك على قارئ هذه الآية أن يتيقن أن الله سبحانه يعلم كل صغيرة وكل كبيرة في هذا الكون، ويعلم كذلك ما نُعلن وما نُخفي وما نُكن في نفوسنا من صغيرة أو كبيرة، بل إنه يعلم عنا ما لا نعلمه نحن عن أنفسنا.

وكذلك عليه أن يدرك أن العلم كله، وبجميع صوره وأنواعه هو عند الله ومن الله وفي خزائن الله، وأننا مهما سَخّرنا من وسائل البحث العلمي ومن الجهود في البحث

والتقصي، فلن نصل إلى أي علم ولن نحيط بأية معلومة إلا بما يسمح لنا الله به، وبما تشاء قدرته لنا أن نعرفه فالعلم كله عنده وهو الذي ينعم علينا منه بما يشاء وحين يشاء.

وعلى القارئ أن يستحضر أيضاً أن كرسي الله وحكمه وقدرته وعلمه محيطة إحاطة شاملة بالسماوات والأرض، وأن قدرته العظمى لا يصعب عليها أن تحفظ هذا الكون بما فيه من سماوات وأراضين.

ويختم القارئ تصوره واستحضاره بعظمة الله وأن الله عَلَّيٌ عظيم لا يدانيه في هذا العلو وفي هذه الرفعة وفي هذه العظمة أحد في السماوات ولا في الأرض.

أتصور أنه إذا عاش قارئ هذه الآية الكريمة هذه التصورات واستحضر هذه المعاني بقلب منيب خاشع، لعل الله سبحانه يتقبل منه هذه القراءة، وينعم عليه بأفضال ومكارم هذه الآية العظيمة الجليلة.

ولكي نتمتع بأكبر قسط في فهم هذه الآية ونجني أكبر قدر مما تزخر به من دُررٍ وحكم، دعنا نُقسِّمها إلى وحدات وعبارات، محاولين تفهم كلٍ منها منفردةً لعلنا نعطيها بعض حقها من الفهم ومن التكريم.

والآن دعنا نبدأ رحلتنا الميمونة مع:

# سياحة في رحاب آية الكرسي

## ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

تبدأ هذه الآية بكلمة: ﴿ٱللَّهُ﴾ وهو أحد أسماء الله الحسنى، وهو الاسم الذي اختاره سبحانه لذاته، وأعلمنا به، بل وأمرنا أن ندعوه به.

فالاسم ﴿ٱللَّهُ﴾ هو الدلالة العَلَمية التي تُطلق على ذات الحق سبحانه، وهو علمٌ على واجب الوجود المُتصف بكل صفات الكمال، فبذلك يكون ﴿الله﴾ هو الاسم الدال على الذات الجامعة لكل صفات الألوهية من اقتدار وعلم وحلم وكرم و... إلى ما لانهاية. من الصفات اللائقة بذاته.

كما أن هذا الاسم يضم في جنباته الوحدانية الحاسمة التي لا مجال فيها لأي انحراف او لبس، فهو اسم يدل على الواحد الأحد الفرد الصمد.

كما أنه لا يشاركه (سبحانه) في هذا الاسم أحد، بل ولا ينبغي لأحدٍ أن يسمي نفسه بهذا الاسم. لأن الكلّ عبيد له.

وقد ورد اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ ٢٦٩٧ مرة على مدى سور وآي القرآن الكريم، لكنه كان دائماً يرد للدلالة على ذات الحق جل وعلا، ولم يستخدم للدلالة على أي معبود آخر إطلاقاً.

كما لم يُستخدم لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ كوصف من الأوصاف مثل سائر أسماء الله الحسنى الأخرى التي تحمل صفات ارتضاها الله لنفسه مثل: الكريم، العليم، الفتاح...الخ، لأن في هذا الاسم سراً لا يعلمه غيره، الأمر الذي جعله ينفرد به.

فعلى الرغم من أننا نطلق عليها أسماء، إلاّ أنها في الأصل صفات حميدة جاءت في مجملها على صيغة المبالغة (فعيل، فعول، فعّال، فاعل). فتكون بذلك أسماء تحمل القيم الإلهية العليا.

وقد يظن البعض أن أسماء الله الحسنى هي تسعة وتسعون اسماً فقط، لكنها في الحقيقة أكثر من ذلك، فهناك من الأسماء ما احتفظ الله بها لنفسه ولا نعلمها نحن، وهنالك أسماء ارتضاها لنفسه، وتعبّد الناس بها لله وأسموا أبناءهم بها مثل: عبد الناصر وعبد الجواد وغيرها.

فنحن لا نعلم إلا الأسماء التي آذن لنا سبحانه أن نعلمها.

فقد رُوي عن رسولنا ﷺ أنه سأل الله بكل اسم هو له أنزله في كتابه أو علّمه أحداً من خلقه، أو استأثر به في علم الغيب عنده.

ويعتقد البعض (والله أعلم) أن اسم ﴿ٱللَّهُ﴾ هو الاسم الأعظم الذي إذا نودي به لبى وإذا دُعي به أجاب.

ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ (بالنسبة لي) عندما يطرق مسامعي تهتز لسماعه مشاعري كلها. وتتحرك شعوراً بالأمن والأمان، ويعتريني ويغمرني شعورٌ أن هناك من استطيع بكل اطمئنان أن ألقي عليه حملي وهمي، وأن أعتمد عليه في حمايتي من غوائل الدهر، وفي رزقي وستري، وفي رعايتي حال اليُسر وحال العُسر، لا سيما إن كنت له طائعاً عباداً حق العبادة. عندها يتحقق الأمل وأنال كل ما أرجو من سعادة ومن راحة نفسية.

وفي نفس الوقت وعند سماع لفظ الجلالة فإن أوصالي ترتجف رعباً وخوفاً، وتعتريني وتتغشانى الرهبة من دقيق حسابه وشديد عقابه وأليم عذابه، لا سيما إن

كنت مخالفاً عاصياً لأوامره، كافراً وجاحداً بنعمته، وما أقبح النفس حين تـآمر بالسـوء والعصيان.

ولِمَ لا يكبرُ أملي وتهتز أعصابي وقد قـال سـبحانه ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هي أول عبارةٍ بعد اسم الله في هذه الآية: و هي تشير إلى أول صفةٍ من صفات الله (الوحدانية)، وهي أكثر صـفات الله وضـوحاً ونصـاعة وتأكيـداً. كما أنها الركن الرئيسي من الأركان التي بني عليها الإسلام.

وهي صفة لا يشاركه فيها (لا بالقليل ولا بالكثير) كائن آخر في السماوات أو في الأرض سواءٌ أكان إنسياً أو جنياً أو ملكاً.

صفة تقول إنه لا معبود **بحق** في هذا الكون غير الله وأنه الواحد الصمد.

فبذلك يكون سبحانه قد حَسَم الأمر حسـماً قاطعـاً، وأرسـى دعـائم وحدانيتـه، وجعلها الحد الفاصل بين الكفر والإيمان بلا لبس أو غموض.

كما أنه جعل هذه الوحدانية أساساً للتصور الإسلامي، الـذي ينبثـق منـه مـنهج وعقيدة الإسلام الذي حدّد أول أركانه بـ (لا إله إلا الله).

عن هذا التصور وعن هذا المفهوم الراسخ الواضح ينشـأ الاتجـاه إلى الله سـبحانه وتعالى وحده بالعبودية والطاعة والتقدير والأمل والرجاء.

كما ينشأ عن هذا التصور قاعدة الحاكمية لله وحده في وضع الشـرائع والقـوانين والدساتير التي تحكم حياة وعلاقات الأفراد مع بعضهم، ومـع مـن حـولهم، بـل ومـع بيئتهم، وفي فرض وإقرار النواميس التي على هديها يسير هذا الكون.. الـذي هـو مـن مخلوقات الله.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تنبيه بأن الله سبحانه هو وحده المتفرد بالألوهية، ولا يمكن أن يتصف بهذه الصفة غيره. وهي الحد الفاصل بين المسلم والكافر إن أقرّ بها بلسانه وبقلبه لزمته أركان الإسلام الأربعة الأخرى (الصلاة والزكاة والصوم والحج).

قد نحب المال حُباً جما، حُباً قد يقترب من درجة العبادة، وما ينطبق على حب المال قد ينطبق على حُب الولد أو الجاه أو المنصب أو الشهوة.

أياً من هذه الأشياء لا يستحق العبادة ولا التقديس، فأنا أشهد أن بعض هذه الأشياء ضرورية لحياتنا بل ربما يصعب أن تستمر الحياة بدونها.

لكن ولا بحال من الأحوال، ولا تحت أي ظرف من الظروف يستحق أي منها العبادة، لا بحق ولا بغير حق.

فمعظمها زائل وبعضها رخيص وقد يكون بعضها في غير طاعة الله إن لم يكن في معصيته.

أضف إلى هذا أنه قد يتصف بعض الناس بالعلم أو الكرم أو اللطف، وهي من صفات الله سبحانه وتعالى.

وقد ينطبق فعلاً جزءً من هذه الصفات عليه بقدر أو بآخر (لكن هذا القدر بكل الحالات جِدُّ قليل بالنسبة لعلم الله وكرمه ولطفه)، وفي مثل هذه الحالة لا ينبغي لأحد أن يتصف بالألوهية غير الله وبذلك فلا إله إلا الله وحده لا شريك له.

# ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾

بعد أن بيّن لنا سبحانه أول تصور عقدي في الإسلام، وأول وأهم صفة من صفاته وهي الوحدانية انتقل بنا إلى الصفة التالية مباشرة (ولكن بسلاسة لم نعهدها إلا في القرآن الكريم)، الصفة التي تليق بالوحدانية وتليها في الأهمية وهي صفة الحياة فقال سبحانه وتعالى﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ .

وهذه صفة (والله أعلم) لابد أن تكون الأولى من صفات الله بعد الوحدانية، وذلك لأن الصفات الأخرى مثل القدرة والكرم والحلم والرحمة وغيرها لا تصدر إلا من حي، ولا تأتي إلا بعد حياة.

**فكيف يكون سبحانه حيّا؟ وهل حياته مثل حياة باقي الكائنات والخلائق؟**

أنا لا أعقد مقارنة بين الله الحي وبين حياة مخلوقاته (فلا مجال للمقارنة بين واهب الحياة وبين الذي لا يملك حياة نفسه وموتها) لكنها وسيلة لتقريب الفرق إلى الذهن وإلى العقل الإنساني.

فالله هو الحي الباقي الذي لا يموت ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وحياته هي حياة ذاتية كاملة، بينما الذي يموت فلا تكون له حياة كاملة.

حياة الله سبحانه هي حياة ذاتية لم يهبها له أحد وبالتالي فلن يستطيع أن ينتزعها أو يسلبها منه أحد، بينما حياة الكائنات والخلائق على هذه الأرض فهي هبة من الله، هبة من الوهاب الذي منح الحياة، وفي نفس الوقت فرض نواميسها وأسبابها واستمرارها على الأرض لكن إلى حين، وإلى أجل مسمى، بعد ذلك لابد من الموت، فمع الموت تكون الحياة، ومع الحياة يكون الموت، حيث قال سبحانه: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ

﴿ ...اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وكذلك يقول سبحانه: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم: ١٩].

ولذلك فقد وضع سبحانه للكائنات المختلفة آجالاً وأعماراً لا تحيد عنها، ولا تتجاوزها ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

حياة الله سبحانه هي الحياة الأزلية التي لا بداية لها ولا نهاية، فهي بذلك حياة دائمة متجردة لا يحكمها زمان ولا مكان، بل مخلوقاته هي المحكومة للزمان والمكان.

حياته سبحانه مُطلقة ومُحررة من الصفات والخصائص التي تتصف بها حياة الكائنات مثل التنفس والتغذي والنمو والتكاثر و...

كما أن حياته لم تأته بعد موت، ولن يعتريها الموت بعد الحياة.

فأقل ما يمكن أن يُقال في هذا المقام ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

معلوم أن الحياة هي عكس الموت، فحياة الله سبحانه ليست كحياة الكائنات الأخرى التي يتبعها الموت ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ ﴾ [القصص: ٨٨] بل إن حياته باقية لا يطالها الهلاك ولا الفناء.

وقد يقول لك أحدهم إن الله سبحانه وتعالى قال:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فهل يدخل الماء في تركيب الله سبحانه وتعالى؟

قل له وكرر آية: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ هي إحدى صفات الله سبحانه وهو اسم من أسمائه الحسنى، والقيوم هو القائم على ملكه، الدائم القيام بتدبير أمر خلقه والمتولي لشؤونهم، والقائم على حفظهم من كل مكروه، ورعايتهم ومنحهم الرزق والصحة والشفاء عند المرض، والأمن عند الخوف، والحماية من غوائل الدهر.

وهو المطعم المُسقي الواهب لكل أشكال الأمن والأمان ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٤].

و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ هو الذي يرعى عباده وكذا أزواجهم وذراريهم ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

فهو بذلك يمنحهم كل ما به قوامهم وكل أسباب رعايتهم، فهو القائم الذي لا يقعد(*) والمشرف الذي لا يرتاح.. والواقف الذي لا يقعد ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ هي صيغة مبالغة من قائم، (وهي على وزن فعّول مثل عبّود من عَبَدَ وخلود من خلد) وأصلها في اللغة (قيووم) وهي تعني أن الله هو واسع القيام كثيره، وقد جاء هذا الاتساع من قيامه بذاته وكذلك قيامه من على غيره.

فلا قيام لأيٍ من موجودات هذا الكون بدون أمر من الله، فلا شيء يقوم إلا بأمره مستمداً لأسباب قيامه منه، وفي ذلك قال سبحانه:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥].

---

(*) النائم: يجلس، والقائم أو الواقف يقعد، فالجلوس بعد النوم، والقعود من الوقوف.

ويقول سبحانه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾ [الرعد: ٣٣].

فالقوامة هي مظهرٌ من مظاهر الإشراف والمتابعة، وصورة من صور الاهتمام والعناية والإخلاص.

فالقيوم على الأمر هو الذي يحفظه ويدبره ويديره على الوجه الأكمل بالملاحظة التامة.

وقوامة الرجل على زوجه هي إحدى صور القوامة فـ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ [النساء: ٣٤].

وهي تكريم للرجل والمرأة بالإضافة إلى أنها مسؤولية وحملٌ ثقيلٌ وضعه الله سبحانه على كاهله، لكن قد يحتجّ بعض الجهلة أو ضعيفو الإيمان على ذلك ويعتبرونه انتقاصاً من حق المرأة ومن كرامتها ولا يدركون أن ذلك تكريماً لها وتسهيلاً لأمور حياتها(*) وتخفيفاً لها من أعبائها لاسيما وأن خالقها الذي فرض ذلك يعلم أنها أضعف من الرجل جسماً وتحملاً، فهي بذلك تُلقي جُل الحمل على زوجها.

ولا ننسى أن قوامة الله على عباده تتوقف على الوضع وعلى القضية القائمة، فهناك قوامة تحتاج إلى رحمة، فعندها تبرز صفة الرحمة الإلهية ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

---

(*) وقد حثنا رسولنا الكريم على الرفق بها حين خاطب أنجشة وهو(يمسك بزمام بعير عليه هودج) قائلاً: رفقاً بالقوارير (أي بالنساء).

وهناك قوامة تحتاج إلى العدل وعندها تظهر صفة العدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] وكذلك يقول سبحانه ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقوامة أخرى تحتاج إلى التسامح والمغفرة ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

وقوامة رابعة تحتاج إلى الانتقام ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ﴾ [المائدة: ٩٥] وكذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

وقوامة تحتاج إلى الإملاء والتمهل وإعطاء الفرصة (والتأنى) ففي هذه الحالة يُملى الله لهم ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥].

وقد وردت صفة واسم القيوم ثلاث مرات في القرآن في ثلاثة سور هي البقرة وآل عمران وطه. هذه السور التي قال ابن مرودية أنها تحتوي على اسم الله الأعظم.

ويقوم التصور الإسلامي على أسس أهمها لا إله إلا الله، ومنها أن الله سبحانه قائم على كل شيء، وأن كل ما في الوجود قائم على إرادة الله وعلى تدبيره سبحانه وتعالى.

# ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾

وتتوالى صفات رحمة الله بعباده، فبعد أن أخبرنا بأنه هو الحي القيوم وأنه الذي يرعى أمورنا ويدير شؤون حياتنا ووجودنا، بيّن لنا إحدى وسائله في تنفيذ هذه القوامة وهي أنه: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾.

فهو لا ينام ولا يغفل عن العناية بنا ولو للحظة واحدةٍ أو لبرهةٍ قصيرة.

فكأنه سبحانه يقول: نَم يا عبدي ملء جفنيك، وخذ ما أردت من الراحة والسكينة، فأنا أسهر على راحتك وأقوم على صحتك وحياتك ولا أنام ولو لِسِنَةٍ من النوم.

هل من طمأنينة يمكن أن يبعثها الخالق إلى خلقه خير من ذلك؟.

فبكل الوضوح يخبرك سبحانه بأنه ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾.

تعبير قرآني بديع حين يقول سبحانه ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ﴾ أي لا تسلبه ولا تسيطر عليه الغفوة، ولا تغلبه بل ولا تفرض نفسها على ذاته حتى السِنَةُ من النوم!!

فما هي السِنَةُ من النوم؟؟

السِنَةُ مصدرها من (وسن) وهي مرحلة من مراحل النوم(*).

---

(*) في ترتيب النوم كما جاء في فقه اللغة للثعالبي:

١- أول النوم النعاس وهو أن يحتاج الإنسان إلى النوم.

٢- الوسن وهو ثقل النعاس .

٣- الترنيق وهو مخالطة النعاس العين.

٤- الكرى وهو بين النائم واليقظان.

٥- التغفيق وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم.

٦- الإغفاء وهو النوم الخفيف... الخ

٧- التهويم: وهو النوم القليل.=

٨- الرقاد: وهو النوم الثقيل.

٩- الهجود والهجوع وهو النوم العميق.

١٠- التسبيخ وهو أشد النوم.

وهي مجرد ثقل النعاس، والإحساس بالحاجة إلى النوم، وهي ظاهرة تسبق النوم وتتقدمه على شكل تخدير في الرأس وفي الجهاز العصبي، مع فتور في النشاط، يتبعه انطباق في العينين (مع بقاء الشعور والإدراك متيقظين إلى حد كبير).

فالسِنة بذلك هي ثاني مراحل النعاس، تغزو الجسم وتسيطر عليه عند الحاجة إلى النوم.

وقد تتطور السِنَة إلى غفوةٍ بسيطةٍ، أو إلى نوم خفيف وهذه مراحل متقدمة من السِنة. كما جاء في «فقه اللغة وسر العربية» للإمام عبد الملك بن محمد الثعالبي.

أما النوم فهو مرحلة متقدمة جداً عن النعاس، وفيه ينتقل الكائن إلى مرحلة اللاوعي واللاشعور وعدم الإدراك المؤقت، فسُمي لذلك الموت الأصغر.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ...﴾ [الزمر: ٤٢].

فقد خلق الله سبحانه النوم، ووهبه إلى مخلوقاته من الأحياء بل وجعله من صفات الكائنات الحية على اختلاف درجات رقيها ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

وجعل أساليب النوم تتنوع وتتناسب شكلاً وزمناً حسب تركيب جسم الكائن وحسب حاجته.

فجعل منه النوم الخفيف والنوم العادي والسُبات العميق ومنه النوم القصير ومنه النوم الطويل.

كما وجعل سبحانه في النوم راحةٌ ونعمةٌ لمخلوقاته ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩]، ففيه تتوقف بعض أعضاء الجسم عن الحركة وعن النشاط والعمل، فتنال بذلك ما تحتاجه من الراحة.

بينما تستمر الأعضاء الحيوية الأخرى في عملها ولا تنام ولا تتوقف (لأن مع توقفها يأتي الموت)، لكنها تخفض من وتيرة عملها إلى الحد الأدنى، فتحصل على قسطٍ لا بأس به من الراحة ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ فأعضاء تنام وأخرى تعمل وثالثة تبطئ وكل ذلك بقدر، وحسب حاجة الجسم ولزوم استمرار حياته وصحته ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ...﴾ [الروم: ٢٣].

ومع النوم يهدأ الجسم ويتدنى نشاطه فتتوفر له الفرصة للتخلص من أكبر قدر من نواتج الأيض(*)، التي لو بقيت في الجسم لأوصلته إلى مدارك المرض والهلاك.

وقد تصل الحاجة إلى النوم حد الضرورة ولا يستطيع الجسم معها الاستمرار في اليقظة، عندها ينطبق عليه مقولة: (إن النوم سلطان)، وحينئذ لابد للجسم أن ينال قسطاً من النوم يُلبي هذه الحاجة.

أنت تنام بينما تستمر أجهزتك الحيوية بالعمل وبإيقاع سليم ووتيرة منضبطة، فمن الذي يضبطها ويسيِّرها ويسهر عليها، ويسيطر على انتظامها فيبعثك حياً سليماً معافى؟؟

هل من أحدٍ غير الله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم؟

فإن كان سبحانه مُنزه عن ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فما حاله مع النوم المستغرق العميق؟؟

فالله الحي القيوم لا تعتريه غفلة ولا سِنةٌ عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، ساهر على كل أمور خلقه فلا يغيب عنه شيء ولا

---

(*) الأيض هو: مجموعة عمليات البناء والهدم وكافة العمليات الكيميائية والحيوية التي تحدث داخل جسم الكائن الحي، لتؤمن له الوحدة والتوازن وإطلاق الطاقة الكامنة في الغذاء بعملية التنفس وما ينتج عنها من حركة وإخراج وتنظيم وتنسيق.

تخفى عنه خافية!!

فهو سبحانه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، ولو أنه غفل عن الخلق لحظة واحدة لحلّت الكارثة ولسقطت السماء على الأرض.

وفي ذلك يقول سبحانه:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ ...﴾ [فاطر: ٤١].

ويقول سبحانه: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ [الحج: ٦٥].

لقد خلق الله سبحانه النوم بكل ما فيه من خير ومن راحة، ووهبه لنا ولكل الكائنات الحية، لكنه حرّمه على ذاته كما حرّم الظلم على نفسه، فهل من إله يستحق العبادة بأكمل صورها وبكل ما فيها من الخضوع غير الله الحي القيوم؟

## ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾

أي أنه المالك المطلق والمسيطر الفعلي والأبدي على هذا الكون (اللامحدود الأبعاد)، وهو المتحكم الحقيقي وصاحب التصرف الكلي لجميع الوجوه (ما علمنا منها وما لم نعلم) فيما يملك.

**فماذا يوجد في السماوات والأرض؟**

هناك الكثير مما لا نعرف ولا نرى ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨].

أما ما نعرفه فهو بعض مما فيهما، وهذا يشمل من الذرة إلى المجرة.

من الذرة التي يعادل قطرها جُزءاً واحداً من عشرة ملايين جزء من المليمتر، إلى المجرة التي يصل طولها إلى أكثر من ١٠٠ مليون سنة ضوئية (لا تحاول المقارنة بين الرقمين، فدماغك قاصرٌ عن إدارك ذلك)، أما عدد المجرات فحدث ولا حرج.

ففي السماوات توجد المجرات والسدم والمجموعات النجمية والمذنبات، والنجوم الحية والميتة، والنابضات والثاقبات والمستعرات والثقوب السوداء والثقوب البيضاء، والجوار الكُنس والكواكب والأقمار وما يتبعها.

أما في الأرض فيوجد الغلاف الغازي المحيط بها لارتفاع حوالي ٨٠٠كم بكل مكوناته وطبقاته ووظائفه للحياة على الأرض وبتأثيراته على حالة الجو.

كما وتحتوي الأرض كذلك على الغلاف المائي الذي يغطي حوالي ٧١٪ (٣٦١ مليون كم$^{٢}$) من سطح الكرة الأرضية، ويحتوي على حوالي ١٤٣٠ مليون كم$^{٣}$ من الماء، موزعة على المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار وحتى المياه الجوفية.

هذا الغلاف المائي يحتوي على العديد من أصناف الأحياء النباتية والحيوانية والأوليات والطلائعيات.

كذلك يشترك في تكوين الأرض مكونٍ أساسي آخر هو الغلاف الصلب بما يحويه من القشرة الأرضية ولُب الأرض، ويبلغ قطر هذا الغلاف ١٢٧٥٦كم.

هذه القشرة بما عليها من تضاريس متباينة، يعيش عليها أنواع لا حصر لها من الأحياء.

أما جوف (باطن) الأرض ففيه المواد الصلبة من صخور ومعادن ومواد بركانية مصهورة ونفط وماء وغيرها من المركبات المختلفة.

كل ما ذكرت لك هو بعض من ملك الله سبحانه.

وكل ما في السماوات والأرض من جمادات ومن أحياء تُسبّح بحمد ربها ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

وقال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

مما سبق يتبين لنا أن مُلكية الله لما في السماوات وما في الأرض ملكيةٌ شاملة حقيقيةٌ مطلقة، لا قيد فيها ولا شرط ولا حدود.

ولا يشاركه فيها أحد سواءً من البشر أو من المخلوقات الأخرى العلوية منها والدونية.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ...﴾ [الإسراء: ١١١].

أما خلق الله من بشر وغيرهم فملكيتهم (لبعض متاع وحطام هذه الدنيا) هي ملكية رمزية، محدودة ومقيدة، بل هي ملكية ناقصة من حيث الكمية والنوعية، فالمِلكُ الحق يملكهم ويملك ما يملكون. وهم مستخلفون في الأرض، كما استخلف الله الذين من قبلهم. وليس لهم إلاّ حق الانتفاع مما يملكون.

﴿...كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور:٥٥].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

حتى أن الله سبحانه قد كلف رسله أن يخبروا العباد والناس بهذه الملكية، وفعلاً كان الرسل يدعون الناس إلى الإيمان بالله وبملكيته لكل ما في السماوات والأرض. حتى أصبح الإيمان بهذه الملكية لله وحده من أسس التصور الإسلامي، كما تضاف هذه الصفة إلى مفاهيم الألوهية الواحدة.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

## بعضاً من آثار وعلامات ملك الله للسماوات والأرض:

١- أن الله سبحانه يمكنه أن يستبدل خلقاً جديداً بهذا الكون(*): ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٦- ١٧].

ويقول سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

---

(*) ملاحظة: الباء عند استبدال شيء بآخر: تلصق في بداية المتروك.

٢- يمكنه سبحانه أن يضيف إلى كونه ما ليس فيه، فيقول سبحانه:

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ [فاطر: ١].

٣- يمكنه سبحانه في ملكه أن يحيي ويميت من يشاء وحين يشاء:

فقد قال سبحانه ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ...﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقال سبحانه: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ...﴾ [الروم: ١٩].

٤- يعلم سبحانه جميع ما في كونه، فلا تفوته صغيرة ولا كبيرة.

﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٩٧].

٥- لا يستجد في الكون من جديد إلا بإرادته سبحانه وبعلمه.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الزمر: ٤٦].

٦- من صفات ملكيته للناس أنه يعلم ما يجول في خواطرهم وما تنطوي عليه صدورهم وسرائرهم. وفي ذلك يقول سبحانه:

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩].

٧- ومن علامات الملك أيضاً أن كل شيء يعود ويرجع إليه سبحانه فعنده كانت البداية ولديه ستكون النهاية.

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥].

٨- وسبحانه كذلك هو المالك ليوم الدين.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

٩- سبحانه متفرد بالملك ولا شريك له لا في ملكه ولا في ربوبيته ولا في ألوهيته لا في الدنيا ولا في الآخرة.

١٠- وهو الواحد الأحد الذي يملك النفع والضُر والأرزاق.

﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ﴾ [المائدة: ٧٦].

ويقول سبحانه: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

فعندما تعلم أن كل ما في هذا الكون هو لله، وأنك نفسك وكل ما تملك هو من الله ولله، وأنه يستطيع أن يسلبك وما تملك في اللحظة التي يريد، وهو المتحكم في حياتك ومستقبلك وفي مقدراتها.

ألا تشعر عند ذلك أن في هذه الملكية المطلقة تحجيماً للإنسان ولكل المخلوقات؟ وأن هناك رسالة تقول: لا يستطيع أحدٌ أن يخرج من تحت قدرة الله ولا من تحت سلطانه؟

أليس جديراً بك عندما تعرف حجمك وحقيقتك أن لا تتيه على خلق الله وأن لا تصول ولا تجول ولا تتكبر على غيرك؟

لاسيما إن أنت عرفت أن هذه الأرض (التي لم تر في كل أسفارك ورحلاتك أكثر

من ١٪ منها)، التي تعتقد أنها كبيرة، هي في حقيقتها لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

وأعتقد أن النسبة بين جناح البعوضة وكتلة الأرض أكبر من نسبة الأرض إلى الكون (على الأقل في النسبة الأولى يمكن أن تذكر عدداً أو تعقد مقارنة، لكن في النسبة الثانية فلا مجال).

بعدما فهمنا كل ما سبق، ألا ينبغي علينا أن ننصرف لله وحده بالدعاء، لأنه وحده، ولا أحداً غيره يملك لنا نفعاً أو ضراً، ولأن كل السبل والأساليب التي نتبعها ونلجأ لها في تحقيق أغراضنا ما هي إلا أسبابٌ بيد الله وحده.

ومهم جداً أن نفهم أنه لتحقيق أغراضنا وللوصول إلى أهدافنا لابُد أن نأخذ بالأسباب، لكن علينا أيضاً أن نعرف أن هذه الأسباب (مهما كانت محسوبة ودقيقة) فهي لا تحقق لنا ما لا يريد الله تحقيقه، وأن الإرادة الإلهية هي التي تحرك الأسباب، بينما لا تملك الأسباب أن تؤثر على إرادة الله شيئاً.

## ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾

الشفاعة هي طلب النصرة بالشفيع، وهي نوع من التوسل يتم فيها السعي بالقول في وصول الإنسان إلى منفعة دنيوية أو أُخروية، وقد تكون الشفاعة في السعي لتخليصه من مضرةٍ أو من عقاب.

وغالباً ما يطلب الشفاعة إنسان مخطئ أو مُقصر في حق شخصٍ ما، أو ربما معتدٍ عليه. فينضم إلى شخص آخر ليكون ناصراً له وسائلاً له الشفاعة.

وأكثر ما يستعمل في الانضمام من هو أدنى حُرمة ومرتبةً إلى من هو أعلى حرمة.

ففي الحياة الدنيا يلجأ صاحب الحاجة أو المخطئ إلى شخص صاحب جاهٍ، عالي المقام (خُلقاً وأدباً ومنطقاً)، فيطلب منه أن يكون له شفيعاً في غايته.

ومن شيم الكرام عدم رد طالب الشفاعة خالي الوفاض، لأنه ما تقدم بطلب الشفاعة إلا ويحدوه الأمل بالإيجاب وبالموافقة.

وعلى الرغم من ذلك فنحن البشر لا نقبل شفاعة أي شخص ولذلك على الإنسان أن يُحسن اختيار شفيعه، فيرسل الرجل الذي يتأكد من قبول شفاعته لدى خصمه وإلا باء بالبوار وحتى لا ينطبق عليه قول الشاعر:

إذا كنـــتَ في حاجـــةٍ مرســـلاً ... فأرســـل حكيمـــاً ولا توصـــه

وإن بـــاب أمـــرٍ عليـــك التـــوى ... فشـــاور لبيبـــاً ولا تعْصِـــهِ

لكن أمر الشفاعة في الآخرة مختلف، فترى أن الله سبحانه قد وضّح لنا الأمر على شكل استفهام استنكاري وجهه إلى خلقه واضعاً هذا الاستفهام في وسط أعظم آيةٍ في القرآن.

ولعله في ذلك يريد أن يوصِّل لنا معنىً محدداً ويثّبت في قلوبنا مفهوماً معيناً، هو أن معظم البشر (إن لم يكونوا جميعهم) سيكونون يوم القيامة بأمس الحاجة إلى شفعاء يشفعون لهم عند الله، لعله يخفف عنهم عناء وألم ذلك اليوم العصيب، ويوفر لهم الأمن من الفزع الأكبر، وييسر حسابهم، ويمن عليهم بالجنة وبالنظر إلى وجهه الكريم.

سيكون الخلق يوم القيامة بأمس الحاجة لمن يتوسل إلى الله طالباً الصفح لهم وإلى هؤلاء المستجيرين الذين يملأ الخوف قلوبهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

ففي هذا اليوم تتوجه الخلائق إلى الأنبياء وإلى الرسل وإلى الصالحين المرضيين من المؤمنين يسألونهم الشفاعة ويطلبون منهم النصرة عند الله.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩].

ومن فيض كرم الله ورحمته (التي لا تنتهي) أنه يأذن بالشفاعة إلى فئةٍ معينةٍ من الرسل والأنبياء ومن صالحي المؤمنين (وعلى رأسهم سيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ)، لكنها شفاعة محدودة وربما تكون مقتصرة على فئة معينة من خلق الله.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣].

فعلى الرغم من أن رحمة الله مطلقة، إلا أن قبوله للشفاعة غير مطلق، ففي استفهامه الاستنكاري ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يؤكد لنا سبحانه أن هذه الشفاعة ليست حقاً مكتسباً لأحد، ولا هي عامة مفتوحة لكل من هب ودب، ولا لكل من تهيئ له نفسه أنه مرضيٌ ومقبولٌ عند الله، بل هي منحة ربانية يُغدق بها على من يرضى ويختص من خلقه، وعلى من هو جدير أو يستحق هذا العطاء وهذه المنحة.

رسالةٌ واضحةٌ من الله سبحانه تقول: أنه لا يسمح لمخلوق كائنٍ من كان أن يتدخل في شئونه، ولا أن يفكر في التصرف بقليل أو كثير من أمور الله وحكمه ومحاسبته لخلقه، ولا أن يُنصِّب نفسه شفيعاً لأحد ما لم يأذن الله له بالشفاعة. ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ...﴾ [سبأ: ٢٣].

وبذلك يمكن أن نحتسب صفة استئثار الله نفسه بمنح الشفاعة أو منعها عن عباده، والتحكم فيها تحكماً مطلقاً واحدةً من مقامات الألوهية وعلى وبالنسبة للطرف الآخر فهي تعبُّداً لهم.

فكونه لا يجرؤ أحد على الشفاعة عند الله إلا من بعد أن يؤذن له، ويكون الإذن في حدود لا يتجاوزها، فإن ذلك في حد ذاته خضوع وعبودية واستسلام لله عز وجل. ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا...﴾ [الزمر: ٤٤].

بقي أن أقول: أن هناك شفاعة حسنة طيبة قصدُها نبيل وغايتها شريفة لا تتعارض وأحكام الله، فمثل هذه الشفاعة تعود على الشفيع بالنفع والمردود الطيب.

وهناك شفاعة سيئة قصدها غير وجه الله، وهدفها لا يُرضى اللهُ، وشفاعة كهذه لا تعود على صاحبها إلا بالوبال والمردود السيء. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾.

وفي الختام فإنني ألحظ أن للشفاعة أركاناً لابد أن تتحقق حتى يقبلها الله سبحانه منها:

أ- أن المشفوع له لابد أن يكون مقبولاً ومرضياً عند الله فيقول سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ويقول سبحانه كذلك: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وإن كان المشفوع له غير مرضى عنه عند ربه فلا تنفعه الشفاعة وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

ويقول سبحانه كذلك: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ [يس: ٢٣].

ب- ومن أركان الشفاعة أيضاً أن يكون الشفيع ممن أذن الله له بالشفاعة، أو ممن اتخذ عند الرحمن عهداً، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ [يونس: ٣].

ويقول سبحانه كذلك: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ويقول سبحانه: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ [مريم: ٨٧].

ج- أن تكون الشفاعة في خير وفي أمر حسن وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ﴾ [النساء: ٨٥].

ربنا هيء لنا من يشفع لنا بين يديك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

# ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾

العليم هو أحد أسماء الله الحسنى، وقد ورد تصريف كلمة (علم) حوالي ٧٨٠ مرة في القرآن الكريم.

فقد قال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١١]. وقال سبحانه: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

والعليم في اللغة هو كثير العلم (وهل من هو أكثر علما من الله ؟).

أما معنى العليم من الناحية الدينية فهو الذي يحيط علمه بكل شيء في الوجود، وبكل ما يدور في ملكه وفي هذا الكون، (وفي الأكوان الأخرى إن وجدت) وفي ذلك يقول سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

ويُصَنَف الناس من حيث العلم على درجات متفاوتة ومن هذه التصنيفات ما يندرج تحت بُعد النظر:

فمنهم قصير النظر وهذا لا يرى ما تحت قدميه ولا يعلم ما يدور حوله.

ومنهم من هو أفضل من ذلك بقليل، فهذا يرى ما تحت قدميه (وربما لا يتجاوزها) ويعلم بعض الشيء عن اللحظة التي يعيشها، لكنه لا يستطيع ربط ما يحدث ولا تحليله.

وثالث هو أفضل علماً من سابقيه، وأبعد نظراً منهم، فهو يرى لمسافة معقولةٍ ومحدودةٍ أمامه فهذا أوسع علماً وأكثر إدراكاً.

ومن الناس من نُطلق عليه (بعيد النظر) وهو الذي يرى لمسافةٍ كبيرة أمامه قد تصل إلى الأفق وقد تتعداه عند بعض الناس.

هؤلاء بعيدو النظر لديهم القدرة على فهم ما يحدث حولهم، وتذكر ما حدث معهم (في الماضي)، ويستطيعون ربط الأمور بخبراتهم السابقة، وتحليلها، والقدرة على المقارنة والإحصاء والخروج بتجارب وبخبرات وبعلم يعينهم على حُسن معاملة من حولهم وعلى تدبير الأمور والتخطيط إلى مستقبل أفضل (مع إيمانهم بأن الحاضر والمستقبل كله بيد الله).

ما سبق شرحه هو صورة جد مختصرة عن نوعٍ من العلم البشري وعن محدودية علم الإنسان.

## لكن ما هو الحال في علم السميع العليم؟

**يقول سبحانه:** ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [التوبة:٧٨]، فهو بذلك عالم الغيب والشهادة، وهو الذي يعلم ما في الصدور، والذي لا يعزب عنه مثقال ذرة ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ [سبا: ٣]؟

وكذلك يقول سبحانه: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾.

أليس في هذه العبارة ما يؤكد وبكل وضوح: أن علم الله سبحانه شامل مُتقصٍ لأحوال خلقه؟ ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا ...﴾[الأنعام: ٨٠]

يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم (من حاضر يعيشونه، ومن ماضٍ مر بهم، ومن مستقبل في علم الغيب ينتظرهم، وما سوف يؤول إليه مصيرهم وما سوف يحل بهم)، وكل هذا الآن محجوب عنهم وعلمُ غيبٍ بالنسبة لهم، لكنه عند الله معلوم ومكشوف بل ومكتوب في اللوح المحفوظ.

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ﴾ [غافر: ١٦].

أليس في قوله سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ﴾ إشارة واضحة إلى أن الله سبحانه هو عالم المُلك (وهو العالم المشاهد والمعروف للناس)؟

وهو كذلك عالم الملكوت (وهو عالَم الغيب وما في السماوات وما في الأرض مما يعرفه الناس ومما لا يعرفونه).

فقد فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

أليس في هذه العبارة ما ينبئ عن مقام الله سبحانه وعن قدرته وسيطرته على خلقه، وعلى امتلاكه لهم وعلمه بأحوالهم؟

أليس في ذلك تنبيه صريح، بل إنذار للنفس البشرية أنها في كل سلوكياتها وممارساتها وتصرفاتها تقف عارية مكشوفة بين يدي خالقها، لا يحجب سلوكياتها عنه حاجب؟ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ﴾ [إبراهيم: ٣٨] بل هي مكشوفة أمام خالقها لا يخفي عليه شيء من أمرها، فتعلم بذلك أنه مِنَ الأفضل لهذه النفس أن تكون صادقة مع ربها، حسنة الظاهر والسريرة والباطن؟

وذلك لأن كل ما تعمله وما لديها واضح مكشوف بين يدي ربها، ولا تملك أن تخفيه عن خالقها، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦].

كما أنه من العار والمخجل أن يُظهر الإنسان غير الذي يبطن، فيقول لسانه غير الذي يخفيه قلبه فيتجاهل بذلك قول الحق: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وفي آية كريمة أخرى يقول سبحانه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

أي أن الله سبحانه يعلم عنك وعن نفسك ما لا تعلمه أنت عنها، فهو يعلم ما تخفي وتدبر في الليل وما تجرح في النهار، ويعلم ما تفعل في السر وفي العلانية، كما ويعلم ما يختلج في عقلك الباطن من أشياء لا تعلمها أنت عن نفسك.

كما أنه سبحانه يعلم ما تُسر في نيتك وما تخفي في صدرك وأحياناً يحاسبك سبحانه على نواياك وعلى ما في صدرك، إن خيراً فخير وإن شراً، فشر. (أعاذنا الله من الشرّ).

فقد قال سبحانه: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤] .

قال ﷺ: **نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شرٌ من عمله..**

وكما قال رسول الله ﷺ: (**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىءٍ ما نوى**).

ومن فَرطِ علم الله عن خلقه أنه يعلم ما فيه من خيرٍ لهم، رغم أنهم قد يظنونه شراً لهم، وكذلك يعلم سبحانه ما هو شرٌ لهم رغم اعتقادهم أنه خير لهم، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وهذا يستوجب طاعته سبحانه، وقبول قضائه مهما كان ظاهر هذا القضاء صعباً أو مؤلماً.

ويفسر البعض ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ على أنه المشهود الواضح أمامهم ويفسر ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ﴾ على أنه ما وراءهم وهو الغيب غير منظور وغير المشهود.

بينما يفسر آخرون ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ على أنها الدنيا التي يعيشونها، أما ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ﴾ فهو علم ما سيؤول إليه مصيرهم في الآخرة.

## ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾

بقدر ما تلمس عظمة الله في كل ظاهرةٍ تراها، وفي كل آية تسمعها وفي كل شيء تدركه بحواسك في هذا الوجود فإنك أيضاً تلمس وتعيش رحمته في كل ما يقع عليه ناظراك أو سمعك من موجودات هذا الكون، وفي كل آيةٍ من آيات الله سواءً أكانت في القرآن أو في الحياة.

هذه العبارة التي إن أردتها سهلة بسيطة فلك ذلك، بل وما أبسطها (فهي باختصار تقول: أن العلم كله عند الله ومِنَ الله ولا يعرف البشر ولا يعلمون منه شيئاً (مهما قل أو كثر) إلا بإذن من الله وبمشيئته، يُنزله على من شاء ومتى يشاء).

وإن أردتها مرجعاً زاخراً بالكثير من العبر والمعاني بل والإعجازات فلك ذلك أيضاً (وهذا ما سنحاول توضيحه).

وإن أنت أردتها بحثاً طويلاً مستفيضاً تُسطّره في العديد من الصفحات، فذلك أيضاً ممكن بل هو سهل ويسير (لكن وللأسف لا تتوفر في كتابنا هذا مساحة لبحث بهذا الحجم).

لكن وقبل الخوض في المعاني السامية والمعجزة لهذه الفقرة الكريمة دعنا نُلقي نظرةً عابرةً على معاني مفرداتها، ونتلمس بعضاً مما تكتنزه من إعجاز.

**معاني المفردات:**

﴿يُحِيطُونَ﴾: يحيط بالشيء أي يُطوقه ويُسيطر عليه من جميع جهاته وكافة جوانبه.

والإحاطة بالعلم هي دراسة كل شيء عن هذا العلم، ومعرفته بكل أبعاده والسيطرة على كل جزئياته والإلمام بها.

بالضبط كما يشتمل ويسيطر محيط الدائرة أو محيط المربع على كل ما بداخل هذا المحيط.

﴿بِشَيْءٍ﴾: ماذا أقول لك عن معنى شيء؟

ءَأقول أن معناها هنا هو (أقل القليل)؟.

فعندما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾.

فإنما يعني سبحانه (والله أعلم) أنهم لم يحيطوا بعلمه لكنهم عرفوا أقل القليل من علم الله والذي سمح لهم بمعرفته، ويُقدِر بعض العلماء هذا (الشيء) بحوالي ٣٪ من مجموع العلم الكوني(وهو النزر اليسير).

وهذه الآية تتوافق مع الآية الكريمة التي يقول سبحانه فيها:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولا تناقض بينهما بل إن احداهما تفسر وتكمل الأخرى.

أما كلمة ﴿عِلْمِهِۦٓ﴾: تعني علم الله، فما هو علم الله؟

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

هل هو العلوم الطبيعية بمختلف أنواعها وصورها التي ندرسها ونعرف عنها النزر اليسير؟

أم أن هناك علوماً أخرى قد اختص الله سبحانه نفسه بها، وعلّمها لبعض خلصائه من خلقه مثل:

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

علم الكتاب: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النمل: ٤٠].

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران: ٤٨].

﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٥١].

أم هي علوم عرّفنا الله سبحانه بأسمائها لكنه حجب عنا كُنهها مثل:

* علوم غيبية: وتشمل العلوم الغيبية التي حجبها الله عن خلقه وهي: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤].

* وعلم اليقين: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٥].

أم أن هناك علوماً يعرفها الله وحده، ولا نعرف نحن عنها أي شيء، حتى أسماءها أو مواضيعها، أو فيم تبحث وفيم تختص؟

* ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

أنا أميل إلى هذا الفهم وإلى هذا التقسيم لعلم الله، خاصة إذا قارنت بين العلم الإلهي وبين أسماء الله الحسنى من حيث مقدار معرفتنا بها.

فمثلاً يمكن تقسيم معرفتنا لأسماء الله الحسنى (كما ورد في الحديث الشريف الصحيح: أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلفك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك) إلى ثلاثة أقسام هي:

## أقسام أسماء الله الحسنى من حيث معرفتنا بها:

١. قسم أنزله سبحانه في كتابه وعددها تسعة وتسعون اسماً فعرفناها وسطّرناها على لوحات جميلة، ويا ليتنا نكمل معرفتنا لها فندرسها حق دراستها!.

٢. قسم (أسماء) سمّى الحق بها نفسه، وعرّفها لبعضٍ من خلقه من الملائكة والأنس (منها اسم الله الأعظم الذي اختص سبحانه به بعضاً يسيراً من المقربين لديه).

٣. قسم احتفظ به سبحانه لنفسه، واستأثر به في علم الغيب عنده، فلا يعلمها إلا هو سبحانه ولم يُعلِّمها لأيٍ من مخلوقاته، وعلى هذا النسق يمكن تقسيم العلوم. ولعل من هذه العلوم علم الروح وعلم يوم القيامة وعلم الساعة.

## أقسام العلوم من حيث معرفتنا بها:

١. علوم عَرَّفنا سبحانه بها فقطعنا فيها شوطاً لا بأس به، شوطاً يتناسب مع مقدار فهمنا للحياة ومع مقدار حاجتنا وما يتطلبه القيام بخلافتنا في إعمار هذه الأرض.

٢. علوم لا يعرفها إلا النخبة من الرسل والأنبياء والعلماء، والباحثون والمختصون وقد لا ينال العامة منها إلا القليل، بل ربما عرفوا أسماءَها فقط.

﴿قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣]، ﴿... بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨].

٣. علوم لا يعلمها إلا الله وحده، ولعل منها ما يختص بكُنهه وبذاته ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. فنحن لا نعرف عن هذه العلوم شيئاً بل ولا حتى أسماءها. هذه العلوم قد يمن الله علينا بها في الحياة الآخرة، لأنها لا تقع ضمن نواميس الحياة الدنيا.

كما يمكن تقسيم العلوم إلى قسمين أحدهما كسبي وهو الذي يكسبه الإنسان بجهده وبأبحاثه (بعد عون الله له)، والآخر هو (وهبي) يهبه الله لبعض خلقه.

﴿بِمَا شَآءَ﴾: تعني بما رغب وبما أراد، ولكن يغلب على معناها هنا بما سَمح وبما أذِن.

والآن نعود إلى العبارة الكريمة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ لعلنا نفهم بعضاً من معانيها وبعضاً من قصد الله سبحانه منها. وآمل أن تُضيء لنا هذه العبارة بعضَ ما خفي علينا فنتلمس طريقنا إلى رحمة الله في هذه العبارة الجليلة.

فعندما يقول سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾، فهو ينفي أن يحيط أحدٌ من مخلوقاته (الأنس أو الجن أو الملائكة) بشيء (بالقدر القليل) من علمه إلا بما يأذن (هو) سبحانه به.

كما قد تعني هذه العبارة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ﴾ أننا قد نعرف ونعلم بعضاً من علم الله (الذي يشاء لنا أن نعرفه) لكننا لا نستطيع الإحاطة بكافة جوانب هذا العلم، لأن الإحاطة الكاملة بالعلم شيء، ومعرفة البعض منه شيء آخر.

فالإحاطة الكاملة بأي علم غير متاحة وغير ممكنة.

ومثال ذلك قوله سبحانه ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

ولم يقل سبحانه (علم آدم العلوم كلها ولا حتى علم آدم العلوم).

كما قال سبحانه: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١].

كما وقال سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦].

حتى أن الملائكة اعترفوا بمحدودية علمهم حين قالوا:

﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة: ٣٢].

وفي الدعاء تقول: ربنا علمنا ما جهلنا (وما أكثر ما نجهل) وانفعنا بما علمتنا، أي اهدنا لجني منافع العلم وليس اكتساب مضاره.

آيات تكمل بعضها بعضاً، وتُخبر بكل وضوح أننا لا نعرف ولا نحيط بأي قدر من العلم إلا بما يجود به الله علينا.

والآن دعنا نحاول أن نستشف بعضاً من العبر والمعاني السامية والمعجزات الكامنة في هذه العبارة الجليلة.

فأول ما تلحظه فيها أن الله سبحانه يخبرنا (بواضح العبارة) أنه لا علم لنا إلاّ ما علمنا، وما سمح لنا أن نحيط به، وأنه لا يمكننا الوصول إلى أي قدرٍ من العلم (مهما قل أو كثر) إلا بما يشاء سبحانه به وبما سمح لنا بمعرفته.

هذا التحكم المطلق، وهذا التقنين الدقيق في نزول العلم هو أحد الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على ربوبية الله وعلى قدرته وعظمته وسلطانه وعلى أنه جل وعلا قادر على كل شيء.

تجدر الإشارة إلى أن هذا الإظهار للقدرة وهذا التحكم المطلق ليسا ضرباً من ضروب القهر والجبروت والتسلط، بل هما نوع من التقنين المحكم ومن الرحمة المسداة بأسمى معانيها.

يعتبر هذا التقنين الذي يحفظ للإنسان حياته وسعادته ضرورياً، ذلك أن الإنسان مهما أوتي من العلم ومن الحكمة فإنه لا يعرف بالضبط ما يفيده وما يضره، فقد يحب شيئاً ويكون فيه ضرره، وقد يكره شيئاً ويكون فيه خيره ومنفعته.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢١٦].

لكن الله سبحانه وهو خالقنا، فهو أعلم بما ينفعنا وبما يضرنا، فينزل علينا من العلم (كماً ونوعاً) بقدر حاجتنا وبما يلبي مستلزمات عصرنا، كما أنه يحجب عنا من العلوم التي إذا عرفناها كانت وبالاً ودماراً علينا (وربما) وعلى من حولنا، خاصة إذا لم نكن في المستوى الحضاري والإنساني والثقافي المطلوب الذي يخولنا حُسن التعامل مع هذه العلوم، مما يتيح لنا جني ثمارها وتجنب مساوئها وأضرارها.

كما أنه سبحانه ينزل لنا هذه العلوم تصديقاً لقوله: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] ومن أصدق من الله قيلاً ومن أوفى منه وعداً؟

والعلم ليس هو الشيء الوحيد الذي يقننه الله سبحانه وينزله بقدر، بل ربما كل الأشياء ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢].

ومن هذه الأشياء:

- **الرزق:** ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرعد: ٢٦].

- ومنها **الماء:** ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾ [المؤمنون: ١٨].

- ومنها **الأقوات:** ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠].

وغيرها الكثير.

فالتقنين هو ناموس من نواميس الله في الأرض، ولا شك أنه ينظم وييسر الحياة على الأرض، وقد يكون له بعض الأسباب مثل:

١- إن العقل والدماغ الإنساني غير مصممين ولا مهيأين لاستيعاب وتفهم علم الله لهذا الكون.

فرحمة من الله سبحانه بعقولنا أن لا نُقحمها بمعلومات أكبر من قدراتها ومن طاقاتها، وبمعارف لا تتناسب مع عصرها.

فمعلومات تراها طبيعية الآن، لو أنك قدَّمتها لإنسان قبل عقود قليلة من الزمن فلربما أنكرها واستبعدها.

وخير دليل على ذلك أن بعض المواد العلمية والأدبية والتي كانت قبل سنوات قريبة، تُدَرس إلى طلبة المراحل الثانوية العليا أو الجامعية قد أعاد مخططو (واضعو) المناهج المدرسية النظر فيها وقرروها (وبشكل طبيعي) على طلاب المراحل الابتدائية، فأصبحت بعد هذا التراكم العلمي مناسبة لهذا المستوى من الطلاب.

أضف إلى ذلك أنك لو دققت النظر في الاكتشافات الحديثة ورجعت بذاكرتك لظروف اكتشافها، لوجدت أنه ما من اكتشاف ولا اختراع إلا وقد جاء في الوقت المناسب، وليقضي حاجة في حياة الإنسان، ولذلك قالوا في الأمثال (الحاجة أم الاختراع)، والحاجة تُفتق الحيلة.

٢- لقد شرّف الله سبحانه الإنسان باستخلافه في هذه الأرض، ولكي يستطيع الإنسان أن يؤدي هذه المهمة فقد أهّلَه سبحانه وتعالى وزوده بكل مستلزمات واحتياجات هذا الاستخلاف وعلى رأسها العلم المناسب في الزمان والمكان المناسبين.

فهو سبحانه يكشف لنا يوماً بعد يوم وجيلاً بعد جيل بعضاً من أسرار ومساتير هذا الكون بما يتناسب مع احتياجاتنا.

ولو أنك رسمت خطاً بيانياً يوضح العلاقة بين مقدار المعارف والكشوف العلمية وبين الزمان، لوجدت أن هذا المنحنى دائم الصعود، وأنه سبحانه قد كشف لنا وعلّمنا الكثير.

لكنه أيضاً أخفى وحجب عنا الأكثر مثل سر الحياة، وكُنه الروح، والمستقبل والغيب وما يخفيان، وكذا موعد قيام الساعة، بالإضافة للكثير من الأسرار التي أخفاها وحجبها عنا.

وأجزم أن هذا الإخفاء ما كان إلا لأن هذه العلوم إما أنها لا تلزم أو غير ضرورية لحياتنا الدنيا، أو لأن العلم بها سوف يقودنا إلى مسالك الدمار، بسبب ما تحتويه من الآثار السلبية على الحياة.

٣- من أسباب التقنين أن الإنسان كفّار وجهول فقد يكشف له الله سبحانه ومضة علمية ذات شأن فيصاب الإنسان بالغرور والافتتان بنفسه وبعلمه، فيستطيل على خلق الله وقد يعيث في الأرض فساداً (التلوث خير دليل) قد يصل به حد الجبروت الذي يُصور له أنه قادر على صراع الطبيعة وقهر البحار، وتحدي المناخ وغير ذلك من تعابير الغرور الإنساني، ولكن بحمد الله تَحجّمت هذه التعابير وتقزم غرور أمثال هؤلاء العلماء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ

نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

وقد ينسى الإنسان أن هذا العلم كله من الله سواءً حصل عليه وهباً أم كسباً.

وينسى أنه عبر عصور من التراكم العلمي والجهود المضنية لم يكتشف من أبعاد هذا الكون سوى ثلاثة أبعاد هي: البعد الأول وهو (الطول)، والبعد الثاني وهو المساحة (الطول × العرض)، والبعد الثالث وهو الحجم (طول × عرض × الارتفاع).

ومنذ زمن ليس بالبعيد أنعم الله علينا باكتشاف البعد الرابع وهو الزمان المكاني، هذا البعد لا يعرفه إلا القليل من الناس، أما الذين يفهمونه ويستوعبونه فهم أقل.

أربعة أبعاد بعد قرون متطاولة من الزمان، مع أن بعض العلماء يعتقد أن في هذا الكون أكثر من ستة عشر بُعداً، لم نعرف منها إلا الأبعاد الأسهل والأوضح.

لعل هذا المثال يعطيك صورة عن مقدار ما قد أحطنا به من العلم، صدق الله عندما قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

٤- ربط سبحانه مقدار ما يسمح به من العلم والمعرفة بنوع ومستوى الثقافة والحضارة السائدة.

فمثلاً حجب سبحانه علم المتفجرات والطاقة النووية عن عصور الغزاة مثل اليونان والرومان والمغول والتتار.

فرغم أن علم هؤلاء الأقوام عن الأسلحة وعن معدات الدمار كان محصوراً في السيوف والرماح، إلا أنهم عاثوا في الأرض فساداً مازالت بعض آثاره السلبية ماثلة للعيان حتى الآن، وأخص بالذكر منها الحروب الصليبية التي قام بها الجهلة الحاقدون والمتسترون خلف الدين المسيحي والطامعون بثروات الشرق وخيراته.

هذه الحروب بدأت، لكنها لم تنته، ولم تنقطع لحظة واحدة وكل ما حدث هو تغيير في أساليبها. وأذكر لك مثلاً واحداً من جرائمها وهو: أن الصليبيين الحقدة قد زرعوا اليهود في فلسطين بكل الوسائل وبكل الدعم اللاأخلاقي واللاإنساني..

تصور أن زعيماً لدولة عظمى (أقل ما يوصف به أنه أحمق) يتبجح في هذه الأيام معلناً الحروب الصليبية على الإسلام لكن الله سبحانه كان له بالمرصاد فقد فضحه وعرّاه وخزاه (هذا إن كان عنده إحساس).

هل تصدق أن أرقى أمم عصرنا الحاضر تفتخر بأنها تُلقي بالقنابل التي تبلغ زِنة الواحدة منها سبعة أطنان من المواد شديدة الانفجار على شعب أعزل.

هل تصدق أن أمة تحمل وترفع لواء الحضارة أنه حين أنعم الله عليها بكشف بعض أسرار الطاقة النووية كان أول استخدام لها أن ألقت قنبلتين نوويتين على المدنيين الآمنين في بلد آخر، فقتلت وشوهت الملايين (وفي اعتقادي أنها لم تشوه سوى وجهها ونفسها).

والغريب أن الدول الأقل حضارة وتقدماً (في رأيهم) قد ملكت هذه القنابل لكنها لم تلقها على أحد.. لقد غُم عليَّ الأمر. فلست أدري بأي معيار يقيس هؤلاء الحضارة والمستوى الحضاري!!

ما ذكرته لك من أمثلة على سوء استخدام ما يهبنا الله به من علم ما هو إلا غيض من فيض، فمثلاً قد حرم الله سبحانه استنساخ الأجنة البشرية في كل الديانات، إلا أن هناك بعض الجهات ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٥٢] (تسعى جاهدة لإباحته من خلال القوانين الوضعية في أمريكا والغرب وذلك بحجة البحث العلمي.

ألا يكفي ذلك سبباً أن يُقنن الله سبحانه تنزيل العلم لنا؟ فلا ينزله لنا إلا بمقدار. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحِجر:٢١] ألا يكفي ذلك سبباً أن يحجب سبحانه العلم عن أمثال هؤلاء؟

لكن ولحكمة بالغة عند الله (لا نعرفها) يُنزل على أمثال هؤلاء بعضاً من العلم.

٥- بالتأكيد أن هناك أسباباً أخرى لم أذكرها، وأخرى لا أعرفها تفرض أن يُقنن الله سبحانه نزول العلم، وأن ينظمه وأن تكون مشيئته مرتبطة بالزمان والمكان ومصلحة الإنسان على هذه الأرض.

فقد قال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣] وقال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨].

وتقضي مشيئة الله أن يتشابه ميلاد الإنسان مع ميلاد أسرار الله في الكون واكتشاف العلوم على هذه الأرض.

فكما أن لكل طفل موعد ولادة يحدده الله سبحانه، كذلك فإن لكل علم ولكل سر من أسرار الله في هذا الكون موعد يلد فيه ويظهر فيه، حتى أن الكثير من العلوم يحتفل الإنسان بمعرفتها وباكتشافها كما نحتفل نحن بالمواليد الجُدد.

## ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾

لقد تعددت آراء السادة العلماء في تفسير هذه الجزئية من الآية الكريمة.

فبعضهم مثل الحسن البصري قال: إن الكرسي هو العرش، لكن آخرون قالوا الكرسي ليس هو العرش، وإن العرش أكبر من الكرسي، وأنهما (الكرسي والعرش) مخلوقان لله مثل السماوات والأرض ولا يعلم حقيقتهما إلا الله.

وفسر بعضهم (ومنهم ابن عباس) أن كرسيه هو علمه، بدلالة قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠] فأخبر بذلك أن علمه وسع كل شيء.

كما استشهدوا بظاهر القرآن الذي يقول: إن أصل الكرسي هو العلم ومنه يقال للعلماء كراسي لأنهم المعتمد عليهم بخاصة عند الخطوب وفي حالة الأمر العظيم.

وقال مفسرون آخرون: إن كرسيه هو موضع قدميه وقال السدي: إن الكرسي يوجد تحت العرش أما مجاهد وغيره فقالوا: إن الكرسي هو الملك والسلطان والقدرة، وهذه جميعها معانٍ مجازية، حيث أن الكرسي يستعمل أحياناً بمعنى المُلك والسلطان والحكم.

ومن تفسيرات هذه العبارة ما قاله الضحاك.

حيث قال: لو أنك وصلت السماوات السبع والأرضون ببعضها لكانت كحلقةٍ في فلاة بالنسبة لسعة الكرسي.

هذه بعض أقوال مفسرينا الأجلاء وإن اختلفت عن بعضها فهي متقاربة وأحسبها سليمة صحيحة، ولذلك فلا أريد أن أقحم نفسي في الكلام عن هذه

العبارة، لاسيما وأن بعضاً من كبار علمائنا قد تجنب الخوض فيها وترك أمر تفسيرها لله سبحانه، وهو بذلك يكون قد اتبع القول المشهور: (رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه، فوقف عند حده).

لكننا لو استعرضنا بعض الآيات الكريمة من القرآن، وربطنا بينها وبين هذه الآية (العبارة)، وتفهمنا كذلك بعض أسماء الله الحسنى، فلعلنا نخرج بصورة أوضح فكرة وأنصع بَيْنة عن هذه العبارة الجليلة.

فقد قال سبحانه:

- ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].
- وقال أيضاً: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].
- وقال سبحانه: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠].

فلعل كرسيه الذي وسع السماوات والأرض هو مزيج من رحمته وعلمه وقدرته، وكامل ملكيته لما في السماوات وما في الأرض، وحلمه وكرمه وعدله التي تغطي كافة خلقه، وكذا نفوذه وسلطانه وهيمنته على كل نقطة وعلى كل بقعة من هذا الكون، بالإضافة إلى أنه سميع لا يغيب عنه مسموع، وبصير يشاهد كل موجود. محاولة متواضعة للفهم، لكن الحقيقة الناصعة هي أن الله أعلم بمراده من هذه العبارة الجليلة.

## ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾

آده الأمر أو الحمل يعني أثقله وشق عليه، وصعب عليه حمله.

وكما تعلم فإن لله سبحانه العديد من الأسماء منها:

**المهيمن**: وهو المسيطر على كل شيء بكمال قدرته.

ومنها **الحفيظ**: الذي يحفظ الكون من الخلل ومن اضطراب الاتزان.

ومنها **الخبير**: وهو العالم بكل شيء، والذي يخبر عن كل صغيرة وكبيرة في هذا الوجود.

ومنها **القوي**: وهو الذي لا يُعجزه شيء.

ومنها **القادر**: وهو الذي يقدر على ما يشاء ويفعل ما يريد.

هل تعتقد أن الله سبحانه وتعالى، والذي تُشكل هذه بعض صفاته، ومؤشرات قدرته وعظمته. هل تعتقد أنه يشق عليه أو يعجزه أو يؤوده ويصعب عليه أن يحفظ مخلوقاته من السماوات والأرض ومن فيهن وما فيهن؟

وهو القائل: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [هود: ٥٧].

وهذه الآية هي كناية عن القدرة الكاملة لحفظهما.

حاشا لله أن يصعب عليه شيء في الأرض ولا في السماء، أو يثقل على قدرته أن يحفظهما في توازن أبدي شامل بما يحفظ بقاءهما ويمنع زوالهما أو سقوطهما.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ

﴿كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

ويقول سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

إن لله سبلاً ووسائل لحفظ السماوات والأرض، عرّفنا بعضها في قرآنه الكريم، لكنه احتفظ بأخرى كثيرة لنفسه فلم نعرفها.

من هذه الوسائل حفظ الأرض بالرواسي والجبال، تُثبتها وتحفظ لها اتزانها وتحميها من أن تميد بنا.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥].

كما وقال سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

كما ونصب سبحانه الجبال وجعلها أوتاداً تثبت الأرض كما تثبت الأوتاد الخيمة.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٧- ١٩].

ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧].

ولكي تكون مُساهَمة الجبال في حفظ الأرض فعّالة، فقد أرساها سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢].

أي جعلها ثابتة مستقرة على الأرض.

كما أنه سبحانه قد وضع الأرض على البعد الأمثل من الشمس (مصدر الضوء والحرارة)، وعلى بعد مناسب من القمر، ومن الكواكب السيارة ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠].

فيكون بذلك قد وضعها في مدار تلتزم وتتحرك به، وفي فلك لا تبرحه، وهذا يوفر لها أنسب قدر من الضوء والحرارة.

كما يضمن لها أفضل تبادل للجاذبية مع ما حولها من الأجرام السماوية، وبذلك تتهيأ لها أفضل الظروف للحياة، وأيسر السبل لحفظها من سلبيات الكون.

ومن وسائله سبحانه لحفظ الأرض: التوزيع الدقيق، والتناسب الواضح للمسطحات المائية على الأرض (٧١٪ من مساحة الأرض).

وكذلك حِفظ الأرض بالغلاف الجوي الذي قد أحاط بها إحاطة كاملة، ولارتفاع مناسب، وكذلك خليط الغازات المكونة له بمكوناتها ونسبها المثلى، وسماكتها المناسبة لحفظ الحياة على الأرض وحمايتها من الأجسام الصلبة والإشعاعات المدمرة القادمة من الفضاء الخارجي ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

ما سبق هو بعض العوامل التي جعلت الأرض هي الكوكب الوحيد من بين الكواكب السيارة التي تعُج بصورٍ لا حصر لها من الأحياء.

لا شك أن ما ذكرته لك يعتبر أمثلة بل وبعضاً يسيراً من سبل حفظ الله سبحانه للأرض.

والآن آتي على ذكر بعض من وسائله سبحانه الكثيرة في حفظ السماوات.

فقد جعل السماء على شكل بناء محكم متوازن ومتماسك، وجعل فيها أبواباً تفتح وتُغلق بأمره.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق: ٦].

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩].

كما أنه سبحانه قد جعل في بناء السماء من دقة الصنع، وبديع الخلق ما جعلها أعظم من خلق الإنسان (بكل ما في بناء الإنسان من الإتقان والكمال والروعة).

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

ومن طرق حفظ السماء أن جعلها سبحانه مرفوعة فوق الأرض ومن كل الاتجاهات رغم كروية الأرض، فمن حيث نظرت إلى السماء ومهما كان موقعك على سطح الأرض عالياً فإنك تراها مرفوعة فوقك، وزيادةً في العظمة أنه سبحانه رفعها بأعمدة لا نراها ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾ [الرعد: ٢].

لعل هذه الأعمدة هي طاقة الجاذبية التي تربط مكونات الكون برباط دقيق متوازن يحفظ لها مواقعها وإتزانها.

ولم يكتفِ سبحانه بحفظ السماء بل زيّنها وجمّلها بأجرام تضيء بذاتها أو تستمد نورها من غيرها من النجوم ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗا﴾ [فصلت: ١٢].

وزيادة في الحفظ رفع سبحانه السماء ووضع الميزان وطلب منا أن لا نطغى في الميزان ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٧- ٨].

كما وحفظ السماء من الشياطين المتواجدة والمنتشرة (سواحة) في السماوات، بكل ما تسببه من أضرار للأرض ومن عليها.

﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ [الصافات: ٧].

وزيادة في رحمته سبحانه أنه كثّف الحراسة في السماوات مع بعثة سيدنا محمد ﷺ ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾ [الجن: ٨]. ونتيجة لذلك فقد قل عدد الشياطين في السماء الدنيا إلى الحد الأدنى.

ولا شك أن في ذلك تكريماً لرسولنا الكريم.

## ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾

آية كريمة عظيمة، آية هي قلب القرآن، تتفضل علينا بذكر أهم صفات الخالق جل وعلا، وتقول.

إنه الله، الذي إلا إله إلا هو في هذا الكون، وفي الأكوان الأخرى جميعها (إن وجدت).

الله الحي القيوم على كل شيء وعلى جميع خلقه ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الرعد: ٣٣].

الله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، يملك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦].

الله الذي لا يسمح لمخلوق أن يتدخل في شؤونه أو أن يشفع بين يديه إلا بإذنه.

الله الذي يعلم ما يحيط بخلقه في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم وفي دنياهم وفي آخرتهم بل ويعلم ما يجول في صدورهم وما يعلنون.

﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧].

الله الذي لا يسمح لمخلوق أن يحيط بأي قدر من العلم إلا بإذنه وبما يشاء وبقدر ما يشاء.

الله الذي وسع كرسيه السماوات والأرض وأحاط علمه وسلطانه بكل ما في هذا الكون، والذي لا يؤوده حفظ السماوات والأرض.

هذا الإله الذي يملك كل هذه القُدرات والصفات، بماذا يمكن أن تصفه وتنعته؟؟

هذه الآية الكريمة التي تغص بصفات الله الحميدة، بماذا يمكن أن نختتمها؟

وما هو الختام الأنسب والمتناسق مع هذه الصفات؟

أعتقد بل أجزم أنه لا يوجد ختام أنسب ولا أروع ولا أكثر تناسقاً مع محتوى هذه الآية من ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

العلي بذاته وبصفاته، السامي فوق خلقه، العالي عنهم، والقاهر والغالب فوق عباده، العلي الذي ليس من هو أعلى منه، بل ولا يُدانيه في العلو من قريب أو من بعيد أحد، علو الجلال والكمال والإكرام.

العلي الذي لا تصل الأفهام إلى كُنهه وإلى ذاته، ولا يمكن لها أن تتصور مقداره ومكانته.

الله العظيم الذي يستحق أن ينال شرف الاتصاف بهذه الصفة، فهو وحده المتفرد بصفة العظمة الحقة.

الله الذي هذه بعض صفاته هل من أحد في هذا الكون أجدر منه بالمحبة الخالصة وبالطاعة المطلقة وبالعبادة الصادقة؟

آية عظيمة وختام عظيم لصفات صاحبها العظيم.

# وقفات تربوية مع آية الكرسي

آية الكرسي هي أعظم آي القرآن الكريم، والذكر الحكيم إطلاقاً دون منافس أو منازع، وآية كهذه في العظمة والأهمية، لا بدّ أنها ستمدنا بكثير من المعاني السامية، والمثل العليا، بما يتناسب مع قدسيتها ومكانتها. وعليك يا أخي القارئ أن تدرك أنه ليس من السهل عليك أن تحيط بكل ما جاء في هذه الآية الكريمة من فضائل وإرشاد وتوجيه، ولا أن تكشف عن جميع كنوزها أو تميط اللثام عن خباياها الدفينة، فالله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم، وفي نفس الآية التي نتحدث نحن عنها:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾. فأقصى ما يمكن أن نحيط به من معانيها هو ما شاء الله لنا به، وما قدّره، لا يزيد ولا ينقص شيئاً.

إذا أردت أخي القارئ أن تتصف بما في هذه الآية الكريمة فما عليك إلاّ أن تستنير بهديها، وتسلك سبيل ما ترشدك إليه، مما ألهمني الله تعالى إياه وأقدمه إليك في ما يأتي:

a. كلمة ﴿ٱللَّهُ﴾ هي أعظم أسماء الله الحسنى تدفعك إلى اختيار الاسم المناسب لابنك أو لحفيدك. وقديماً اشتكى أحد الآباء للخليفة عقوق ابنه، وعندما سأل الخليفة الابن عن اسمه، وكان قبيحاً قال الخليفة للأب: لقد عققت ابنك قبل أن يعقك، بأن أسميته باسم غير حسن.

b. عبارة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تدفعك لتنمية قدراتك ، وصقل مواهبك إلى الدرجة المرموقة، ولا يتم هذا إلاّ إذا كنت ساعياً ومثابراً ثابتاً على مواقف الحق، عندها سوف تصل إلى ما تصبو إليه.

c. عبارة: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ تدفعك إلى الاهتمام بصحتك، فالمؤمن القويّ خير من المؤمن الضعيف، والقوي في جسمه قوى في عقله لأن العقل السليم في الجسم السليم ولأن الجسم السليم يحوي عقلاً راجحاً سليماً، وصاحب الجسم السليم يكون أقدر على أداء واجباته نحو ربه من صلاة وصيام وقيام ونحو من هم حوله.

d. عبارة: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ نستلهم منها أهمية النوم للإنسان وضرورته، ومقدار حاجته إليه، ودليلنا على ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد حدد له وقتاً، وخصّه بآية من آياته حين قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾. وعلى الرغم من أهمية النوم إلاّ أن المبالغة فيه كالمبالغة في الطعام والشراب، إذا زادت عن حاجة الجسم أضرّت به، علاوة على كونها تحدّ من سعيه في طلب رزقه، وتقود إلى الفقر، ورسولنا الكريم أعلمنا بهذا حين قال ﷺ: (**نومة الصبح تورث الفقر**)، والعاقل من يكتفي من النوم بالقدر الذي يمكنه من رعاية عبادته وأعماله، ورعاية أهله ومن يعولهم.

e. أما العبارة الكريمة: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾. فإنها تدفع الإنسان إلى أن يتحلّى بغريزة حُبّ التملك، وهي غريزة أودعها الله جميع مخلوقاته من البشر، وتتجلى هذه الغريزة في الإنسان حين يكون طفلاً وتظهر جلية واضحة في تصرفاته، وحرصه على أشيائه، كما وتدفعنا إلى التحلي بعناصر الملك والقوة وعلى رأسها الإيمان بالله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وفي النهاية فإنها تحثنا على السعي بقوة وثبات لنكون أغنياء في سعة من العيش والكسب الحلال، مع غنً النفس بعدم النظر لما في أيدي الناس والابتعاد عن

الحسد وكسب الحرام.

f. العبارة الكريمة: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾. فإنها تحذرنا من الشفاعة لكل الأمور التي لا ترتكز على ما أحله الله كالصدق، وعدم الإضرار بالغير، وقول الحق.

أما الشفاعة القائمة على المحرمات كالشفاعة في حدّ من حدود الله، والشفاعة التي تستدعي الكذب، وقول الزور، وقطع أرزاق الناس فإنها شفاعة محرمة ينبغي على كل مسلم أن يبتعد عنها، ويفرّ منها فراره من المجذوم أو الأسد، مع الأخذ بعين الاعتبار أن كلّ شفاعة من الشفاعات لا تتحقق إلاّ بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

g. أما قوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فتعلمك أن تكون يقظاً، واسع الحدس، عالماً بما يدور حولك من أمور أهلك وأصدقائك (وليس أسرارهم) وأن تتلمس حاجاتهم وظروفهم، فتعمل على توفير سبل الراحة لهم، وحل قضاياهم، وإصلاح ذات بينهم ما استطعت.

h. أما العبارة الكريمة: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾. فليكن ذلك دافعاً لك على أن تلتزم بقوله ﷺ: (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود) ولتكن حريصاً على أسرارك. فلا تبح بها لغيرك لقول الشاعر:

وسرك ما كان عند امرئ(*) وسرّ الثلاثة غير الخفي

---

(*) نفسك.

فالأمور التي لا تسدي للآخرين موعظة ولا تجلي لهم منفعة فلا داعي لنشرها حتى لا يخوض الناس بها فيكسبون الإثم بسببها.

i. كما تدفعك عبارة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾. أن تكون مطلعاً، واسع المعرفة، ملماً بالكثير من المعارف والمفاهيم والمعلومات، ولاسيما في أمور دينك، لتكون عوناً للآخرين في أمور دينهم ودنياهم، فتكسب خير الدنيا، وجزاء الآخرة.

j. والعبارة الكريمة: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ فتوصيك وتحضك أن تضرب حول نفسك سياجاً من التقدير والاحترام، فلا تكون هدفاً يُرمى لكل طامع أو مارق، وأن تكون قوى الشخصية تملك القدرة على حماية نفسك وأهلك من كل من تخول له نفسه النيل منهم.

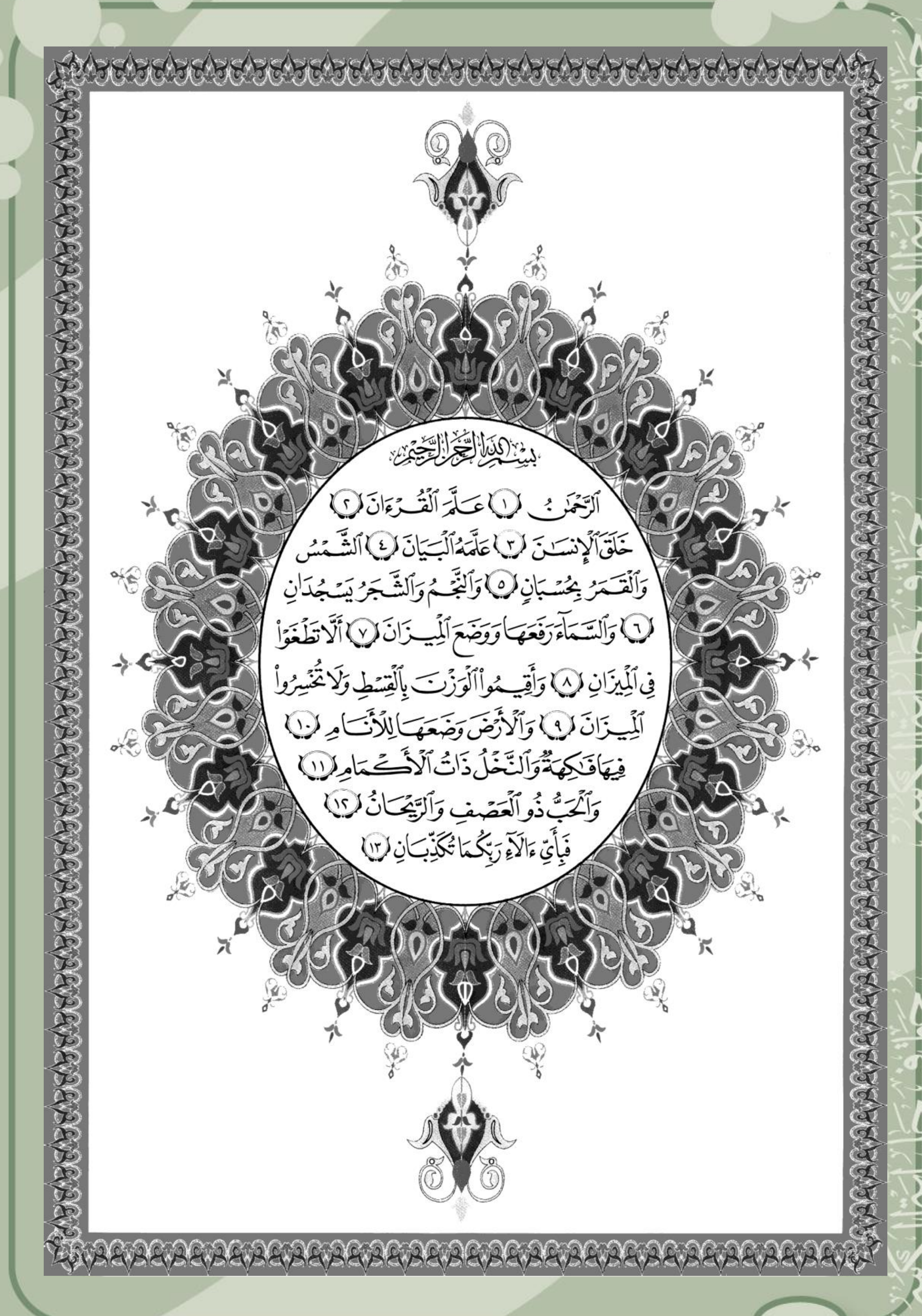
k. وأخيراً وليس آخراً فإن عبارة: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ تستدعي منك أن تكون عالي الهمة، سامي المقام، رفيع الدرجة، بين من هم حولك، فتكسب احترامهم وتقديرهم، ولاسيما حينما تكون لهم مثلاً يُحتذى في التمسك بأهداب الدين، وإتباع أوامر الله واجتناب نواهيه.

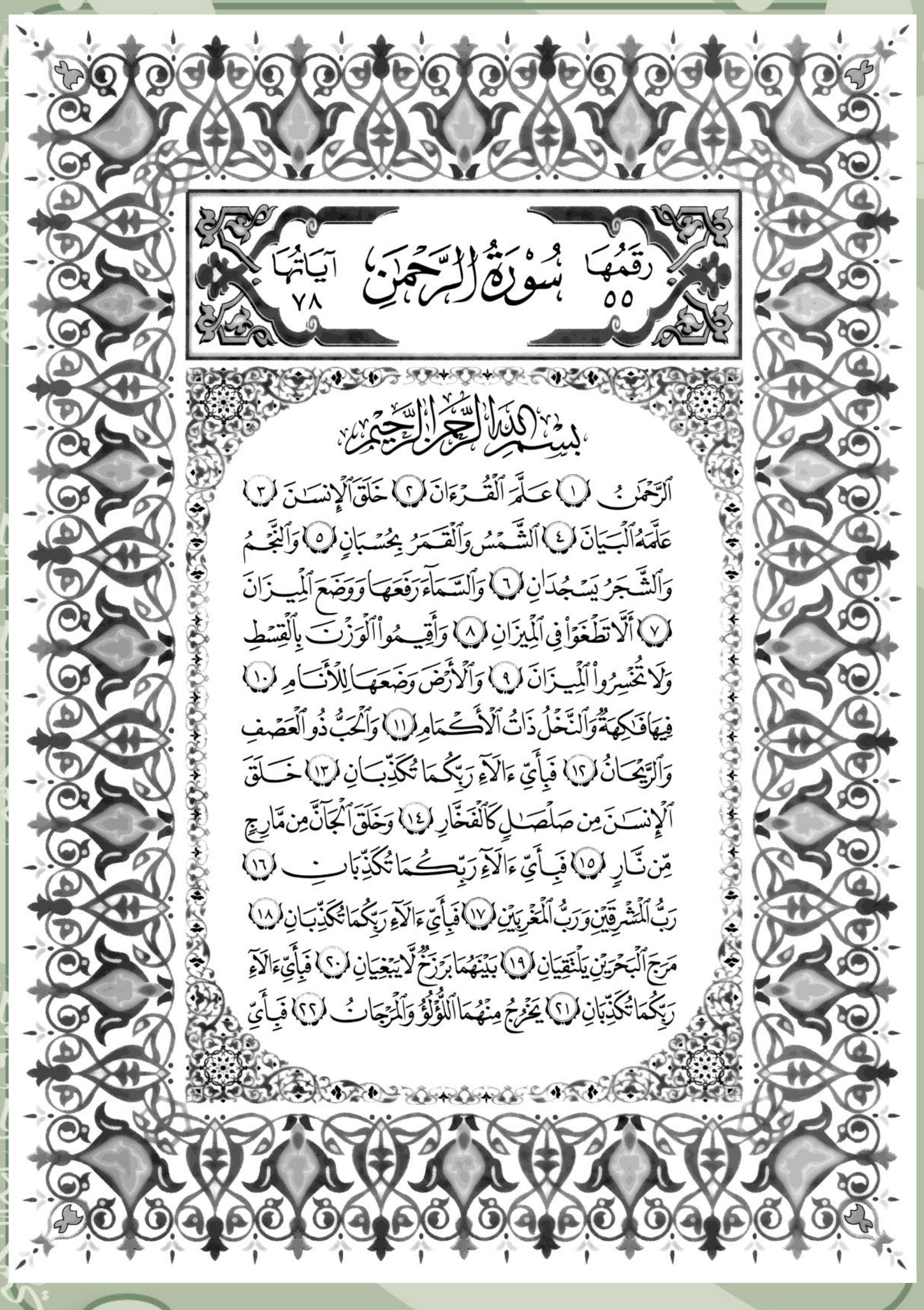
**والله أسأل أن يوفقك ويهديك ويهدينا لما فيه الخير لنا وللمسلمين إن شاء الله.**

# الفصل الثاني

# سورة الرحمن

- عروس القرآن ( الرحمن )
- تعريف بسورة الرحمن
- ملاحظات على مواقع ذكر كلمة الرحمن
- برنامج السياحة مع سورة الرحمن
- سياحة مع عروس القرآن

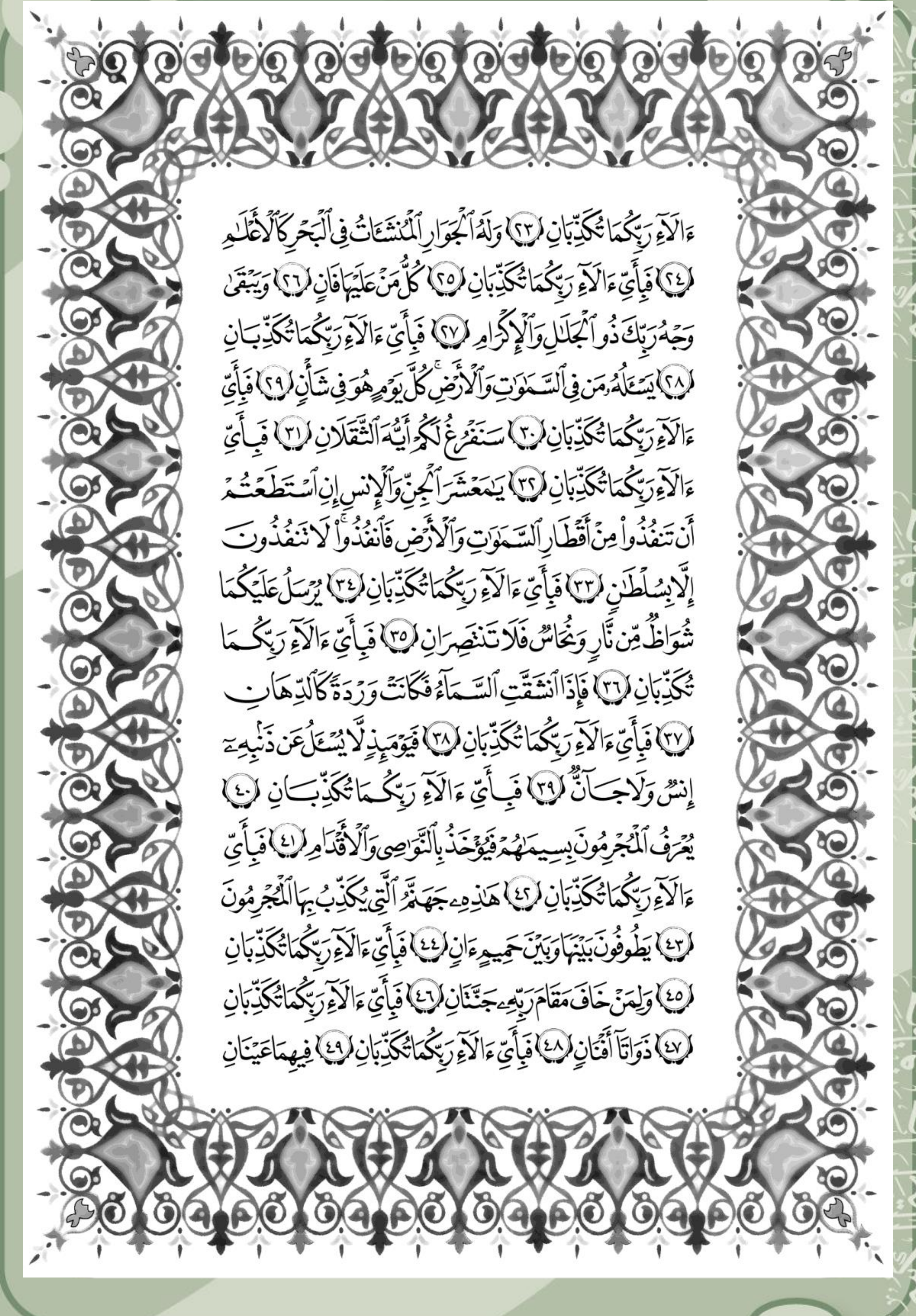

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾
خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ
وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ
﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ
فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ
ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾
فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾
وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾



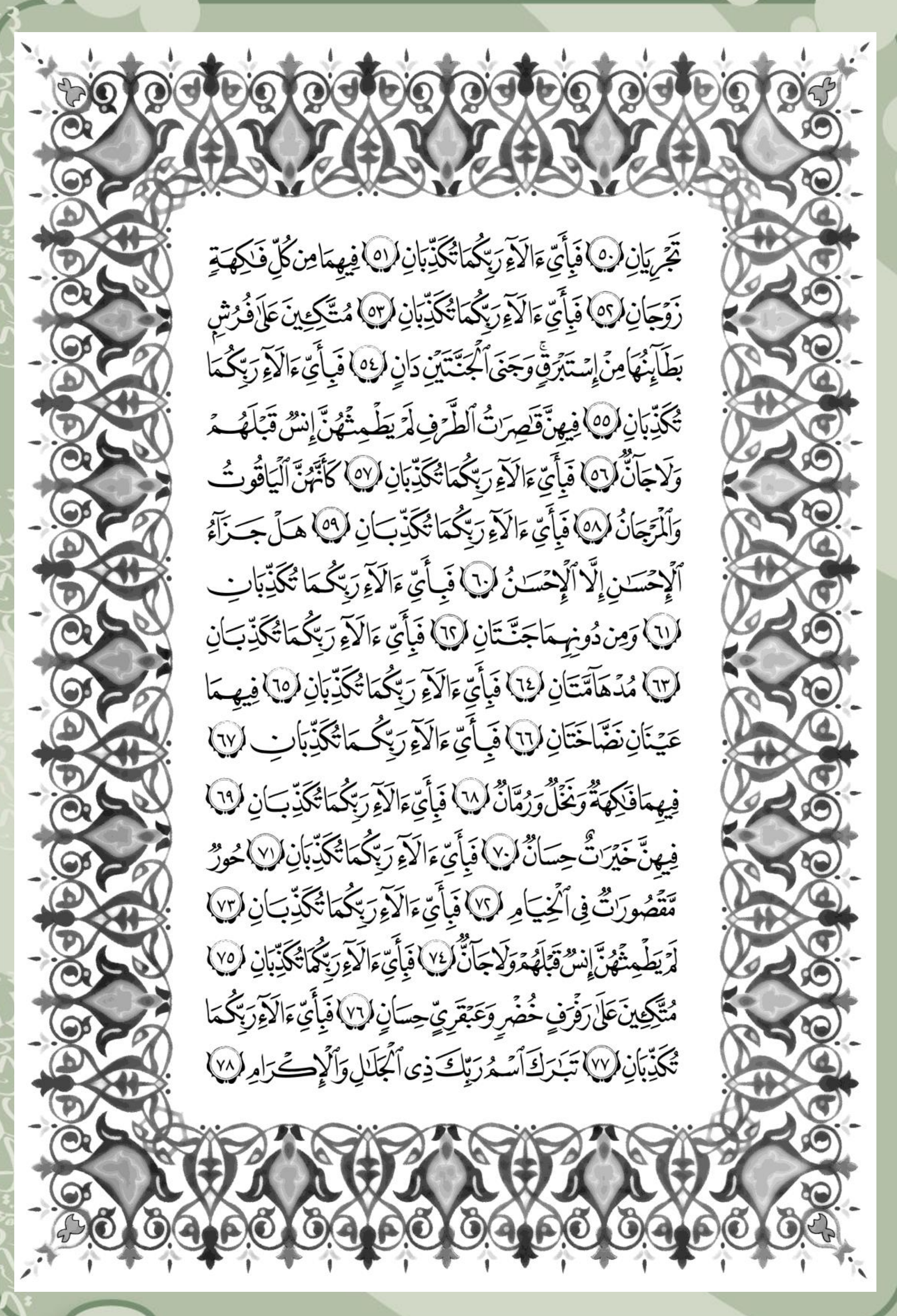
رقمها ٥٥ **سُورَةُ الرَّحۡمَٰنِ** آياتها ٧٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

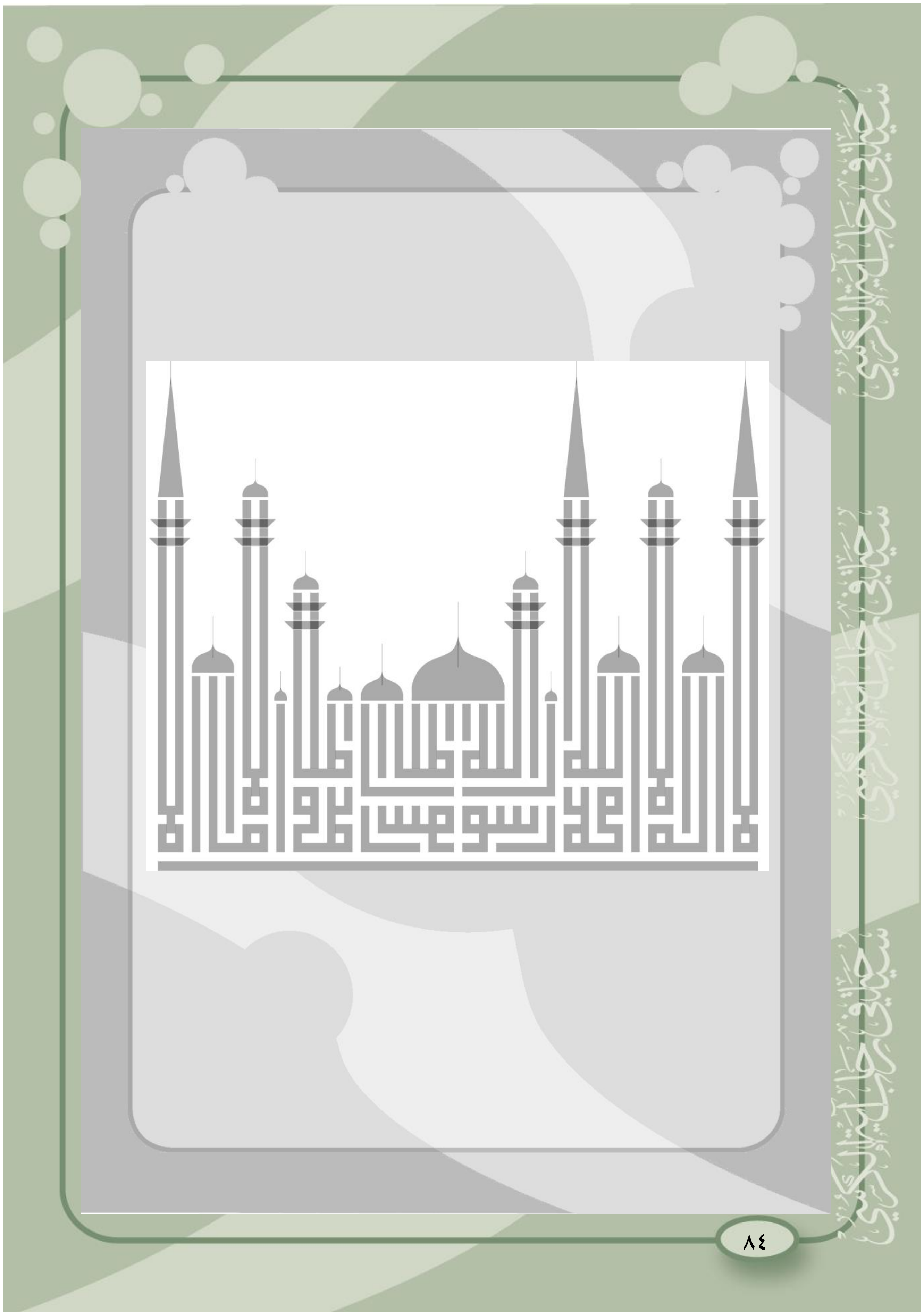
ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾
عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ
وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ
﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ
وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾
فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ
وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ
ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ
مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾
رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾
مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ



ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ
﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ
وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٨﴾ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ
أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ
إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا
شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ
﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ
إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾
يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ
﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٤٥﴾ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ



تَجۡرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ
زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ
بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ
وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ
وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلۡ جَزَآءُ
ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦٣﴾ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا
عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾
فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾
فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٞ
مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾
لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾
مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾



# سورة الرحمن

## تعريف بالسورة

اسمها: الرحمن، وهو أحد أسماء الله الحسنى، ومعناه الواسع الرحمة في خلقه، مؤمنهم وكافرهم، في معاشهم ومعادهم.

موقعها:- في الجزء السابع والعشرين، في الربع الأول من الحزب الرابع والخمسين.

## ملاحظات على مواقع ذكر كلمة الرحمن:

١- وردت كلمة الرحمن في ١٨ سورة من القرآن فقط ولم ترد في ٩٦ سورة منه.

٢- عدد مرات تكرارها هو ٥٧ مرة، وهذا يساوي نصف عدد سور القرآن.

٣- تكررت ٥ مرات في النصف الأول من القرآن و٥٢ مرة في النصف الثاني.

٤- لم ترد في سورة البقرة سوى مرة واحدة

٥- أكثر تكرار لها كان في سورة مريم وكان ١٦ مرة

٦- وردت في سورة الرحمن مرة واحدة في الآية الأولى من السورة .

**ترتيبها في المصحف بين سور القرآن:** الخامسة والخمسون.

**ترتيبها حسب النزول:** السابعة والتسعون ونزلت قبل سورة الإنسان وبعد سورة الرعد(١).

**عدد آياتها:** ستة وسبعون آية حسب البصري، سبعة وسبعون آية حسب الحجازي، ثمانية وسبعون آية حسب الكوفي والشامي، وهو الدارج في المصاحف الآن.

**عدد كلماتها:** ثلاثة مئة وخمس عشرة.

**سبب نزولها:** سيرد لاحقاً.

**فضلها على سائر السور:** عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال: "لكل شيء عروس وعروس القرآن الرحمن".

---

(١) حسب (مصحف عثماني) طبع بتصريح من مركز مراقبة البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف.

# برنامج السياحة مع سورة الرحمن

ما رأيك في سياحة في سورة اسمها (الرحمن)، وأول آية فيها ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ وآخر آية فيها ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾؟!.

دليل السياحة يقول: إنك سوف تبحر في سورة مكية هي عروس القرآن،

لكن وقبل أن تبدأ الرحلة ندعوك لأخذ صورة تذكارية مع أعظم أسماء الله الحسنى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، هذا الاسم الذي جعله سبحانه ليكون اسماً لهذه السورة. وفي الصورة تقف بالقرب من أعظم مِنَةٍ مَنَها سبحانه على الإنسان وهي هذا الكتاب العظيم، الذي يَسّرهُ سبحانه وعلّمه لنا، بما فيه من دستور أبدي عادل وشامل، وبكل ما فيه من كنوز العلم والمعرفة والأخلاق، ومما يزيد أمر هذا القرآن قُدسية وطُهراً أن الله سبحانه ذكره قبل ذكر خلق الإنسان.

وكذلك ستجد دليل التعامل مع هذا القرآن بما علمنا الله من البيان ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾، هذا البيان الذي به نتعامل مع كتاب الله ومع خلقه من البشر.

بعد ذلك تبدأ رحلتنا في التجول بين صحائف الوجود الدالة بكل وضوح على قدرة الله، وعلى عظيم فضله فنرى: الشمس والقمر يُسبِّحان الله، ويَسبَحان في السماء بنظام دقيق (زماناً ومكاناً) مما أتاح لنا تعلم الحساب، ووضع التقاويم التي من خلالها نحسب الزمن ونتعرف عليه.

ثم بعد ذلك نشاهد النجوم في صفحة الكون الرحيب، والشجر على أرض الله، محاولين تصور أحجامها وأبعادها وما يُرى منها وما لا يُرى منها، ثم نتصور (دون أن نرى) الأعمدة التي تربطها ببعضها، وتحفظ لها مواقعها في السماء ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾ هذه الأعمدة التي يعتقد البعض أنها طاقة الجاذبية التي تربط بين الأجرام السماوية.

بعد ذلك نُطلق أبصارنا في سماء لا يصل البصر ولا الخيال إلى حدودها أو أرجائها، والتي رغم ذلك نجدها محكومة بميزان الخلق الدقيق وميزان العدل الرصين.

ثم ما نلبث أن نهبط إلى الأرض، نتعرف على موقعها المميز المحسوب بدقة في صفحة هذا الكون اللانهائي الأبعاد، نتجول في حدائقها وحقولها، نقطف من ثمارها وفواكهها ونتغذّي على حبوبها ونتفيأُ ظلال أشجارها وننعم برائحة نباتاتها وأزهارها.

وفي فترة استراحة في هذه الرحلة نتفكر في المادة التي خلق الله الإنسان منها وهي الصلصال، والمادة أو الطاقة التي خلق الله الجان منها وهي المارج من النار.

بعد ذلك نواصل رحلتنا مُستعرضين صحائف الكون، تلك الصحائف الدالة على عظمة خلق الله، فنرصد مشارق الشمس ومغاربها، لنرى أن لها في كل يوم مشرقاً ومغرباً جديدين (زماناً ومكاناً)، ونلحظ من بين هذه المشارق والمغارب مشرقين ومغربين مميزين.

ثم بعد ذلك نركب البحر في رحلة بحرية نمخر بها عباب البحار والمحيطات (ولو على الخريطة أحياناً) مستحضرين عظمة الله في التقدير الدقيق لنسبة مساحة الماء إلى اليابسة على هذه الأرض وكيف أنها بمقدار.

ثم نعبر ما بين البحار بما وصله (مرجه) الله بينها من مضائق وممرات مائية فنلحظ دقة صنع الله في هذه البرازخ بين البحار التي تحفظ لكل بحر صفاته وخصائصه.

وسوف نشاهد في هذه الرحلة تلك الجبال العائمة (على صفحة الماء) من الحديد والخشب على شكل سفن ومنشآت وكأنها الأعلام، وخلال رحلتنا هذه سوف

نستمتع بصيد العديد من أنواع السمك اللذيذ ونستخرج الكثير من الحلي مثل اللؤلؤ والمرجان، وربما نصادف العنبر ذلك العطر الزكي الذي يؤخذ من بعض أنواع الحيتان.

وفي خلال فسحة (استراحة)، ومن خلال جولة حرةٍ من التفكر في هذه السياحة نُطلق لخيالنا العنان في التفكر في صفحات هذا الكون المنظور وفي مصير هذه المخلوقات، وهل هي أبدية الوجود أم أن لها عمراً افتراضيا (Expire date) سوف تفنى بعده وتزول؟.

بكل الوضوح سوف يجيبك القرآن الكريم حين يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

وفي هذه الحالة وعلى الفور سيفرض السؤال التالي نفسه (على خيالك) ويقول: وهل الذي خلق كل هذا الكون سوف يفنى هو أيضاً وسيؤول مصيره إلى زوال؟.

ربما ستجد نفسك عاجزاً عن الإجابة، لكن وكعادته سوف يُسعفك القرآن بالإجابة حين يقول ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

بعد ذلك سوف يتبادر إلى ذهنك تساؤل آخر:

ما هو مصير هذه الخلائق بعد الفناء؟ وأين ستذهب؟ وهل ستصبح هباءً منثوراً؟.

ولن تجد غير القرآن الكريم يوافيك بالجواب الصادق الشافي حين يقول لك: إن الجميع سوف يُعرضون إلى الحساب وإلى الجزاء، وإن أحداً لن يفلت من هذا المصير، عندها سوف توحي لك الآيات بشريط سينمائي تعرض لك خلاله بعض أهوال ومشاهد ذلك اليوم العصيب (يوم القيامة يوم الحساب) فترى من المشاهد ما تشيب له الولدان، سترى في هذا الشريط أن للمجرمين علامات تميزهم ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾، وسوف ترى كذلك كيف يسحبون من نواصيهم وكيف تطوف بهم زبانية جهنم بينها وبين حميم آن...

عندها ربما تنسى أنك في رحلة وفي سياحة، وستقول لنفسك. لو أن في رأسي خلية واحدة أو ذرة واحدة من العقل فلن أقبل أن يكون هذا مصيري مهما حُفت النار بالشهوات ومهما حُفت الجنة بالمكاره.

بعدها سينتقل بك العرض في الآيات إلى مشاهد أخرى، مشاهد الجنة ودرجاتها، مشاهد ما بها من نعيم، وبما فيها من عيون وأشجار وارفة الظلال وفواكه لم تسمع بها ولم ترها، ولم تخطر لك على بال، ثم تشاهد الحور العين بجمالهن وحسنهن وطهرهن الذي لا يخطر على قلب بشر في الحياة الدنيا، وسترى الفُرُش والرفارف، وستجد أنه كما للنار دركات أن للجنة درجات (تتناسب مع ما قدمه المؤمن من حسنات) عندها سوف تستيقظ من حلمك داعياً الله (من القلب) أن يُزحزحك عن النار ويُدخلك الجنة مع الأبرار ويجعلها سكنك في الآخرة (إن شاء الله).

في هذه اللحظة ستجد مشرف الرحلة يقدم لك بطاقة الوداع، بطاقة تدفعك إلى شكر المنعم الكبير الذي مَنَّ علينا بكل هذه النعم وهذه الآلاء وستجد نفسك (بلا شعور) تقول:

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾

وستجد على أحد طرفي البطاقة (من أسفل) قد كُتب إن شاء الله سنلقاك في سياحة أخرى مع سورة أو آية أخرى من كتاب الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [١]

**قالوا في هذه الآية :**

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ كلمة تجمع فواتح ثلاث سور من القرآن، " الر " و " حم " و"ن" فيكون مجموعها مضمومة إلى بعضها البعض مرتبة على التوالي: الرحمن.

وترد كلمة الرحمن في البسملة(*) أينما كانت في كل سور القرآن الكريم سوى "براءة" .

وقالوا ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فيها ثلاثة أوجه من الإعراب هي:

أ- هي خبر لمبتدأ مضمر تقديره الله أي "الله الرحمن" .

ب- هي مبتدأ وخبره مضمر تقديره ربنا، أو موجود أي "الرحمن ربنا " .

هذان الوجهان على اعتبار أن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مع هذا المضمر آية واحدة، وأصحاب هذا الرأي لا يتصورون أن تكون ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ لوحدها آية إلا بانضمام خبر أو مخبر عنه إلى هذه الآية حتى تكون الآية جملة مفيدة.

---

(*) أخبر الصولى قال: سألت أبا خليفة عن كتابة بسم الله الرحمن الرحيم فقال: سئل ابن عائشة عن ذلك فقال: حدثني أبي أن قريشاً كتبت في جاهليتها: باسمك اللهم، فكان النبي عليه السلام يكتب ذلك، ثم نزلت الآية بسم الله مجريها ومرسيها فأمر أن يكتب في صدور الكتب بسم الله، ثم نزلت: إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم فجعل ذلك في صدور الكتب، ثم كتبت في أول كل سورة من القرآن الكريم سوى "براءة".

ج- ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ وحدها لا تكون آية، لكنها مع ما بعدها من كلام تكون آية، عبارة عن مبتدأ خبره "علم القرآن".

د- وقد تكون مع تقدير ضمير الشأن قبلها "هو" آية وجملة مفيدة.

أي: هو الرحمن وعندها تكون خبراً لضمير الشأن (هو).

وفي الترمذي: أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه فقرأ عليهم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ من أولها إلى أخرها، فسكتوا، فقال لهم ﷺ:

لقد قرأتها على الجن في ليلة الجن فكانوا أحسن مردودا منكم، كنت كلما أتيت على قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد.

وقال عروة بن الزبير: إن أول من جهر بالقرآن في مكة بعد النبي ﷺ هو ابن مسعود، وذلك أن الصحابة قالوا: "ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر به قط، فمن رجل يُسْمِعهُموه ؟

فقال ابن مسعود:أنا.

فقالوا: إنا نخشى عليك، وإنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه، فأبى ثم قام عند المقام فقال:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، ثم تمادى رافعاً بها صوته وقريش في أنديتها.

فتأملوا وقالوا: ما يقول ابن أم عبد ؟

قالوا: هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه، ثم ضربوه حتى أثّروا في وجهه.

وقيل أنها أُنزلت جوابا لأهل مكة حين سمعوا ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان:٦٠]

﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟

وقالوا: إنما يعلمه بشر هو (رحمن اليمامه)، يعنون بذلك مسيلمة الكذاب، فأنزل الله سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

ولعل هذه القصة هي من أسباب نزول هذه السورة الكريمة.

هذه القصص الثلاث توحي وتؤكد أن هذه السورة قد نزلت بمكة وبالتالي فهي سورة مكية.

وفي رواية أخرى أن قيس ابن عاصم المنقري قال للنبي ﷺ:

اتل عليَّ مما أنزل عليك، فقرأ عليه سورة الرحمن، فقال: أعدها، فأعادها الرسول ثلاثاً، فقال قيس: والله، إن له لطلاوة، وإن عليه لحلاوة، وإن أسفله لمغدق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر، وأنا اشهد أن لا اله إلا الله وانك لرسول الله.

وروي عن سيدنا علي كرم الله وجهه أن الرسول ﷺ قال: لكل شيء عروس **وعروس القرآن** هي **سورة الرحمن**.

ولمزيد في فهم هذه السورة نتعرف أولا على بعض معاني كلمة الرحمن:

**فالرحمن** هو أحد أسماء الله الحسنى، بل هو الاسم الأول بعد اسم الله، في البسملة وجاء على صيغة المبالغة (فعلان) ويعني كثير الرحمة، بل يستغرق معاني الرحمة كافة، وهذا الاسم مقصور على الله عز وجل ولا يجوز أن يُطلق على أحد غيره وهو واسع الرحمة في خلقه، مؤمنهم وكافرهم في معاشهم وفي معادهم، وهو الذي أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة كافة.

عدد سور القرآن الكريم هي مئة وأربعة عشرة، سورة سُمي بعضها بأسماء أنبياء، وأخرى بمواقيت زمنية، وأجرام سماوية، وظواهر طبيعية، ومنها بأسماء حيوانات أو أسماء يوم القيامة وغيرها من الأسماء.

ومن بين سور القرآن الكريم ثمة سورتان سُميتا بصفات الله سبحانه وتعالى، هما سورة فاطر وسورة غافر، ولم تُسمَّ سوى سورة واحدة بأحد أسماء الله الحسنى و هذه السورة هي سورة الرحمن.

وسورة تحمل هذا الاسم العظيم لا بد أن تكون ذات شأن عظيم، وعلو في القدر والمنزلة، وأنها بين أخواتها (سور القرآن الكريم) كالعروس بين أترابها.

فالسورة تُقيم أمام ناظريك معرضا حاشدا لشتى صور آلاء الله ونعمائه، وفيوض رحمته، فقد ابتدأت هذه السورة بكلمة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الندية، هذه الكلمة التي تستغرق كافة معاني الرحمة، ثم راحت تقلب لك صحائف هذا الكون البديع، لتتجلى لك في كل صحيفة منها آثار رحمة الله على عباده، وتنطق بعظيم قدرته وبديع صنعته ومحكم تدبيره، سواء في خلق الإنسان، أو في تعليمه القرآن، أو في تمييزه عن جميع المخلوقات بالبيان، ثم يذكر سبحانه بعضا من هذه النعم التي لا تحصى ومنها:

الشمس والقمر والنجوم، السماء المرفوعة، الأرض الموضوعة، المشرقان والمغربان، الماء النازل من السماء يبشر بالرحمة، والبحران الملتقيان بلا بغي ولا طغيان، وبين كل نعمة ونعمة يتحدى سبحانه المخاطبين بهذه السورة وهما الإنس والجن إن كانا يملكان أن يُنكرا شيئا من هذه النعم أو يكذبان بأي منها!!

وبعد تقليب سريع لهذه الصحائف، تعرض لنا السورة مشهدا لفناء هذه الصحائف جميعا، مشهد الفناء المطلق يوم القيامة بأهواله المزلزلة، يوم الحساب و الجزاء، ومشهد النعيم المقيم للمتقين، والعذاب المهين للمجرمين، ثم تُختتم السورة بتمجيد الله العظيم وتحميده والثناء عليه، لان البشر مهما أوتوا من قوة البيان لا يحسنون الثناء عليه كما أثنى هو على نفسه.

# ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [٢]

يذكر سبحانه في هذه السورة الكثير من نعمه علينا، وقد بدا سبحانه بذكر أجلّ هذه النعم قدرا، وأعلاها مرتبةً، وأعظمها شأنا، وأرفعها مكانة، وأكثرها ذكرا.

بدأ سبحانه بذكر تعليمه القرآن لرسوله وللناس، هذه النعمة التي هي هُدىً وشفاء، ورحمة وعصمة، وأمان ونور، للناس في دينهم وفي دنياهم، وسعادة لهم في حياتهم وفي آخرتهم.

هذه النعمة التي هي الترجمة الحقيقية لنواميس هذا الوجود، والتي هي الصلة والمنهج بين المخلوقات وبين هذه النواميس، بها يقيم سبحانه عقيدتهم، ويُنظم أحوالهم على الأساس الثابت الذي يقوم عليه الوجود.

ويعتبر القرآن أعظم وحي من الله إلى أنبيائه، وهو سنام الكُتب السماوية المنزلة على أفضل البرية، وأفضل الكتب السماوية أثراً في حياة الأمم.

وفسر البعض معنى ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أنه سَهَّله ويسّر الذكر به بل ويسر قراءته وتعليمه ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ [القمر:٣٢].

ومنهم من يعتقد أن معنى ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ هو أن الله سبحانه قد جعله علامةً وآيةً لمن اعتبر، ومعجزةً للنبوة وعلى أنه من عند الله.

وقيل أن تخصيص ذكر تعليم القرآن هنا جاء للتنبيه إلى أن تعليم القرآن هو من آثار رحمة الله الواسعة على عباده.

وقد اختلف بعض العلماء فيمن **عُلّم القرآن** هل هو الرسول ﷺ فقط؟ أم الناس والملائكة وجبريل؟ ومنهم من يعتقد أن الله علّم القرآن لمن يشاء أن يتعلمه.

وقال مقاتل: لما نزل قوله تعالى ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ قال كفار مكة: وما الرحمن؟ فأنكروه وقالوا لا نعرف الرحمن، فأجابهم الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي أن الرحمن الذي انكرتموه هو الذي علم القرآن.

وأود هنا أن أضيف بعضا لما قاله علماؤنا الأجلاء: فكما هو واضح فإن اسم هذه السورة هو أفضل اسم من أسماء سور القرآن الـ (**المئة وأربع عشرة**)، سورةٌ تحمل أحد أسماء الله الحسنى، بل هو أعظم هذه الأسماء ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

وسورة بهذا الاسم لابد أنها تحتوي على ذكر أهم نعم الله على عباده، وهذا ما حدث فعلاً ففي هذه السورة سردٌ للكثير من نعم الله علينا، وقد قدم سبحانه نعمة تعليم القرآن على كل هذه النعم لأكثر من سبب ذكرها علماؤنا وقد سردت لك معظمها.

وأحب أن أضيف هنا أن الكل يعلم أن الشعوب المتحضرة والدول الراقية قبل أن تقوم بإنشاء أي مشروع فإنها أولاً وقبل كل شيء تضع وتُقيم البنية التحتية التي تخدم هذا المشروع، تقيم وترسي الأساس المتين الذي سوف يتم عليه الإنشاء والبناء.

فمثلاً إن أرادوا بناء قرية أو مُجمّع سكني، فإنهم أولا يخططون الشوارع والطرقات ومصارف المياه ومَوارد الماء والكهرباء وكافة الخدمات الأخرى، ويرسون النظام الذي سيقوم عليه المشروع، وأسس توزيع المساكن والتكلفة، ثم بعد ذلك يباشرون التنفيذ.

كذلك إن أرادت فئة من الناس إقامة حزب أو جمعية أو نقابة فإنهم أولاً يرسون دعائم البنية التحتية أي القانون الذي يُنظم العلاقة بين الأفراد، والدستور الذي يحفظ حقوق كل منهم، ثم يدعون لتكوين هذا الحزب أو هذه الجمعية.

وكذلك عند إنشاء شركة تجارية كبرى فإنهم يوجدون عقد التأسيس واللوائح التي تحكم عمل الشركة والنظم المالية الكفيلة بدعم الشركة.

هذا النظام القويم، وهذا الأسلوب الناجح الدقيق، لا أقول إنهم تعلموه من القرآن (ولو أنه ربما كان ذلك، ولا مانع أن يكون ذلك قد حدث)، لكنني أجزم أن القرآن الكريم وناموس الله سبحانه وتعالى قد تعامل بهذا الأسلوب منذ خلق الله الأرض ومن عليها من بشر وكائنات، بل لعل هذا الأسلوب يسري على الكون بكل ما فيه.

فقد خلق الله سبحانه الأرض، وجعل القرآن الكريم في اللوح المحفوظ ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج:٢٢-٢١] .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٨].

ثم خلق سبحانه الإنسان وعلمه القرآن، ليجد دستورا جاهزا ينظم حياته على هذه الأرض، بل ويرسم له خطواته إلى الحياة الآخرة ومآله فيها .

## ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [٣]

قالوا في هذه الآية : إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه السلام ومنه خلق حواء، ومنهما خلق الناس جميعا.

والمقصود بكلمة الإنسان هنا هو الجنس البشري، والإنسانية هي ميزة كبرى وصفةٌ رفيعةٌ خصنا الله سبحانه بها، ومَنَّ علينا وفضلنا بها على سائر مخلوقاته.

كما ويمن سبحانه علينا بأنه خلقنا من العدم، بعد أن لم نكن شيئا مذكورا ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩].

وخَلْقُنا هو أصل النعم علينا، ولولا هذا الخلق لما وجدنا. وزيادة في فضل الله علينا أنه خلقنا في أبدع صورة، وخلق لنا السمع والأبصار والأفئدة والنطق وعلمنا البيان، كما وأنه أنشأنا على ما نحن عليه من القوة الظاهرة والباطنة ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠] لنواجه أمور وأحوال حياتنا.

وكما ترى فإن الله سبحانه يواصل تعداد آلائه وأفضاله علينا، فبعد أن ذكر لنا أكبر النعم وهي خلق القرآن وحفظه، عاد لِيذكّرنا بنعمة أخرى عظيمة هي أساس وجودنا على هذه الأرض، عاد يذكرنا أنه خلقنا وصورنا وبعث فينا الروح والحياة.

ولعل من أكبر المصائب التي تقع على الإنسان هي مصيبة الموت ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [المائدة:١٠٦].

وكما هو واضح فإن الحياة والخلق هما عكس الموت، فالخلق بذلك هو نعمة يصعُب تصور فضلها وعظمتها على الإنسان.

وكمحاولة لأقرِّب لك هذه النعمة أضرب لك مثلا ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم:٢٧] فأقول لك: تصور أن عزيزا عليك قد مات ثم وبعد فترة من الزمن وَهَبَه الله الحياة، فَخَلَقَه من جديد وبعثه ليعيش بيننا بصحة وعافية، فما حجم وما مقدار هذه النعمة؟ ورغم كبرها فهي ضئيلة أمام خلقنا لأول مرة.

ومن رحمته سبحانه أن خلقنا من تراب هذه الأرض ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه:٥٥] وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠] .

كما وخلقنا من أب واحد وأم واحده هما آدم وحواء ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩].

خَلَقَ أُمنا حواء من ضلع أعوج من صدر أبينا آدم، الضلع الأقرب إلى قلبه، فهي بذلك قطعة منه لذلك فهو يحنو عليها حنو المرضعات على الفطيم كما قال الشاعر:

نزلنا دوحةً فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم

ويحافظ عليها، محافظته على نفسه فهي شِقٌ منه، ومن عظيم نعمه سبحانه أن جعل خلقنا وتكاثرنا عبر ميثاق غليظ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:٢١]، وهو الزواج الشرعي بكل أحكامه التي تحفظ للإنسان إنسانيته، ولكل طرف حقوقه. وهو بذلك رباط عظيم مُقدس، وعقد قديم مُكّرّم.

ومع كل ما يتبع هذا الزواج من فرحة ومتعه، فقد جعل سبحانه عملية النسل تتم عبر عملية ممتعة لا يقاومها كائن حي، فالإنسان والحيوان وحتى النبات يستمتع أثناء عملية التلقيح والجماع التي هي بداية الطريق إلى عملية الخلق، وهذا فضل من الله كبير.

كما وأن من أفضاله أن خلقنا في أحسن فترة وأحسن حقبه من الزمن وفي أحسن تقويم من عمر الأرض ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴾[السجدة:٧]، ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾[التين:٤].

كما وخلقنا سبحانه في أحسن صورة ﴿ يُصَوِّرُكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾ [آل عمران:٦] .

﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر:٦٤].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:٧].

ولا تنس أن الله سبحانه قد وهبنا السمع والأبصار والأفئدة وميزنا بالعقل والتخيل والتفكير والإبتكار والضحك والبكاء ..

وهل تعتقد أنني لو قضيت العمر أذكر أفضال الله وآلاءه علينا سوف انتهي؟ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤].

لذلك أكتفي بهذا القدر وأواصل الحديث عن أية أخرى ...

# ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [٤]

قالوا في هذه الآية أن الله سبحانه امتن على الإنسان بنعمة ثالثة بعد تعليمه القرآن وبعد أن خلقه بأن علمه البيان(*)، وذلك بأن ألهمه النُطق المبين، ويسر عليه الكلام، وسهَّل عليه خروج الحروف من مخارجها سواء أكانت هذه المخارج هي الحلق أو اللسان أو الشفتين أو اللهاة.

وبهذا البيان تمكن الإنسان أن يبين مقاصده ورغباته ويُعرب عما في ضميره ويوضح ما في نفسه.

وبالبيان يتم التفاهم عن طريق التخاطب وتبادل الحديث والآراء وبالبيان يتم حوار الحضارات وتبليغ الرسالات السماوية وبهذا تميز الإنسان عن سائر المخلوقات.

كما أنه بالبيان قد تمكن الإنسان من تعلم القرآن وفهمه، كما وتمكن من تعليمه للغير على الوجه الصحيح، وبالبيان استعد الإنسان لتلقي مختلف العلوم ولتولي الخلافة على الأرض.

كما قالوا في ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾:

---

(*) البيان لغة: هو الظهور والفصاحة، نقول: أفصح الصبح إذا ظهر وبان، والكلام البيّن ما كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيّد السَّبك، كل كلمة فيه جارية على القياس الصرفي، بيّنة في معناها، مفهومة، عذبة، سلسلة.

وإنما يكون الكلام بياناً إذا كانت كلماته مألوفة الاستعمال بين النابهين من الأدباء، لأنها لم تتداولها ألسنتهم، ولم تجر بها أقلامهم، إلاّ لمكانها من الحسن باستكمالها نعوت الجودة وصفات الجمال.

أنه علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به، وان لكل أمة لغة، وقالوا أن آدم كان يتكلم ٧٠٠ لغة أفضلها اللغة العربية.

وفي هذا المقام أقول: الله أعلم بمدى دقة هذا القول!

وقالوا إن البيان هو الخير والشر، وأنه الحلال والحرام، وأنه الهدى والضلال، وأنه ما كان وما سيكون، لأنه بيَّن لنا فيه عن الأولين والآخرين وعن يوم الدين، وأنه عِلْمُ الدنيا والآخرة، وأنه الاسم الأعظم الذي عُلّم به كل شيء.

ومنهم من قال: أن البيان هو الكتابة والخط بـالقلم ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤-٥].

وقـالوا إن البيـان هـو القـرآن ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨].

وتعقيبا على ما قاله علماؤنا الأجلاء نضيف:

هذه الآراء وإن كانت مختلفة وغير مترابطة، إلا أنها غير متضادة وقد يكون في معظمها شيء من الصحة.

فالبعض يقول إن البيان هو (**تعليم الحلال والحرام**) وما أحله الله للناس وما حرمه عليهم، سواء أكان بينهم وبين خالقهم، أو بينهم وبين من حولهم، ممن يتعاملون معهم أو حتى بينهم وبين أنفسهم.

وقد قال الرسولﷺ (**الحلالَ بيِّن والحرام بَيِّن**) وكلمة بَيِّن هنا هي من البيان والوضوح.

ويتبع ذلك أن يتعلم الإنسان الهُدى ويعرف طريق الهداية وطريق طاعة الله فيأتيها، كما ويتعلم الضلال ويعرف طريق الغواية والمعصية المؤدية إلى غضب الله فيتجنبها.

ويقول آخرون: إن البيان هو (**الخير والشر**)، الخير بكل ما يتبعة من فضل ونعمة وخدمة للآخرين، وإسداء النُصح والمعروف لهم ومشاركتهم مناسباتهم .

أما الشر فهو كل ما يمجه الذوق السليم وتمقته النفس البشرية السّوية، وتأباه كل نفسٍ عفيفةٍ، فهو بذلك مرفوض ومكروه في كل الأديان والعقائد حتى الوضعية منها.

كما ويفسر آخرون البيان على أنه أسماء الأشياء، وكيف للإنسان أن يعيش في بيئته ويعرف ما ينفعه منها وما يضره، إن لم يحدد أسماء مناسبة لكل ما حوله من الأشياء؟

وقد قال سبحانه بعد خلق آدم ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا** ﴾ [البقرة:٣١].

وهناك بعض الاختلاف في معنى ﴿**ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا**﴾ :

فمن قائل: إنها أسماء النجوم، وآخر يقول: إنها أسماء الملائكة، والبعض يقول: إنها أسماء الأشياء التي حوله، وأسماء الناس الذين سوف يقابلهم ويتعامل معهم (وأنا أميل إلى هذا المعنى).

ومن روائع البيان أن أسماء الأشياء، بل حتى مجموعة الحروف التي تدل على اسم الشيء لها شديد علاقة بهذا الشيء وبمعناه بل وبمدى فائدته وبمقدار صلابته ونعومته ولذلك قيل (لكل من اسمه نصيب).

فمثلا حرف الـ (غ) له معنى يدل على الغروب، فهو يأتي في الكلمات التي تعني ذلك مثل غرب – غطى – غام – غاب – غرق – غفل – غلط – غمر – غطس.

ومثال آخر حرف ال (ر) فيدل على الحركة مثل: حرك – ركض– رمى – رفس –

رسب – ركل، ومعظم حروف اللغة العربية لها هذه الصفة.

ويقول البيضاوي: إن البيان هو تعداد نعم الله وأفضاله على عبيده وهذا مما يستوجب الشكر والعرفان.

ويقول آخرون: إن البيان هو إخبار سيدنا محمد ﷺ بأمور وأحوال الأولين والآخرين. وبما سيحدث وبما سيكون عليه يوم الدين، وبإخباره (في القرآن الكريم) بقصص الأمم السابقة، وبما لحق بهم بناءاً على تعاملهم مع دستور الله، كما وبيّن أحوال أقوام سوف يأتون، وما سيكونون عليه من الطاعة ومن العصيان.

وفي العديد من الآيات يعتبر البيان تصويرا للحال الذي سيكون عليه يوم القيامة.

وبعض العلماء يفسرون البيان على أنه النطق واللغة والكلام، وأن البيان هو البلاغة فقد قال الرسول ﷺ: (وإن من البيان لسحرا) وقد قيل: إن البلاغة هي أن تُحدّث الناس على قدر عقولهم، وعلى قدر علومهم، وظروفهم، بل على قدر أفهامهم، وأنا أميل إلى هذا الرأي مع عدم معارضتي للآراء الأخرى.

وأقول: إنها نعمة وأية نعمة بل هي إعجاز إلهي، وفضل لا يعدله فضل أن مَنَّ الله على بني البشر خلافا لسائر المخلوقات باللغة وبالكلام كوسيلة للتخاطب والتفاهم والاتصال، وبواسطتها تنتقل الأفكار والمعتقدات والأحلام والآمال، وبها تُعبر عما يجيش في نفسك أو ما تُكنه في صدرك من عواطف، وبها كذلك توصّل للآخرين رغباتك واحتياجاتك من شتى أمور الحياة سواءً أكانت نفسية أو صحية أو اجتماعية.

ورغم أن هناك تواصلاً وسبل تفاهم بين جميع الأحياء وبعضها من نبات وحيوان، إلا أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتم تواصله مع غيره عن طريق اللغة والكلام والبيان.

فباللغة نقرأ القرآن ونرتله ونجوده، وباللغة ننطق حروفه ونخرجها من مخارجها الصحيحة.

وباللغة وبالبيان يتم التفاهم ويتم تكوين الكلمات وإعطاء الأشياء مسمياتها، وبها يتم التعبير عن الأشياء المادية والأحاسيس النفسية والمواقف الاجتماعية، ولكي يتم ذلك فلا بد من وجود إعجاز رهيب يُمكِّن الدماغ من الربط بين مركز التفكير والتخيل ومركز النطق، ثم يتم بعد ذلك إرسال الإشارات العصبية حاملة معها الأوامر إلى مركز إصدار الصوت والكلام، هذا المركز الذي يُصدر أوامره إلى الرئتين لطرد الهواء وتوجيهه نحو الحبال الصوتية العجيبة، التي تهتز بقدر معلوم من الشدة ومن الحدة ومن الارتفاع محدثةً الصوت الذي يتشكل في الحنجرة والبلعوم والفم إلى حروف وكلمات، وبهذه العملية المعقدة تتم قراءة القرآن وتتم عملية التخاطب والتحدث مع الآخرين.

# ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾[٥]

معنى هذه الآية الكريمة كما أجمع عليه المفسرون هو أن الشمس والقمر يجريان بحساب معلوم ومُقدّر ودقيق، يجريان في أبراجهما ومنازلهما لا يتعديانها ولا يحيدان عنها، يجريان متعاقبين، لا يدرك أحدهما الأخر. ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾[يس:٤٠]، كما وقال سبحانه: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس:٤٠].

كما وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [لقمان:٢٩].

وهناك أكثر من آية تبين أن الشمس والقمر يجريان إلى أجلٍ مسمى وإلى موعدٍ محدد محسوب وبخط مرسوم، ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾[الأنعام:٩٦]﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗا﴾ [الأنعام:٩٦].

وهذا الجريان يتم لصالح العباد، فمِن تعاقب الليل والنهار نتعلم حساب المواعيد والفصول والمعاملات، ونُعِد التقاويم السنوية ونحسب الشهور والسنين والأوقات والآجال والأعمار، وبهذا الحساب نعرف مواسم الزراعة والحصاد وتنظيم مصالح العباد ومعاملاتهم وتنسيق أمورهم الحياتية.

ففي هذا الجريان تتجلى دقة التقدير والتنسيق في حركة الأجرام السماوية في هذا الكون، وتتجلى عظمة الله وكرمه وجزيل نعمه مما يستوجب الحمد والثناء والاعتراف بالربوبية الحقة.

يعلم الجميع أن الشمس ليست أكبر الأجرام السماوية حجما ولا كتلة في هذا الكون اللامتناهي الأبعاد، بل أنه توجد ترليونات النجوم منها ما هو أكبر من الشمس ومنها ما هو أصغر منها.

لكن الشمس هي النجم الأهم بالنسبة لنا وبالنسبة للحياة على الأرض، فنحن نعيش في فضل ونعمة ضوئها، ودفء حرارتها، ونتأثر بجاذبيتها، فحجم الشمس ودرجة حرارتها وبعدها، بل وخط سيرها في فلكها وخط سير الأرض حولها كل ذلك محسوب وبدقة، خاصة إذا تذكرنا وتفهمنا آثارها على حياة الكائنات الحية على هذه الأرض، كذلك القمر فحجمه وكتلته وبُعده وجاذبيته كلها موضوعة ومقدرة بحساب دقيق لتلائم تسخير هذا القمر للحياة على الأرض.

والشمس تبعد عنا حوالي ١٥٠ مليون كم، ولو كانت أقرب من ذلك لاحترقت الأرض وما عليها، ولانصهر الكثير من المواد على سطحها، ولتبخر ماؤها وتصاعد في الفضاء.

كذلك لو كانت الشمس على بعد أكبر مما هي عليه لتجمد الماء على سطح الأرض ولأصاب الفناء والموت جميع الكائنات.

كما وأن تغير جاذبية الشمس أو كتلتها يؤثران مباشرة على الحياة على الأرض.

وكذلك القمر فلو كانت كتلته أكبر مما هي عليه (٠,٠١٢٣٤ من كتلة الأرض) أو كان بعده عن الأرض أقل مما هو عليه (٤٠٠ ألف كم) لغطى الماء كامل سطح الأرض مرتين يوميا بظاهرة المد، ولغطى سطحها طوفان تتعذر معه الحياة، وكما تعلم فإن ظاهرتي المد والجزر على الأرض تتأثران مباشرة بكتلة وببعد كلٍ من الشمس والقمر عن الأرض، ولذلك فلكلٍ منهما خط سير محسوب لا يختل ولو قيد أُنملة، خط سيرٍ يتحركان فيه في هذا الكون الرحب الفسيح، (وتأثير جاذبية القمر على الأرض أكبر من تأثير جاذبية الشمس عليها رغم أن كتله القمر أصغر من كتلة الشمس بكثير، والسبب في ذلك هو قربه الشديد من الأرض بالنسبة لبعد الشمس الكبير عنها.

وقد ذُكرت كلمة ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ في القرآن مرة واحدة فقط، وهي جمع حساب، ومعناها حَسْبَ المعجم الوسيط هو العد أو التدبير الدقيق.

وفي أكثر من أية يذكر سبحانه أنه سخر لنا الشمس والقمر ومنها ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [فاطر:١٣] [الرعد:٢][الزُّمَر:٥] كما وقال سبحانه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ ...﴾ [إبراهيم:٣٣] .

ووجوه تسخيرهما للحياة على الأرض كثيرة، منها وضعهما في هذا الموقع وعلى هذه الأبعاد، التي هي الأنسب من حيث وصول حرارة الشمس وضوئها، أو مقدار النور الساحر الهادئ الواصل من القمر، او مقدار التجاذب المتبادل بينهما وبين الأرض، مما يُبقى الأرض على هذا البعد، مع استمرار دورانها حول الشمس، هذا الدوران الذي تنتج عنه الفصول الأربعة، وما يتبعها من مواسم للزراعة، ومن تقلبات للجو من حرارة وبرودة واعتدال مناخ، ولا يتم أي من ذلك إلا بمقدار وبحساب (قدرة الله سبحانه) ليتناسب مع حاجة الكائنات الحية على الأرض.

ويصلنا من الشمس الكثير من الإشعاعات، ورغم أن معظمها ضار إلا أن بعضها ضروري لاستمرار الحياة على الأرض.

كما أن الحسبان الدقيق لموقع وكتلة الشمس جعل الكواكب السيارة تدور حولها، وعلى أبعاد ومسارات محسوبة، ولكل من هذه العوامل أثره المباشر على موقع الأرض وعلى ثبوتها في هذا الموقع، وما يتبع ذلك من أثر على الحياة عليها .

ولك أن تتصور عدم دوران الشمس والقمر بهذا الحساب الدقيق، فهل سيكون هناك تقويم هجري أو ميلادي أو أي حساب للزمن؟.

ولعل دوران القمر حول الأرض ووجوده على هذا البعد له الدور الكبير في ثبات الأرض بهذا الموقع وبهذا المسار فهو (كبيضة القبان) يضبط للأرض بعدها عن الشمس كما ويضبط لها خط سيرها.

ولا أريد أن أُقحمك بأرقام عن كتلة الشمس وقطرها وبعدها ودرجة حرارتها وكذا عن القمر، فلهذه الأرقام موقع في كتاب آخر.

## ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ [٦]

لقد سلك علماؤنا في تفسير كلمة ﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾ في هذه الآية منحيين مختلفين:

فقال بعضهم إن كلمة النجم هنا تعني هو النبات الذي ينجم أي يظهر ويخرج من الأرض بلا ساق أو تكون ساقه ضعيفة فلا تستطيع حمله فوق الأرض لذلك فهو منبطح ومفترش على وجه الأرض مثل نبات الخيار والكوسا والقرع وحتى العنب وغيرها من النباتات التي تكون ساقها ضعيفة.

وقد اعتمدوا في تفسيرهم هذا (إن النجم هو نوع من النبات) على أن الله سبحانه قد قرن الشمس والقمر على أنهما علويان ثم قرن النجم والشجر على أنهما سفليان.

أما الآخرون من العلماء فقالوا: أن النجم المقصود هنا هو نجم السماء واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ ....﴾ (*)[الحج:١٨]، فكما ترى فقد ذكر سبحانه ﴿النجم﴾ بعد الشمس والقمر، وفصل بين النجم والشجر ﴿بالجبال﴾، فهذا دليل على أن النجم هو احد الأجرام السماوية وهو نجم السماء.

وكما تلاحظ فبعد أن تحدث سبحانه عن أهمية الشمس والقمر للحياة وللإنسان على الأرض، (ولعلهما أكثر أهمية من النجوم)، تحدث بعد ذلك عن تسخير النجوم والنباتات .

فالنجوم تَسَبح في هذا الكون، وعلى أبعاد يصعب تخيلها، وفي مواقع لا يمكن تحديدها،

---

(*) يلاحظ أن الكلمة في هذه الآية هي (النجوم) وليس النجم، كما ورد في الآية (٦ الرحمن) موضع الشرح، وعليه ربما كان هناك اختلافا في المعنى بين الآيتين فيما يتعلق بكلمة (النجم) وكلمة (النجوم).

لأنها دائمة الحركة والتنقل لذلك فقد قال سبحانه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥- ٧٦].

ومع ذكر النجوم ذكر سبحانه النقيض (النبات) من حيث البعد ومن حيث الحرية؟.

فالنبات قريب منا ينمو ويعيش بيننا، ومغروس في الأرض مقيدٌ بها، ورغم أن الحركة من صفات الكائن الحي، ورغم أن النبات كائن حي، إلا أن حركته جد محدودة ومقيدة، فلا يتحرك منه إلا الجذور بحركة محدودة باحثة عن الماء والأملاح، كما أن الأوراق تبحث عن الضوء وتتعرض له وبذلك تكون حركتها أيضا محدودة.

والنجوم بأعدادها التي لا تحصى، ومواقعها التي لا تتحدد تُرسل لنا من الإشعاعات والموجات ما نعرف وما لا نعرف.

ومن هذه الإشعاعات ما هو مفيدة، وكثير منها ما هو ضار، ولأن الله سبحانه قد خلق كل شيء بقدر، فلا شك أن لهذه الإشعاعات أثراً عظيماً علينا وعلى الحياة على الأرض.

أضف إلى ذلك أن الحُسبان ليس مقتصرا على الشمس والقمر فقط، بل انه يشمل جميع ما في هذا الكون من أجرام سماوية ومنها النجوم.

فالمسافات والأبعاد بين هذه النجوم وكذلك كتلها المختلفة، وما ينتج عنها من تجاذبات تساهم جميعها في بقاء بناء الكون على ما هو عليه وبقاء منظومة المجموعة الشمسية على هذا النظام وهذا النسق الدقيق ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧].

أما النبات بتركيبه المُعجب الدقيق، وبما يُنعمه علينا (من فضل الله) من ثمار وغذاء وأكسجين وحطب وفحم (مصادر الطاقة)، وغيرها من الفوائد فهو موجود في الأرض، أما النجوم فهي معلقة في السماء، والكل مسخر لحياة الإنسان على هذه

الأرض.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ....﴾[لقمان:٢٠] .

نعم لقد سخر الله لنا ما في السماوات من نجوم وأقمار وإشعاعات وجاذبية وسحاب وأمطار وأشياء أخرى كثيرة، كما وسخر لنا ما في الأرض من ماء ونبات ومعادن وتربه زراعية وأشياء نعرفها وأكثر منها لا نعرفها. ولعل التي نعرفها هي نعم الله الظاهرة أما التي لا نعرفها هي نعمه الباطنة.

أما كيف تسجد هذه النجوم وهذه الأشجار، فإن أحدا لا يعرف بالتأكيد وذلك لان الله سبحانه قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١]. وقال أيضا:- ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾ [الإسراء:٤٤] وقال أيضا:- ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢)﴾ ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣)﴾ [الأعلى:٢- ٣].

وبمقدار ما تتمعن في هذه الآيات فإنك ستدرك أن الله سبحانه وتعالى قد خلق كل شيء فسواه وأحسن صنعه، وبلغ به غاية الكمال، كما وقدّر له وظيفته وطريقة أدائه لها، وحدد الغاية من وجوده، فهداه إلى ما خلقه لأجلِهِ وألهمه ما يصلحه طيلة مدة بقائه .

والإنسان ليس هو المخلوق الوحيد في هذا الكون الواسع بل إن حوله وعن يمينه وعن شماله وحيثما امتد بصره مخلوقات مثله من مختلف الأنواع والأصناف والإشكال يعرفون ربهم ويتوجهون إليه بالتسبيح والتحميد كل منهم على طريقته الخاصة التي

هداه خالقه إليها .

وإن كنا نحن لا نعلمها لكن المخلوق الوحيد الذي يغفل عن تسبيح ربه هو الإنسان رغم انه الأولى من خلق الله بمعرفة ربه وتحميدة وتمجيده.

ولقد كان نبينا الكريم ﷺ إذا مشى سمع تسبيح الحصى تحت قدميه، وكذلك كان النبي الكريم داوود عليه السلام يرتل مزاميره فتؤوب الجبال معه والطير فقد قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩] وقال سبحانه كذلك: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠].

ورغم أن لكل كائن طريقته في السجود إلا أنني لا أرى مانعاً أن نحاول بقدر ما نستطيع فهم معنى ﴿يَسْجُدَانِ﴾ وكيف يكون سجود النجم وسجود الشجر.

ألا تعتقد أن امتثال النجم لأوامر ربه في تقيده بالدوران المنتظم والمحسوب تسبيحا؟؟. ولعل سجود النجم بأن يلتزم بدورانه حول نفسه في زمن محدد وبدورانه في مجرته في مسار وخط معين لا يحيد عنه حتى لا ينفرط عقد هذا الكون، وكذلك ببثه للإشعاعات المحددة من حيث الكمية والنوعية في هذا الفضاء الكوني حيث إن النجم عبارة عن فرن ذري كبير تجري داخله تفاعلات نووية تجعله مضيئا بذاته.

وكذلك انتقال النجم مع مجرته مساهماً في توسع السماء والكون ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

لعل هذه الحركات وهذا الالتزام هو بعض ما يقرأه النجم ويردده ويدعو به وهو ساجد لخالقه .

أما الشجر فكما قلنا فنحن لا نعرف طريقة سجوده، بل لعله يسجد مثلنا ولكن على طريقته، لكن أقول أن الله سبحانه قد قدر للنبات نواميس منها انه يُثّبت نفسه في التربة بالجذور، وبواسطة هذه الجذور يمتص الماء والأملاح المعدنية اللازمة له من التربة، كما أنه سبحانه قد جعل للنبات أوراقاً وبها بلاستيدات خضراء وكلوروفيل، وفي وجود الضوء تقوم هذه الأوراق بعملية الاغتذاء (البناء الضوئي) فتأخذ ثاني أكسيد الكربون من الجو وتطرد له الأكسجين.

كما أن النبات يتنفس فيأخذ الأكسجين من الهواء ويطرد ثاني أكسيد الكربون.

كما أن للنبات دورة حياة وطريقة تكاثر وإثمار لا بد له أن يلتزم بها، ليقدم بالتالي محصوله للإنسان، هذا الإنسان الذي سخَّر الله الكون وما فيه لخدمته.

لعل ذلك هو بعض من سجود النبات والشجر وتسبيحه لله والله اعلم!!!.

## ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [٧]

قال المفسرون في ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾: إنه سبحانه قد خلقها مرفوعة، محكمة البناء، رفيعة القدر والشأن، ممسوكة فوق الأرض بلا عَمَد.

ومنهم من يقول: إن رفع السماء هو رفع معنوي رُتَبي وذلك لأنها منشأ أحكامه، ومنزل أوامره، ومحل ملائكته ومقر قضائه.

أما في ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ فقد تعددت آراء العلماء فمنهم من قال: إنه سبحانه قد وضع شريعة العدل وأمر بها، لأن بها يستقيم أمر العالم، وتستقر وتنتظم أمور البشر

ومنهم من قال إنه أمر بالقسط عند الأخذ والعطاء، لينال الإنسان حقه وافياً عندما يشتري أو يبيع.

وقال آخرون: إنه وضع ميزان الحق ثابتاً، راسخاً، مستقراً ووضعه لتقدير القيم، قيم الأشخاص، والأحداث، والأشياء كي لا يختل تقويمها ولا يضطرب اتزانها..

وقالوا: إن وضع الميزان معناه أنه هدانا لصنع (آلة) الميزان أيا كان نوعه، حتى يتوصل الناس بواسطته إلى العدل المطلق والإنصاف في معاملاتهم.

كما وقال آخرون: إن الميزان هو القرآن لأن فيه بيان كل ما نحتاج إليه.

## ﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴾[٨]

أما في هذه الآية فمن المفسرين من قال إنها تعني: لا تبخسوا الميزان ولا تتجاوزوا الحق فيه، ومنهم من قال: لا تغالوا ولا تُفرِطوا في الوزن، ولا تتجاوزوا ولا تتعدوا العدل وما ينبغي فيه.

ومنهم من قال: إن طغيان الميزان هو الجور والبخس فيه، وخيانة من تزنون لهم .

وربط بعض المفسرين الميزان بالُحكم، وقال إن طغيانه هو تحريفه وإعطاء الحق لغير أهله.

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾[٩]

أما في هذه الآية فيقول المفسرون: إنها تعني زنوا بالقسط وبالعدل وأعطوا كل ذي حق حقه، ولا تطففوا أو تبخسوا في الميزان.

نستخلص من مجمل ما قاله علماؤنا أن الله سبحانه قد رفع السماء فوق الأرض بلا عمد نراها، وأنه أمر بوضع الميزان ليكون حكما عادلا بين الناس في كل معاملاتهم سواء منها المادية أو المعنوية أو الخلقية أو الاجتماعية، بل وحتى العملية مثل البيع والشراء، والأخذ والعطاء، وأمرنا أن لا نطفف بالميزان ولا نبخس الناس حقوقهم، كما أمرنا أن لا نطغي في الميزان بل يكون العدل والقسطاس هو منهجنا في التعامل، وللتأكيد على ذلك كرر سبحانه كلمة الميزان ثلاث مرات متتالية، وكرر أمره بأن نقيم الميزان بالقسط ولا نخسر الميزان.

جزى الله علماءنا عنا كل خير، فقد قدَّموا لنا تفسيرا رائعا وقد يكون كافيا لتفهم البعد الذي رمى إليه الله سبحانه، وكذلك كان كافيا لكي نستوعب رسالته من هذه الآيات.

لكن لا أرى مانعا في أن نحاول تعميق مفهوم هذه الآيات ونوسع إدراكنا لها، والله أسأل أن يلهمنا الصواب والسداد في محاولتنا.

ولنبدأ بتعريف السماء: قالوا: إنها كل شيء فوق الأرض يعلوها، وكلمة السماء تأتي من السمو والرفعة والعلو، و(سماك هو كل ما علاك)..

وانطلاقا من ذلك فقد نعتبر الغلاف الجوي سماء، وقد تكون درب التبانة (بما فيها من آلاف البلايين من النجوم) سماء، وقد نعتبر الكون (بكل مجراته) سماء، وسقف البيت سماء، وأيا من هذه التعريفات اعتمدنا، فلا تناقص ولا تضاد مع الآية الكريمة، فكل من هذه الأشياء مرفوع فوق سطح الأرض.

فعلى الرغم من كروية الأرض، وأن القطب الشمالي يقع في قمة الجزء العلوي منها،

وعكس ذلك القطب الجنوبي يقع في قاع الجزء السفلي منها، وأن الفوق بالنسبة للواقف على القطب الشمالي هو التحت بالنسبة للواقف على القطب الجنوبي والعكس بالعكس، وكذلك الفوق بالنسبة للواقف على خط الاستواء في آسيا هو التحت بالنسبة للواقف على نفس الخط في أمريكا، فرغم كل ذلك فإن جميع من على الأرض يرى السماء فوقه، ولعل في ذلك إعجازاً عظيماً في قوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ أي هي مرفوعة فوق أي جزء من سطح الأرض.

فلو اعتبرنا أن السماء هي الغلاف الجوي، فهو اعتبار لا يجافي الحقيقة لان هذا الغلاف يرتفع فوق سطح الأرض ويغلفها من جميع الجهات، ويقول سبحانه في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧- ٢٨]

ويقول العلماء: إن الغلاف الجوي (السماء) كان عند بداية تكون الأرض رقيقا، قليل السمك، وبمرور الزمن صار يزداد سمكا ويزداد ارتفاعا فوق سطح الأرض﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾. ومن ذلك فقد يكون معنى ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾هو الزيادة في سمك الغلاف الجوي (بما يخرج من باطن الأرض من غازات وأدخنة وأبخرة) حتى وصل سُمك هذا الغلاف عبر آلاف الملايين من السنين إلى ما هو عليه الآن.

أما ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ فما من معاملة بين الناس، أو بين البشر أو مع الله (خالقهم) إلا وقد وضع الله سبحانه لها ميزاناً دقيقاً يحدد نوع ومستوى هذه العلاقة وهذا التعامل (ومن أجل ذلك انزل سبحانه الرسالات السماوية وأنزل الشرائع والقوانين).

كما أنه لا يوجد في جسمك جهاز أو عضو بل ولا نسيج إلا وهو محكوم بميزان وبتقنين في تعامله مع الأجهزة الأخرى أو مع البيئة من حوله.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال الرسول الكريم ﷺ: **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً** (وشبّك بين أصابعه).

ولا يوجد شيء في محيطك أو في بيتك أو على هذه الأرض أو في هذا الكون الفسيح إلا ويسير وفق نواميس وقوانين ومعادلات هي الموازين التي وضعها الله سبحانه لتحكم هذا الكون.

ولا يستطيع مخلوق (حي أو ميت) أن يَحيد قيد أنملة عن هذا الميزان، والسماء هي واحدة من الأشياء المحكومة بهذا الميزان. فإذا كانت السماء هي الغلاف الجوي فهي مكونة من طبقات غازية متراكبه فوق بعضها، لكل طبقة منها خصائصها ومكوناتها وسمكها ومحتوياتها.

ويربط بين هذه الطبقات توازن دقيق وصارم (قدّرة الله) فلكل طبقة دورها وأهميتها للحياة ففي الطبقة الدنيا مثلا يكثر الأكسجين والنيتروجين وثاني أكسيد الكربون بالإضافة إلى بخار الماء والسحب والأمطار والرياح، وما ينتج عنها من طاقة حركية تُسيّر الفلك في البحار، وتُغيِّر الهواء لتذهب بالهواء الملوث وتأتي بغيره، وتساهم في تلقيح الأزهار.

كل هذه المكونات مقدرة ومحسوبة بميزان يضمن للحياة وجودها واستمرارها.

أما الطبقة الوسطى فتكون قليلة التقلبات مستقرة، فهي بذلك تصلح للطيران، ومن فوقها طبقة الأوزون الذي هو الدرع الواقي للأرض من الإشعاعات الضارة، ثم تأتي الطبقة العليا وهذه تحتوي على غازات متأينة (بسبب قلة الضغط هناك)، وبهذه الخاصية فهي تعكس موجات الراديو والموجات الكهرومغناطيسية مساهمة في توصيل بث وإرسال الإذاعات ومسهلة الاتصالات.

أما إن كانت السماء هي النجوم والكواكب والمجرات فإن الأبعاد بينها محسوبة بميزان دقيق ينظم التجاذب بينها، فلا يكون هذا التجاذب قليلا فتتناثر في هذا الكون اللانهائي الأبعاد، ولا يكون التجاذب بينها كبيراً فتلتهم بعضها بعضا مكونة الثقوب السوداء.

وسواء أكانت السماء هي الغلاف الجوي أو المجرات والنجوم والكواكب، فإنها محكومة بميزان دقيق وضعه الله سبحانه ويشرف عليه.

فقد قال سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١].

ومن صور بخس الإنسان للميزان ومن طرق طغيانه بميزان السماء ما يحدث عندما يسلك الإنسان سلوكاً ضاراً وغير صحيح ولا مسؤول ولا مقنن، وبعيدا عن التقيد بموازين السلامة، فيبث في الهواء وفي هذا الغلاف ما هب ودب من الغازات والأبخرة والأدخنة الملوثة، فإن ميزان هذه الطبقات وتركيب مكوناتها سوف يختل، بل إن الإنسان قد يُسرف ويبالغ في اختلال هذا الميزان.

ولعلم الله سبحانه بجبروت الإنسان وعدم التزامه بالميزان فقد قال له ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ وهذا يعني أنك إن اضطررت للإخلال بهذا الميزان فلا تبالغ في ذلك حتى لا تفسد هذه البيئة التي وزنها سبحانه بأحسن المواصفات وأدق الموازين لتعيش حياتك فيها هانئا معافى... لكن كما قال الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ... لكن لا حياة لمن تنادي

بل لا حياء لمن تنادي.

فها هي البيئة تشكو وتئن تحت وطأة وجور الإنسان ومن طغيانه، وخاصة في الدول الصناعية الكبرى التي لوثت الجو، حتى أن بعضها قد وصل بها الحمق والطغيان إلى رفض إبرام معاهدات تحد من هذا التلوث، فها هو الاحتباس الحراري بكل تبعاته يتزايد يوما بعد يوم، وثلوج المحيطات المتجمدة تنصهر رافعةً منسوب مياه البحر، وإن استمر الحال كذلك فسوف تغطي مياه البحار سطح اليابسة.

وقبل الاحتباس الحراري هاهو ثقب الأوزون بمخاطره واتساعه المستمر وما يتبع ذلك من مخاطر على صحة كافة الأحياء على الأرض.

ولا تنس ظاهرة التصحر وأنواع لا تحصى من التلوث، ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾.. قننوا ووازنوا تعاملكم مع البيئة بالقسط وبالعدل، ولا تجعلوا ما ينتج عن حياتكم من مخلفات ومن فضلات ونفايات (سواء منها الصلبة أو السائلة أو الغازية) يطغي على ما تستطيع الطبيعة استيعابه وعلى تحليله وإعادته مرة أخرى مادة غير ملوثة وغير ضارة بل حبذا استطاعتنا مساعدة الطبيعة على إعادة تحويله إلى مادة أولية يمكن إعادة استخدامها من جديد.

وللحفاظ على هذا الميزان البيئي فقد خلق سبحانه دورات طبيعية، مثل دورة الأكسجين ودورة الكربون ودورة النيتروجين ودورة الماء في الطبيعة، ففي هذه الدورات تدور المواد ما بين مادة عضوية حية إلى مادة معدنية غير حية، ولعل هذا الدوران هو نوع من التسبيح والسجود لله.

فكما أن دوران الحجيج والمعتمرين حول الكعبة يعتبر تسبيحا وعبادة، فلعل دوران النجوم والكواكب (في مساراتها المحددة) ودوران الإلكترونات حول النواة، ودوران الحيوان المنوي حول البويضة أنواعا من السجود والعبادة والتسبيح، ولحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى فإن جميع هذه الدورات تتم عكس عقارب الساعة.

فعندما يدخل الأكسجين أو الماء أو الكربون أو النيتروجين في جسم الكائن الحي ويصبح جزءاً من تركيبة يتحول من مادة ميتة جامدة إلى مادة حية داخل الجسم، وبعدما يموت الكائن الحي فإن جسمه يتحلل وتعود جميع هذه المواد مرة أخرى إلى مخزن الطبيعة، ويتم ذلك على شكل دورات تنطبق عليها الآية الكريمة: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [يونس:٣١] .

ولعل معنى ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ ومعنى ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ هو أن نراعي ونقنن ونوازن في هذه الدورات، ونجعل ميزان الداخل مساوٍ لميزان الخارج، ونوجد توازنا بين المواد الداخلة في أجسامنا وفي الصناعة وبين النفايات الناتجة المطروحة عنها، وعندها لا يخسر ميزان البيئة ولا تختل الحياة.

وقد يقول قائل: إن معنى ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ في الآية: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ هي النجوم والكواكب والأقمار والأبراج والمجموعات النجمية والمجرات السابحة في هذا الكون اللامتناهي.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١].

وقد يكون هذا الاحتمال صحيحا خاصة وأنها جميعاً مرفوعةً في السماء فوق الأرض، ومن حيث نظرت إليها من سطح الأرض فإنك ستجدها مرفوعة فوقك..

وما من جرم من هذه الأجرام له مطلق الحرية (حرية الحركة) بل كلها محكومة بميزان يربط بينها وبين ما يحيط بها من أجرام سماوية أخرى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾ [الرعد:٢].

نعم فقد تكون السماء في هذه الآية هي مجموع الأجرام السماوية المنتشرة في هذا الكون، مرفوعة بأعمدة لكننا لا نراها، أعمدة أقوى من الاسمنت ومن الحديد، تؤدي دورها في حفظ كل جرم سماوي في موقعه وفي مداره لا يحيد عنه.

أليس هذا التنسيق بين الأجرام السماوية عظيما؟ وأي ميزان أعظم وأدق من ميزان يربط بين مليارات الأجرام السماوية وبين المجرات ولا يسمح باصطدامها أو بلعها أو دمجها ببعضها؟.

لكنني لست ادري فإن كانت هذه المجرات وهذه الأجرام هي السماء فكيف يمكن لنا نحن أن نحن بهذا الميزان؟ وكيف يمكن لنا أن نُخسر الميزان؟.

هل يعني ذلك أن الله سبحانه قد علم منذ الأزل أننا سوف نرسل مركبات فضائية وأقماراً اصطناعية وأن هذه الأجهزة، بما عليها من مواد سوف تترك الأرض وتهبط على الكواكب الأخرى، فيسبب ذلك خللاً في التوازن الكتلي أو الجزئي أو في عناصر ومركبات هذه الأجرام.

هل سيسبب ذلك عدم توازن في مقدار التجاذب بينها وبين الأرض خاصة وأن الأرض في هذه الحالة سوف تخسر جزءاً من كتلتها ويضاف ذلك إلى كتلة الكوكب الآخر، محدثا خللا في الميزان الذي يربطنا مع هذه الكواكب؟ وهل يأمرنا سبحانه بأن

لا نبالغ في إرسال هذه المركبات؟ **الله أعلم؟؟**

كثيرون هم الذين يميلون لفهم ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ على أن الله سبحانه وتعالى قد رفع السماء بما فيها من غلاف جوي ومن أجرام سماوية فوق الأرض، وبعد ذلك وضع الميزان، وربط سبحانه بين السماء والسمو والرفعة وبين الميزان لما له من أهمية وقيمة، ولما يربطه بكل الصفات الطيبة السابقة.

فميزان العدل والقسطاس، ميزان التعامل العادل الذي فيه تأخذ ما لك وتعطي ما عليك، وفيه ضبط للعلاقات الإنسانية والاجتماعية والتجارية، هذا الميزان لا بد عند استعماله من مراعاة العدل والقسطاس، وهذا لا يتأتي إلا باحترام الميزان وعدم إخساره أو الخلل فيه .

ومن هذه الموازين ميزان البيع والشراء وما فيه من حقوق للعباد، وقد حذَّر سبحانه من التخسير والتطفيف في هذا الميزان وجعل لذلك عقوبة كبيرة حين قال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطفِّفين:١- ٣].

كما قال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء:٣٥].

فميزان البيع والشراء هو من وضع الله ومن قوانينه ومن سننه، فعلينا احترامه وعدم الطغيان به أو تخسيره .

وليس عبثا ولا من نافلة القول أن يرد تصريف (وزن وميزان وموازين) في القرآن ٢٣ مرة، وفي كل الحالات يأمرنا سبحانه بالعدل وبالقسط في هذا الميزان.

## ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ [1]

لقد تقاربت تفسيرات المفسرين لهذه الآية، فمجمل ما قالوا: أن كلمة ﴿وَضَعَهَا﴾ تعني خلقها وأوجدها وثبّتها، وكذلك جعلها منخفضة عن السماء (كما نشاهد). بالإضافة إلى انه وضعها فإنه كذلك مهّدها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات لكي يتمكن الأنام من الاستقرار عليها والانتفاع بما خلق لهم على ظهرها.

وقال بعضهم: إن كلمة ﴿وَضَعَهَا﴾ تأتي من تصريف وضيع أي من الضعة، أي أذلها وأخفضها لتكون مسخرة في خدمة الأحياء عليها.

ولقد أسهب السيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآية فقال: إن الأرض موضوعة لكي نستقر عليها، لكن لطول استقرارنا عليها فإننا لم نشعر بأهمية وبأثر هذا الاستقرار، وذلك لاعتقادنا بأن هذا الوضع هو شيء طبيعي، لكننا لو تصورنا أن الأرض ما هي إلا ذرة هباء في هذا الكون ورغم ذلك فهي تدور حول نفسها، وتدور حول الشمس، ومع الشمس تدور حول المجرة، فهي دوارة في هذا الكون، ورغم كل ذلك فنحن مستقرون عليها، بل ولا نشعر بهذه الحركات (لولا اكتشاف العلماء لها، وإخبارنا وتعليمنا بها).

وما ذلك إلا برحمة من الله أن وضعها بهذا الوضع وفي هذا الموقع وأوكل لها القيام بهذه المهمة.

أما معنى **الأنام** فقد تفاوتت حوله الآراء، فمنهم من قال إنهم الناس وبنو آدم فقط، ومنهم من قال: إنهم كل من دب على هذه الأرض من خلائق مختلفة الأنواع والأشكال والألوان و الألسنة، ومنهم من شمل مع الأنام كل أنواع الحيوان، وآخرون قالوا: إن الأنام هم الإنس والجن.

وقبل أن أبُدي تصوري في فهم هذه الآية اذكر لك بعض الآيات لعلها تُلقي لنا ضوءاً يوضح لنا ما نحن بصدده فيسهل علينا فهم هذه الآية.

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج:٦٥].

- ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

- ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ [النمل:٦١].

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [غافر:٦٤].

- ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] + [الأعراف:٢٤].

لعلك تلحظ أن جميع هذه الآيات الكريمات تقول: بأن الله سبحانه الذي خلق الأرض، قد وضعها في موضع مميز لا يشاركها فيه كوكب آخر من كواكب المجموعة الشمسية (على الأقل)، وهذا الموقع يؤهلها لأن تكون مُستقراً ومتاعاً لنا، وعليها نحيا وعليها نموت، كما وتهيئ لنا كل أسباب الحياة.

وبملاحظة آيات القرآن الكريم نجد أن الله سبحانه يقول: سخر لكم الشمس والقمر والأنهار والبحر والليل والنهار، لكنه لم يقل ولا مرة واحدة سخر لكم الأرض، بل في كل مرة يقول ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولا شك أن وراء ذلك حكمة أرادها الله، حكمة تحتاج إلى بحث وتدبر، فقد قال سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج:٦٥] وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان:٢٠].

ولكي تكون الأرض مستقرا لنا وللأنام من حولنا لا بد أن تتوافر فيها مواصفات خاصة، سوف أتناول نزراً يسيراً منها وهي التي جعلت الحياة على الأرض ممكنة (خلافا لبقية الكواكب المعروفة لنا).

أولاً وقبل كل شيء فقد ثبت لنا أن الحياة لا توجد إلا على الأرض فتكون بذلك هي الكوكب الوحيد (حتى الآن) من كواكب المجموعة الشمسية الذي كرّمه الله بأن أوجد عليه الحياة ومنحه شرف استقبال الإنسان.

وقد خلق سبحانه على الأرض ظروفاً، ووضع فيها خصائص جعلتها موطناً للحياة دون غيرها، ومن هذه الظروف موقعها من الكون ومن الشمس ومن كواكب المجموعة الشمسية بل ومن القمر فهي تقع ثالث الكواكب بعداً عن الشمس بعد عطارد والزهرة، كما أن من ضمن هذه المواصفات شكلها وحجمها، وكتلتها، وسرعة دورانها حول محورها، وسرعة دورانها حول الشمس وسرعة دوران القمر حولها، كذلك مقدار ميل محورها عن العمودي ٢٣,٥ °. كل هذه عوامل لها الأثر الأكبر على الحياة على الأرض، ومما هو مؤكد أن الذي وضع الأرض للأنام قد حسب وقدر هذه العوامل بكل الدقة، وبكل الإتقان لتستطيع الأرض أن تؤدي واجبها في توفير أسباب الحياة ...

ولعل هذه المواصفات تندرج تحت ظل الآية: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩].

وتؤيدها الآية القائلة: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:٢-٣].

وكذلك الآية التي تقول: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

فمثلا بُعد الأرض عن الشمس، وسرعة دورانها حول الشمس بمعدل ٢٩,٧٦كم/ ث، وزمن دورتها المدارية (حول الشمس) وتستغرق (طول السنة) وتبلغ ٣٦٥,٢٥ يوما، وكذلك زمن دورتها المحورية (حول محورها وتساوي طول اليوم)٢٣,٩٤ساعة، وبهذا الدورات، وبهذا الشكل، وبهذه السرعات والمسارات تتيح لكل بقعة من سطح الأرض أن تستقبل وتحصل على الكمية المناسبة والكمية اللازمة لها من الطاقة الضوئية والطاقة الحرارية.

كما أن قُطر الأرض الاستوائي والبالغ ١٢٧٥٦كم، وكذا سماكة الغلاف الجوي ومكوناته، كل هذه عوامل وفّرها سبحانه على سطح الأرض ولم يوفرها على كوكب آخر، فكانت من العوامل التي ساهمت في وضع الأرض للأنام.

كما أن هذا البعد المثالي عن الشمس جعل المدى الحراري على سطح الأرض(هو المدى بين أعلى درجة حرارة وأخفض درجة حرارة) لا يتجاوز الـ ٨٥°م، وهذا المدى المعتدل من الحرارة يسمح بتواجد الماء في حالاته الثلاثة.

وقد ذكرت لك عند تفسير آية ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ الأثر السلبي على حال الأرض لو كانت على بعد أكبر أو أصغر من بعدها الحالي.

فوجود الماء وبهذه المواصفات هو سبب مباشر لوجود الحياة على الأرض.

وتخبر الكشوف العلمية حتى الآن أن الأرض هي الكوكب الوحيد الذي يحتوي على الماء.

أما عن الغلاف الجوي المحيط بالأرض وعن تركيبة وسمكه ومكوناته وما يحويه من مظلة واقية تحمي الحياة على الأرض(طبقة الأوزون)، فهذا قد سبق شرحه وتبيان أهميته بوضوح في موقع آخر من هذا الكتاب.

أضف إلى ذلك القمر وبعده وكتلته ومقدار التجاذب المتبادل بينه وبين الأرض، كل ذلك يتم ويجري بحسبان دقيق ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ ليضع سبحانه الأرض للأنام.

ولا ننسى أن المسافات بين الأرض والكواكب السيارة موضوعة بحسبان لتساهم في الوضع الأمثل للأرض.

والحديث عن وضع الأرض بهذا الموضع وبهذا الشكل وبهذا المكان يطول ولا يكفيه كتاب كامل، وما قدمته لك هو إشارة مختصرة أوردتها لك لعلها تُسهم وتساعد في فهم معنى الآية الكريمة ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾.

أما كلمة الأنام فتعني (في المعجم الوسيط) جميع ما على الأرض من خلق.

نحن نعلم أن للأحياء على هذه الأرض صفات عديدة منها التنفس، والتغذى والتكاثر .... ولعل من هذه الصفات أيضا النوم، فهل يمكن اعتبار أن الأنام هم الأحياء الذين يحتاجون إلى فترة من النوم؟.

معلوم أن لكل كائن حي طريقته الخاصة بالنوم، الطريقة التي تلبي حاجةً ضروريةً لحياته، وهي تختلف من كائن إلى آخر، وتتوقف على شكله وحجمه وطريقة حياته.

فمثلا نوم الإنسان غير نوم السمك غير نوم الزواحف... إلخ.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ [١١]

اتفق المفسرون على أن الفاكهة هي كل ما يُتفكه به من أنواع وضروب الثمار.

أما الأكمام فمنهم من قال: إنها جمع كِم (بالكسر) وهي وعاء أو كيس الطلع من النخلة الذي يتكون فيه الثمر.

ومنهم من قال: إن الأكمام هي سبائب الليف التي تكون في أعناق النخيل، وفي ذلك إشارة إلى جمال هيئتها إضافة إلى فائدة ثمرها.

ويعزو البعض إفراد النخيل بالذكر في هذه الآية لأننا نتناوله لأكثر من غرض، منها التغذي والتلذذ والشفاء.

بينما يعزو آخرون هذا الإفراد لشرفه، ولنفعه وللذته رطباً ويابساً. وقد ذكرت بعضا من أهميته في موقع آخر من هذا الكتاب عند الآية: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

وزيادة في توضيح هذه الآية نلاحظ أنه بعدما بين لنا سبحانه بعضا من أفضاله علينا، ومنها أنه وضع الأرض في الموقع الأنسب وقال لنا ﴿.. سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وذكر لنا بعض هذه النعم التي ستجود الأرض بها علينا ومنها الفاكهة، وقبل أن نذكر فوائد الفاكهة تعال نتعرف على معنى كلمة ﴿ فَٰكِهَةٌ﴾ في اللغة العربية.

فالمعجم الوسيط يُعرّف الفاكهة بأنها ثمار لذيذة الطعم حلوة المذاق.

والرجل الفَكية هو الرجل طيب النفس كثير الدعابة والمزاح.

ونقول أفكهت الناقة: أي درّت عند أكل الربيع قبل أن تضع وليدها. ونقول تفكه بالشيء يعني تمتع به وتلذذ.

والفاكه من الرجال هو ناعم العيش ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان:٢٧].

فكما تلاحظ فإن كل مرادفات فاكهه هي أشياء تسر النفس وتُفرح القلب وتُنّعم الحياة، فسواء أكانت الفاكهة دعابة أم ممازحة أم الطيب المليح من الكلام أم ادرار الناقة، أم نعمه العيش أم لذة الطعم، فكلها أشياء طيبه محمودة ومطلوبة.

أما لماذا خصها سبحانه بالذكر بل وذكرها مباشرة بعد الآية التي تقول: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾، كما وكرر ذكرها في القرآن ١٨ مرة، لا شك أن لذلك العديد من الأسباب أسرد لك بعضا منها:

١- فالفاكهة ثمار لذيذة الطعم، شهية المذاق، وقلما تجد إنسانا لا يحبها أو لا يشتهيها، وإنه وإن عزف عن صنف أو نوع فلا شك أنه يُقبل على آخر.

٢- ومن مميزاتها سهولة تناولها، وقليل منها ما نحتاج لإزالة القشرة عنه قبل تناوله وإن كان لابد من ذلك فهي عملية سهلة، كما أن معظمها لا يحتاج قبل تناوله إلى أيّـة معالجة أو طبخ .

٣- أضف إلى ذلك سهولة مضغها (فمعظمها سهلة التناول)، ولا أشك في أن هضمها وامتصاصها وتمثيلها في الجسم عمليات سهلة، ويؤيد كلامي هذا أن رسولنا الكريم (الذي لا ينطق عن الهوى) يأمرنا بأن نبدأ إفطارنا (سواء في رمضان أو حتى في الأيام العادية) بتناول حبات من التمر (وهو نوع من الفاكهة)، وقد أكد العلماء أنه سهل الهضم والامتصاص وأنه يسري مع الدم بسرعة معطيا الجسم ما يحتاجه من الطاقة في أقصر فترة من الزمن.

كما أن التمر يحتوي على سكريات بسيطة يجري امتصاصها من المعدة مباشرة دون الانتظار لامتصاصها من الأمعاء الدقيقة (شأن الأطعمة الأخرى)، وفي هذه الحالة يأخذ الجسم حاجته من السكر ومن الطاقة بأقصر وقت ممكن.

٤- كما أن الفاكهة تحتوي على معظم وأفضل أنواع الفيتامينات التي لاغني للجسم عنها، فهي تمدنا (بالفيتامينات) بصورة طبيعية سهلة التناول سهلة الفائدة،

(على النقيض من الفيتامينات الموجودة في الأدوية والمواد الكيماوية)، كما أن أثرها الإيجابي على الصحة واضح وسريع.

٥- أضف إلى ذلك وفرة ما تحتويه من الأملاح المعدنية التي يحتاجها الجسم من حيث الكمية والنوع، فالفاكهة تعطينا جميع الأملاح المعدنية الضرورية لسلامة ولصحة الجسم .

٦- ولا تنس أن الفاكهة تعتبر مصدر هام لأفضل أنواع السكريات الضرورية للجسم مثل الجلوكوز والفركتوز وغيرها من الكربوهيدات. بل إنها تحتوي على سكريات جاهزة لا تحتاج إلى هضم، فيقوم الجسم بامتصاصها والاستفادة منها مباشرة.

٧- وللفاكهة دور عظيم في الوقاية من الأمراض وفي إكساب الجسم المناعة والحصانة، فالفواكه خير مقو لجهاز المناعة الذي هو من أهم خطوط الدفاع عن الجسم.

٨- ومن نعم الله التي لا تحصى أنه وزّع مواسم نُضج الفواكه على فصول السنة المختلفة، فبذلك نجدها متوفرة ومتنوعة على مدار العام، كما أن الجسم يحتاج في موسم الشتاء إلى أنواع من الفواكه والفيتامينات والأملاح المعدنية غير التي يحتاجها في الربيع، وكلاهما يختلف عن فاكهه الصيف، والأمثلة على ذلك كثيرة، ولكن الأكثر هو فضل الله وكرمه ورحمته .

زيادة في فضل الله علينا أن جعل مواسم نضج الفاكهة يستمر لفترة طويلة من الزمن، بحيث يمكن التمتع بها والاستفادة منها لأطول فترة ممكنة، وهو بذلك يختلف عن موسم نضج الحبوب (كالقمح والذرة والشعير) التي تنضج مرة واحدة، ونضج الحبوب بهذه الطريقة أيضا فيه خير للإنسان حيث يوفر جهده عند جني هذه المحاصيل فيجنيها مرة واحدة .

أما لماذا اختص سبحانه النخل بالذكر دون سائر أنواع الفواكه فلذلك طبعا أسباب سنتعرف على بعضها، لكن بعد أن نتعرف على معنى النخل في اللغة العربية.

نَخَلَ الشيء نخلاً أي غربله وصفّاه من الشوائب، مثل نخل الدقيق والحبوب بل ونخل الكلام أي أخذ المفيد منه. ويقال نَخَلَ له النصيحة أي أخلصها له، ونَخَلَ السحاب المطر أي صبه، وانتخل الشيء أي اختار أجوده، حتى نخالة الدقيق فهي غنية بفيتامين ب،

أما النخلة فهي شجرة من الفصيلة النخيلية، تكثر في بلاد العرب خاصة الحجاز والعراق ومصر وتونس، وثمرها هو البلح والزهو والبسر والرطب والخلال والتمر والعجوة، ولعله سبحانه نخل الفواكه فأعطانا النخيل، ولذلك كرر ذكره في القرآن٢٠مرة، وفيه تتوافر كل الصفات والميزات الموجودة في الفواكه فهو يستعمل كفاكهة وكغذاء وكدواء، كما انه قد كان الغذاء الرئيس لجيوش المسلمين لفترات طويلة، وكان هذا الغذاء لا يسد جوعهم فحسب بل كان يمنحهم القوة والمناعة والمتعة، فهو تقريبا غذاء كامل يحتوي على جميع عناصر الغذاء، بالإضافة لتميز طعمه بلذة خاصة لا تنافسه فيها فاكهه أخرى.

ولعله سبحانه بذكر النخل يريد أن يذكر لنا أشجارا دائمة الخضرة مثل النخيل والزيتون.. وأشجارا متساقطة الأوراق في الخريف مثل اللوزيات، وفي ذلك بداية لعلم تقسيم وتصنيف المملكة النباتية.

كما أنه سبحانه يريد أن يعلمنا أن هناك نباتات ذوات الفلقة الواحدة مثل النخيل (لا يتفرع ساقها إلى أغصان) ونباتات ذوات الفلقتين مثل الزيتون (وجميعها يتفرع ساقها إلى فروع وأغصان)، ويعلمنا أيضا أن هناك نباتات حولية موسمية ومنها الحبوب وأخرى معمره مثل أشجار النخيل والزيتون.

٩- ولا يفوتنا أن ننوه أن للنخيل فائدة غير أنه غذاء وهي أنه يستعمل لتجميل المنازل والحدائق وتزيين مناظرها فقد قال سبحانه ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾[الشعراء:١٤٨] ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾[ق:١٠] ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾[الأنعام:٩٩].

وأعتقد أن في هذه القصة ما يعطي النخلة الكثير من مكانتها ويوفيها الكثير من حقها:

قال الشعبي: كتب قيصر الروم إلى عمر بن الخطاب: أخبرك أن رُسلي أتتني من قِبَلِكَ، فزعمت أن قِبَلكم شجرة ليست بخليقة لشيء من الخير تُخرج مثل آذان الحمير، ثم تتشقق مثل اللؤلؤ، ثم تخضر فتكون مثل الزمرد الأخضر، ثم تحمر فتكون مثل الياقوت الأحمر، ثم تينع فتنضج فتكون كأطيب فالوذج أكل، ثم تيبس فتكون عصمةً للمقيم، وزاداً للمسافر، فإن تكن رسلي صدقتني، فلا أرى هذه الشجرة إلا من شجر الجنة.

فكتب إليه عمر بن الخطاب: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى قيصر ملك الروم: إن رسلك قد صدقوك، فهذه الشجرة عندنا، وهي الشجرة التي ألهم الله مريم اللجوء تحتها حين أحست بألم المخاض حين نفست بعيسى ابنها.

فإتق الله ولا تتخذ عيسى إلها من دون الله ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩].

قصة بها من العبر(*) الكثير ومن تبيان مكانة النخلة أكثر .

نعود الآن إلى ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ فقد ورد ذكرها في القرآن مرتين، مرة في هذه الآية، ومرة أخرى في الآية التي تقول: ﴿ ... وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ... ﴾ [فُصِّلَت:٤٧].

وأكمام الشجرة هي مواضع نضج البذور، وتسمى في علم النبات المبيض، والمبيض في الزهرة المؤنثة هو الجزء من المتاع الذي تتكون فيه البويضات، التي تخصبها حبوب اللقاح محولة إياها إلى بذور وثمار، وهي تقاوي النبات وثماره.

---

(*)ولا أنسى علاقة المثل الجاري بين الناس بأن فلان مواعيده مواعيد عرقوب، وعرقوب هذا رجل من المماليك أتاه اخ له بحّاجة فقال له: إذّا أطلعت هذه النخلة، فلما أطلعت قال له: إذا أبلحت، ولما أبلحت قال له: إذا زهت، فلما زهت قال له إذا أرطبت، فلما أرطبت قال له إذا أتمرت، ولما أتمرت قطعها وأكلها ولم يقض حاجته فذهبت مثلاً.

ومن أوضح الأدلة على عظمة القرآن وعلى الإعجاز فيه أن يذكر سبحانه أكمام الثمار مع ذكرما تحمل من أنثى وما تضع، في آية واحدة هي ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ....﴾ [فصّلت:٤٧].

وجاء ذكرهما متتابعين متتاليين، ومثال كهذا لهو خير دليل على وحدانية الله، كما وينبئ بأن هناك صلة كبيرة وتشابهاً واضحا بين أكمام الشجر (أعضاء التناسل الأنثوية للزهرة) وبين رحم الأنثى الذي فيه تحمل جنينها ومنه تضع طفلها.

وبدراسة علم النبات نلحظ التشابه الكلي بين عضو التناسل في الزهرة المؤنثة والمسمى (المتاع) وبين جهاز التناسل في الأنثى.

أما أكمام النخلة فهي (والله أعلم). المبايض التي تتولد فيها البويضات، ثم توضع عليها حبوب اللقاح المأخوذة من الفُحّال (ذكر النخل) فتخصبها معطية الثمر والبلح، وتكون هذه المبايض مغلقة، ومغطاة أي مكممة.

وفي المعجم الوسيط كم الشيء يعني غطاه وستره وأخفاه.

وكم البعير أي سد فمه بالكمامة، وكم النخلة أي غطاها لترطب.

## ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [١٢]

قال المفسرون أن ﴿الحب﴾ هو جميع ما يُقتات به من حبوب مثل البر (الحنطة) والشعير والذرة والأرز وغيرها من المحاصيل.

أما مجمل ما قالوا عن ﴿ٱلْعَصْفِ﴾ فهو التبن أو القشر الذي يُغطّي الحبوب ثم ينفصل عنها عند استخراج الحبوب من السنابل.

كما أن العصف قد يأتي من أوراق وسيقان الزرع اليابسة بعد أن تُهرس وتُدرس، وسُمي عصفاً لأن الرياح تحمل هذا القش وتعصفه وتُبعده عن الحبوب بسبب خفته ورقته وقلة كثافته.

أما عن ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ فقد قالوا الكثير، ومما قالوا: هو كل نبات مشموم ذو رائحة ترتاح لها النفس، وبعض الناس يطلقون على الريحان اسم المشموم، ومنهم من قال: إنه لب الشجر، وآخرون قالوا: هو خضرة الزراعة، أو بقلة طيبة الريح أو ورق له رائحة، ومنهم من قال أنه النبات المعروف المسمى ريحان، وقال البعض إنه الرزق.

ولقد تعلمنا في علم النبات أن الحبوب تتبع المحاصيل، ومنها القمح والشعير والذرة والأرز والشوفان وبعض البقوليات مثل العدس والفول والحمص.

والحبوب تمدنا بالغذاء الضروري للحياة، ولذلك فنحن نسمى الخبز (عيشاً) وفي الخليج العربي يسمون الأرز (عيشاً).

فالحبوب تحتوي على معظم عناصر الغذاء إلا أنه يغلب عليها الكربوهيدرات (خاصة النشويات).

فالحبوب هي المصدر الرئيس للكربوهيدات للجسم كما أنها تمدنا بالزيوت النباتية مثل زيت الذرة وعباد الشمس والصويا، كما أنها وتمدنا أيضاً بالقليل من البروتينات والأملاح المعدنية والفيتامينات.

وزيادة في علم تصنيف النبات نلاحظ أن أشجار الفواكه هي نباتاتٌ بعضها معمرة وبعضها يعيش لسنوات معدودة بينما جميع أنواع الحبوب (المحاصيل) فهي حولية، تكمل دورة حياتها في شهور معدودة.

وبذلك يتابع سبحانه تعليمنا تصنيف وتقسيم المملكة النباتية.

فبعد أن قسمها إلى أشجار ونباتات صغيرة، ونباتات معمرة وحولية ودائمة الخضرة ومتساقطة الأوراق، وذات فلقة واحدة وذات فلقتين، وذات ثمار وذات حبوب، عاد وقسمها من حيث الفائدة، فمنها ما يؤخذ غذاءً رئيساً كالحبوب ومنها ما هو للتلذذ ومكمل لعناصر الغذاء، مثل الفواكه ومنها ما هو للمتعة وللزينة ولتوفير الرائحة الزكية والعطرية سواء أكانت هذه الرائحة من حبوبه أو من أوراقه أو من أزهاره، ومثال ذلك الريحان... وهو النبات المعروف برائحته الجميلة التي أضفت عليه هذا الاسم. والنعناع، وغيره.

وزيادة في العلم يبين لنا سبحانه أن من النباتات ما هو غذاء لنا، ومنها ما هو غذاء لحيواناتنا قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾[عبس:٣١- ٣٢] بل قد يكون نفس النبات مصدرا لغذاء الإنسان والحيوان في نفس الوقت مثل القمح والعدس والذرة والفول والشعير....إلخ.

فالحب مثل القمح والشعير والذرة وغيرها كلها غذاء للإنسان لكن قد نعطي بعضها للحيوان كالشعير والذرة.

كما أنه لأخذ ولاستخلاص الحبوب من هذه النباتات فلا بد من فرز (الأوراق والسيقان المهروسة والقشر والأغلفة) عن الحبوب، كل هذه المخلفات نبعدها ونطردها عن الحبوب بطريقة العصف وبمساعدة الريح، حيث تعصفها الرياح (تطرحها جانباً) لخفة وزنها وقلة كثافتها بالنسبة للحبوب، وهذه خير غذاء للحيوانات (التبن)، وحاليا يفصل التبن عن الحبوب بواسطة آلات الحصاد الحديثة بنظرية الطرد المركزي التي تفصل هذا التبن عن الحبوب.

ومن رحمة الله أن هيأ الأجهزة الهضمية للأنعام بمواصفات خاصة تؤهلها للتعامل مع هذا الغذاء (التبن)، فقد جعل أمعاءها أكثر طولا من أمعاء اللواحم (آكلات اللحم) ومن أمعاء الإنسان رغم أن الإنسان مختلط الغذاء (يأكل النبات واللحوم)، وهيأ لها كروشاً تناسب هذا اللون الخشن من الطعام، كما أنه سبحانه وفرّ وأوجد في أمعائها أنواعا من البكتريا تساعدها على هضم هذا التبن محولة إياه إلى لحوم وحليب وبيض ودهون، وفي ذلك قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل:٦٦].

سبحان الله العظيم فحتى التبن والقش وأوراق وسيقان النبات جعلها الله غذاء للإنسان بطريقة غير مباشرة ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ ﴾ [الجاثية:١٣].

وزيادة في فهم معنى العصف أسرد لك أولاً هذه الآيات ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:٥]. أي مثل تبن أكلته الدواب فأصبح روثاً.

وقال سبحانه: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم:١٨].

وقال سبحانه: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس:٢٢]. فالريح العاصف هي الريح الشديدة التي تعصف بما يقابلها.

وقيل أن العصف هو حطام التبن ودقيقه، وقيل هو قشر القمح، وكما ذكرنا سابقا قيل هو التبن الناتج عن هضم وهرس سيقان وأوراق نباتات الحبوب كالقمح والشعير والعدس والكرسنة والبازلاء... الخ.

ولعله سبحانه عندما ذكر أكمام النخيل كان يريد أن يعلمنا أن للنبات كما للإنسان وكما وللحيوان أجهزة تناسلية وأعضاء تكاثر، وكعادة القرآن الكريم فإنه يعطي ومضة أو إيحاء ثم يتركك تفكر وتتدبر وتصل بنفسك إلى المعلومة المرجوة .

وفي ذلك فضل من الله كبير !!!

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [١٣]

آلاء الله جمع إلىً (نطقها إلن) ونعماؤه علينا كثيرة، لا تعد ولا تحصى، وفي هذا الجزء من السورة الكريمة قد ذكر لنا بعضا يسيراً من هذه النعم، وصوّرها بصورة مختصرة، لكنها للمتدبرين مفصلة واضحة.

تبعث في نفوسهم كل الإجلال والإعزاز والتعظيم لهذا الرب الكريم، وكانت كبرى نعمه علينا هي إنزال هذا القرآن العظيم، وتعليمه لرسولنا الكريم ﷺ الذي أوصله لنا بكل دقة وبكل أمانة.

هذا القرآن الذي هو دستور الحياة في الدارين (الدنيا والآخرة).

وهو الترجمة الصادقة لنواميس هذا الوجود، وهو دستور السماء الذي يغمرنا بالرحمة والطمأنينة.

ويخبرنا سبحانه قائلاً: إنه بعدما خلقتك أيها الإنسان، وأوجدتك من تراب هذه الأرض ومنحتك دليل حياتك، وعلمتك ووهبت لك البيان، الذي هو أفضل وسائل الاتصال، والتفاهم، وتبادل الإحساس، والشعور، والعلم، بينك وبين من حولك من بشر، ومن أحياء. بل وسخرت لك الشمس والقمر دائبين بكل ما فيهما من فوائد وجعلت وجودهما وموقعيهما ومواصفاتهما كلها مسخرة لك لوجودك ولحياتك ولمستلزمات راحتك، حتى النجوم والأشجار التي جعلت تسبيحها وسجودها لي هي في خدمتك وتوفير متطلبات حياتك .

وسخرت لك النجوم تهديك في متاهات السبل في الليالي المظلمة..

ومن نعمي إليك أيضاً أن أحطت الأرض بغلاف غازي يوفر لك هواء التنفس وينزل

لك الغيث ويحميك من الإشعاعات الكونية الضارة، بل ويحرق الأجسام الكونية الصلبة (الشهب) قبل أن تصل إليك بلهبها الحارق أو بآثارها المدمرة، وجعلت هذا الغلاف موزونا بدقة عالية ليوفر لك احتياجاتك وطيب حياتك. ولم أكتف أن وزنته لك بحساب دقيق بل أمرتك وأرشدتك أن تتعامل معه بمسئولية وبرفق ولا تخل به، حتى الكواكب والنجوم والمجرات فهي تساهم في (وجودك في هذا الموقع من الكون وفي حياتك) سواء بجاذبيتها المتبادلة بحساب دقيق أو بإشعاعاتها وذلك هو ميزان السماء التي تُظللك.

وحتى لو فهمت أو اعتبرت أن الميزان هو ميزان البيع والشراء أو ميزان التعامل سواء مع الأهل أو الأرحام أو الجيران أو الأقارب أو مع من هم حولك، فقد أرشدتك بالكثير من الآيات والأحاديث إلى أفضل مقاييس التعامل وهو ميزان العدل والقسطاس.

وفضلاً عن ذلك يُذكّرنا سبحانه بوضع الأرض في الموضع الأنسب، وجعل سجودها وتسبيحها قياما ووفاء بمتطلبات حياتنا.

ويعرفنا ببعض ما سخره لنا مما على الأرض من فاكهه ونخيل وحبوب ورياحين أوجدها الله لتكون لنا نعمة ولذة وغذاء.

بعد هذا السرد وهذا التسلسل الرائع في ذكر بعض هذه النعم يسألنا سبحانه فيقول: بأي من هذه النعم وبأي من هذه الآلاء يا معشر الجن والإنس تكذبان؟

سؤال تقرير وتأكيد لهذه النعم، وقد يكون هذا السؤال استفهاما استنكاريا للتوبيخ، وقد يكون للتسجيل والأشهاد.

فليكن جوابنا عندما نسمع هذا السؤال دائما هو: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد والشكر، والمفروض أن نكون نحن الإنس أكثر شكرا لله من الجن ومن سائر

المخلوقات، كما وعلينا أن نحمده على آلائه لا سيما وأنها ظاهرة لنا، وعليها تقوم حياتنا وبدونها يكون دمارنا، وكيف لنا أن نكذب بأية من هذه النعم وقد غمرنا فضلها أحاط بنا عطاؤها .

لكن العليم الخبير يعلم جيداً مَن خلق، ويعلم جيداً طبيعة هـذا الإنسـان وبأنـه ظلـوم جهول كفور، وأنه متأرجح بـين الانفعـالات والانـدفاعات، والأحـداث والتقلبـات، فجميع مخلوقات الله أتته طائعة مختارة مُنيبة ساجدة إلا هذا الإنسـان (الـذي كرمـه الله عليها) فشذ عن الجميع إلا مَن رحم ربي ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس:١٧].

وقال سبحانه ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فُصِّلَت:١٥].

وقال سبحانه أيضا ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

وقد جعل سبحانه السؤال ووضعه بين كل نعمتين ليقيم الحجة على جاحد هذه الـنعم والكافر بها والمنكر لها...

ولعلك تعلم أن التصديق أو التكذيب بآلاء الله، وشكرها أو جحودها لا يكون باللسان فقط ولا بمجرد القول!!!

إنما هو جوهر وسلوك، فالمصدق الشاكر هو المواظب على طاعة الله، والملتزم بأوامره، والمتجنب لنواهيه، والمحافظ على جلال الله ومقامه السامي العالي. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ والحديث عن النعمة هو شكر الله تعالى، وإعطاء المستحق منها.

# ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن صَلۡصَـٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾[١٤]

واستمراراً في ذكر دلائل قدرة الله وعظمته ووحدانيته، وانتقالاً من امتنانه على الإنس والجن بآلائه عليهم في الأرض وفي الكون إلى امتنانه عليهم بآلائه في ذوات أنفسهم وفي خاصة وجودهم وخلقهم.

فيذكرنا سبحانه بأنه خلق أبانا آدم من صلصال كالفخار، أي أنه خلقه سبحانه من طين يابس، له صوت وصلصلة..

ولو راجعنا آيات خلق الله للإنسان في القرآن الكريم لوجدنا أنه سبحانه قد ذكرها بعدة صور فمثلا قال سبحانه :

﴿وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الروم:٢٠]

وفي آية أخرى قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [المؤمنون:١٢].

قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ﴾ [الأنعام:٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَـٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ [الصافات:١١].

وبقليل من التفكر تعرف أن الطين ما هو إلا تراب قد خلط بالماء فأصبح طينا. وعندما يلتصق هذا الطين باليد أو بغيرها يكون عندها طيناً لازباً.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن صَلۡصَـٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر:٢٦].

كما وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن صَلۡصَـٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤].

ولو ترك الطين لفترة من الزمن فإنه ينتن ويتحول لونه إلى اللون الأسود فيصبح بذلك

حمأً مسنوناً، وإذا طال تركه حتى يجف فإنه يصبح صلبا يابسا يصدر عنه صوت إذا طُرق، وقد شبهه سبحانه بالفخار عندما قال ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ فهو ليس فخاراً. لكنه يابس وصلب ويصدر عنه صوت بالضبط كالفخار.

وتعدد صور ذكر القرآن لخلق الإنسان يوحي (خاصة للوهلة الأولى) لغير المتعمق علميا ودينيا أن ثمة فروقاً واختلافات بين هذه الصور..

لكن بقليل من التفكر في هذه الآيات وفي معانيها سينجلي لك الأمر ويتضح لك عدم وجود أي تناقض ولا أية اختلافات بين هذه الصور، بل إنها جاءت على نحو يبين لنا مراحل وخطوات خلق الله لنا، فجميع هذه الصور مخلوقة من تراب، ثم أُضيف له الماء فأصبح طينا، ثم تَرك فترة من الزمن فأصبح حمأً مسنوناً (طينا أسود اللون منتن الرائحة) .

ثم تُرك حتى أصابه الجفاف، فأصبح صلبا يابسا إذا طرقته صدر عنه صوت صلصة ولذلك سماه سبحانه صلصالاً كالفخار.

ولعل هذه المراحل وهذه الأطوار هي مقتضيات تحول التراب بما يحتويه من عناصر متعددة إلى لحم ودم وعظام وغيرها من خلايا وأنسجة الجسم، والله الذي خلقها هو أعلم بالاطوار التي لا بد أن تمر بها لكي تتحول من تراب إلى بشر.

وفي ذلك قال سبحانه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٣- ١٤]

مما سبق فإن الباحث سوف يجد أن جميع الآيات والصور السابقة متوافقة مع بعضها، ولا تناقص أو تعارض فيما بينها، بل هي مسطورة في تسلسل منطقي مقنع وتشير بعض الأحاديث النبوية إلى أنه لما قضت مشيئة الله سبحانه وتعالى بخلق آدم، أخذ قبضة من تراب الأرض فعجنها حتى صارت طيناً لازباً، أسود اللون منتنا، ثم صور

هذا الطين كما تصور الأواني الفخارية، ثم بعد ذلك أيبسه بغير حرق ولا طبخ حتى صار كالفخار في غاية الصلابة، إذا نقرته أصدر صوتا يشبه الصلصلة، وتعتبر هذه المرحة هي آخر مراحل خلق الإنسان.

أضف إلى ذلك ما جاء في تفسير الجلالين حيث قال:

مر خلق الإنسان بعدة مراحل حتى صار حمأ مسنونا، ثم صوره الله سبحانه كما يصور الأباريق وغيرها من الأواني ثم أيبسه حتى أصبح في غاية الصلابة فصار مثل الخزف الذي إذا نقرته أصدر صوتا..

وحسب تفسير الجلالين أن الطَرْقْ والنقر لسماع الصوت هنا يتم لأجل كشف وفحص مدى سلامة الصنعة ومدى خلوها من العيوب.

كما وجاء في تفسير الجلالين عن خلق الإنسان أن الأرض هي أمه، والماء هو ابوه، وكلاهما ممزوج بالهواء الساخن، الذي هو من فيح جهنم.

فمن التراب جسده ومادته، ومن الماء روحه وعقله ومن النار مطلب غوايته وجدته، ومن الهواء حركته وتقلبه في محامده ومذامه.

فيغلب بذلك على جبلته التراب، ولذلك نسب إلى التراب رغم أن الله سبحانه قد خلقه من العناصر الأربعة. وأعتقد أن هذا هو السبب الذي جعل النبي ﷺ يُكني على بن أبي طالب رضي الله عنه: أبا تراب.

وفي نفس الوقت فإن الجان قد خُلق من العناصر الأربعة سابقة الذكر، لكن الغالب على جبلته كان هو النار، ولذلك فقد نسب اليها.

وفي ذلك قال سبحانه ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ وأراني في هذا المقام وبعد هذا التفصيل ليس عندي ما أضيف، لكن إن لم يكن من الإضافة بُد فأقول: فَضلٌ من الله أن يخلقنا سبحانه من تراب ومن طين هذه الأرض بما فيه من عناصر ومركبات من

هذا التراب المتوفر سهل الحصول.

فنحن عندما نموت وليس من الموت بد ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فسوف نعود إلى الأرض، وهناك تتحلل أجسادنا وتعود من جديد مواد وعناصر ومركبات بسيطة (فنحن من الأرض خلقنا واليها نعود) هي نفس مادة الأرض التي كونت أجسامنا عند بداية خلقنا... تتحلل أجساد البشر إلى مادة خام تعود إلى مخزن الطبيعة ليعاد هناك استخدامها من جديد في بناء أجسام أحياء أخرى من نبات وحيوان وإنسان.

ويذكرني هذا بقول فيلسوف العرب الشاعر أبو العلاء المعري

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض      إلاّ من هذه الأجساد

بهذا الناموس وعلى هذا المنوال تتم دورة الحياة، ودورة الطبيعة التي قال فيها سبحانه: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ .

كما يمكنني بعد أن أقرأ هذه الآيات من سورة السجدة وفيها يقول سبحانه: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة:٧- ٩].

أن أتصور أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان من أدنى مادة في هذا الكون وهي الطين الحقير وهذا يذكرني بقول الشاعر إيليا أبو ماضي

نسيَ الطينَ ساعةً أنه طينٌ حقيرٌ      فصالَ تيهاً وعربد

(حيث يؤخذ الطين أحيانا رمزٌ للشيء المتدني الحقير) وبعد ذلك جعل نسل آدم من

ماء مهين (أيضا به ذلة ووضاعة ومهانة) حتى إذا سواه (كما في المراحل السابقة من تراب وطين وحمأ مسنون وصلصال) وبعد كل ذلك نفخ فيه من روحه...

نعم من أدنى ما في هذه الأرض خلقنا، ومن أنفس وأعظم جوهرة في هذا الكون التي هي روح الله نفخ فينا.

هل أعتبر هذا رمزا أو تفسيرا للآية الكريمة التي تقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:٥٤]؟

أي هل إن الإنسان قد جمع بين المتناقضات فامتزج فيه الخير والشر، الإيمان والكفر، الحب والكره، الأنانية والإيثار، الحق والباطل، الكرم والبخل، الحلال والحرام، الشهامة والنذالة، وغيرها الكثير من هذه الثنائيات المتضادة والمتناقضة ومثيرة الجدل.

هل نعزي الصفات القبيحة إلى الطين وإلى الماء المهين؟ بينما نعزى الصفات المحمودة التي هي بعضٌ من صفات الله إلى روحه التي نفخها فينا؟؟

**الله أعلم بذلك ...**

## ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[١٥]

للأسف أن تفسير هذه الآية هو موطن خلاف كبير بين المفسرين سواء في معنى ﴿ٱلْجَآنَّ﴾ أو في معنى مارج من نار .

فعن ﴿ٱلْجَآنَّ﴾ قالوا: إنه أبو الجن، وقالوا: إنه إبليس وأيدوا رأيهم بالآية الكريمة التي تقول: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ...﴾ [الكهف:٥٠]

ومنهم من قال هو ليس إبليس، وآخرون فسروا الجان على أنه اسم للجن (اسم جنس).

أما ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾، فقالوا: إن المرج هو الخلط وهو الاضطراب، ومرج اللسان هو اطلاقه، ومرج الدابة أي أرسلها .

أما عن ﴿الـمَّارِجٍ﴾، فقيل: إنه الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد، أو اللهب المختلط بالسواد .

وقيل إنه خالص النار، أو اللهب الخالص الذي لا دخان له.

وقيل: إنه اللهب الذي يعلوا النار فيختلط بعضه ببعض.

وأكثر من مفسر يقول: إن ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾، تعني اللهب المختلط بعضه ببعض فيختلط السواد مع اللهب الأحمر والأصفر والأخضر، وهذه الألوان تعلو النار عندما تتقد، فغالبا ما نشاهد هذه الألوان مختلطة يعلو بعضها بعضاً في النار.

ومن العلماء من قال: إن **المارج** بالنسبة للجان كالتراب بالنسبة للإنسان واستشهدوا بالآية الكريمة: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢] + [ص:٧٦]

وقالوا: إن الجان خلقوا أيضا من العناصر الأربعة وهي التراب والماء والنار والهواء،

لكن الغالب على جبلتهم هو النار فنسبوا إليها.

هذا سرد لمعظم ما قاله العلماء، عن ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾. وقد ذُكرت كلمة مارج في القرآن مرة واحدة فقط.

وإن كان لي أن أجتهد هنا وأقول شيئا فإنني أقول: قد يكون للجن ألواناً كما للبشر ألوان، فمن الناس من هو أبيض أو أسود أو أصفر أو حنطي أو على درجات من هذه الألوان، فهل للجن ألوان وهل لألوانهم درجات تتوقف على لون اللهب الذي خلقهم الله منه؟.

فمثلا الجان المخلوق من لهب النار المختلط بالسواد يميل لونه إلى السواد، بينما الجان المخلوق من لهب مختلط من عدة ألوان ويغلب عليها لون معين يكون لون الجان أميل إلى هذا اللون، فمثلا الدخان الغالب عليه اللون الأحمر يكون الجان المخلوق منه يميل لونه إلى الأحمر وهكذا الأصفر أو الأخضر...

ومن أمثال المصريين (ولا الجن الأزرق) فهل هذا يعني أن هناك جن لونه أزرق قد خلق من اللهب الأزرق؟

وقال سبحانه ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحِجر:٢٧] أي من النار المحترقة شديدة اللهب، وكما تعرف فنحن لا نرى الجان أو الشياطين لكنهم يروننا حيث يقول سبحانه ﴿..إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ..﴾ [الأعراف:٢٧].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[١٦]

بأية آية، بل بأية نعمة من نعم الله تكذبان

هل بنعمة خلقكم من مادة الأرض التي تعيشون عليها؟ أم برحمته لكم أن قرر وربط خلقكم وتكوينكم بمتعة ولذة الجماع والزواج؟ أم بتنظيمه لهذا التكاثر بقوانين الزواج الشرعية العادلة والمؤدية إلى حياة سعيدة مستقرة ؟

أم بتسلسل مراحل خلقكم التي تبدأ باندماج حيوان منوي مع بويضة معطية خلية جسمية (نطفة) تتحول إلى علقة ثم إلى مضغة، وعبر العديد من الانقسامات تعطي الجنين الذي يتحول إلى طفل؟

ومن آلاء الله ورحمته أن يمر الطفل بهذا التسلسل وبهذه المراحل لان ذلك ضروريٌ لصحة الأم، فهو يساعدها ويسهل عليها استيعاب هذا المخلوق الجديد في أحشائها كما ويُمكّنها (هذا التسلسل) من تقبله ومنحه مستلزمات الحياة والنمو والرعاية والحماية حتى يحين موعد الولادة .

أم برحمته لكم أن خلق الجان من شيء لا ترونه ولا تحسونه حتى لا يكون سببا في إزعاجكم وضجركم ومنافستكم في بيئتكم فبأي من هذه الآلاء تكذبان؟.

وكما ترى فإن الخطاب الإلهي ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ موجه للأنس والجان معا.

مراحل خلق وتطور الجنين المبينة في هذه الآية تتعلق بخلق الإنسان.

أما مراحل خلق الجان وتطوره فهذه في علم الله ولا نعرفها نحن.

ثم يتابع سبحانه وتعالى تذكيرنا بمناحي عظمته وقدرته، وبصور رحمته ونعمه علينا فيقول سبحانه:

## ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [١٧]

قال المفسرون في تفسير هذه الآية: يوجد هنا خبر محذوف تقديره (هو)، وهو ضمير شأن والتقدير (هو رب المشرقين ورب المغربين). وقالوا: إنهما مشرق الشمس في الشتاء ومشرقها في الصيف ومغربها في الشتاء ومغربها في الصيف وما يتبع ذلك من تغيرات للجو واختلاف للفصول وحدوث ما يناسب كل فصل من فصول السنة من أحوال جوية، وأن في هذا التدبير المحكم منافع عظمى للإنسان والحيوان والنبات.

وقال آخرون: إن المشرقين هما مشرقا الشمس والقمر والمغربين هما مغرباهما، بينما قال آخرون هما مشرقا الفجر والشفق ومغربا الشمس والشفق.

وكما ترى فهي اجتهادات كثيرة لكنها متفاوتة، وما علينا إلا أن نسدي كل الشكر لمفسرينا الكرام على هذه الاجتهادات، وذلك لقربها من الواقع ومن الدقة ،ومن قصد الله بالمشرقين والمغربين.

ونلاحظ أن الله سبحانه قد ذكر المشرق والمغرب في القرآن على ثلاث صور كما يلي:

**ففي الصورة الأولى:**

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ [البقرة:١١٥].

قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ [الشعراء:٢٨].

قال سبحانه: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة:١٧٧].

ولا يفوتني هنا أن انوه بعظمة القرآن حيث يقرر ومنذ بداية ظهور الإسلام أن من الناس من ستكون قبلته ناحية المشرق مثل أهل السودان وبعض الدول الإفريقية والأمريكية.

ومنهم من ستكون قبلته ناحية المغرب مثل أهل الإمارات وإيران وغيرهم.

**أما في الصورة الثانية فقد قال سبحانه:**

﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ [الزُخرُف:٣٨].

وقال أيضا: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمن:١٧].

ولو لاحظنا آيات سورة الرحمن لوجدنا فيها التزاوج والثنائية، فمثلا يذكر (الشمس والقمر)، وبذكر (اللؤلؤ والمرجان)، وبذكر (الإنس والجان)، ويذكر (السماء والأرض)..الخ.

ولو سألنا أنفسنا أية صورة من صور ذكر الشروق والغروب سيأتي ذكرها في سورة الرحمن لأجبنا وبدون تردد أنها ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾.

لأنها الصورة الأنسب في هذا الموقع من القرآن الكريم.

**أما في الصورة الثالثة فقال سبحانه:**

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ ..﴾ [المعارج:٤٠] وقال: ﴿...مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣٧]، من هذه الصورة تفهم أن للشمس عدة مشارق وعدة مغارب.

لكن لو سألك سائل ما الفرق بين هذه الصور الثلاث، وما تعنيه كل واحدة منها؟ للإجابة على ذلك لا بد أن تعرف أولا ماذا يعني سبحانه بالمشرق وبالمغرب؟

فالمشرق لبقعة ما على سطح الأرض هو المكان الذي تشرق وتطلع منه الشمس على هذه المنطقة ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾[ق:٣٩]﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ ..﴾ [الكهف:٩٠].

وبما أن الشروق يحدث دائما من ناحية الشرق (بغض النظر إن كان من الجنوب الشرقي أو من الشرق الجنوبي، طبعا هذا بالنسبة للنصف الشمالي من الكرة الأرضية

إلا أنه دائما يتم من الشرق) فلذلك سمي المشرق، نفس هذا الكلام ينطبق على المغرب.

ولا يفوتني هنا أن أذكرك أن شروق الشمس من الشرق وغروبها في الغرب ما هي إلا حركة ظاهرية غير حقيقية، لان الحقيقة هي أن الأرض هي التي تدور حول محورها (نفسها) من الغرب إلى الشرق فيخيل إلينا (بسبب هذا الدوران) أن الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب.

والفرق بين المشرق والمغرب كبير فالمشرق يتبعة النهار وما فيه من نشاط وحيوية وإبصار، وسبح طويل، ومعايش...

أما المغرب فيتبعه الليل وهو سبات ولباس وسكون وهدوء ونوم.

ورغم كثرة الفروق بين الليل والنهار الا أنهما متعاقبان على هذه الأرض.

(فكم توالي الليل بعد النهار وطال بالانجم هذا المدار) .

وقال سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ﴾ [يس:٣٧].

وقال أيضا: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور:٤٤] وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾[لقمان:٢٩].

ومن هذا الشرح الموجز بات واضحا معنى الصورة الأولى والتي يقول فيها سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ ..

لكن ما معنى ﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ ؟

لو دققت النظر يوميا في موقع شروق الشمس لوجدت أن هذا الموقع يتنقل ما بين الشرق الجنوبي و الجنوب الشرقي.

ولو توافرت لك آلات قياس دقيقة لوجدت أن موقع هذا الشروق يتغير يوميا من حيث المكان ومن حيث الزمان (ولو بقدر بسيط)، فمثلا في يوم ١٢/٢١ تشرق

الشمس من أقصى نقطة لها في الشرق (الجنوب الشرقي) حيث تكون الشمس في هذا اليوم عمودية على مدار الجدي، وبعد هذا اليوم يبدأ مشرق الشمس يتحرك نحو الشمال يوما بعد يوم حتى تصبح الشمس عمودية على خط الاستواء ويكون ذلك في يوم ٣/٢١ ويسمى هذا اليوم (بالاعتدال الربيعي).

وتواصل المشارق الانتقال نحو الشمال حتى يوم ٦/٢١ حيث تصل إلى أقصى نقطة لها شمالا حين تشرق من الشرق الجنوبي حيث تكون في هذا اليوم عمودية على مدار السرطان، ويسمى هذا اليوم (الانقلاب الصيفي).

بعد هذا اليوم تعود المشارق لتظهر من ناحية الجنوب حتى يوم ٩/٢٣ (الاعتدال الخريفي) وفيه تكون الشمس عمودية على خط الاستواء، وتستمر المشارق في التحرك نحو الجنوب حتى يوم ١٢/٢١ (الانقلاب الشتوي) وهكذا على مر السنين كل يوم مشرق جديد يختلف عن سابقه مكانا وزمانا ويتبع ذلك كل يوم مغرب جديد.

من ذلك أعرف أن للشمس حوالي ٣٦٥ مشرقا ومثلها من المغارب، ولعل ذلك ما قصده سبحانه حين قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾، ولا شك أنه قسم عظيم، ليس لتعدد هذه المشارق فحسب بل لما ينتج عن هذا التعدد وعن هذه المشارق من فوائد وما يتحقق من ضروريات للحياة.

فمع تغير المشارق على أية بقعة من الأرض تتغير كمية الحرارة وكمية الضوء الساقطة على وحدة المساحات في تلك البقعة وما يتبع ذلك من تأثير على الجو، وعلى اتجاه وسرعة الرياح وعلى دورة حياة النباتات والحيوانات وبالتالي مواسم نضج وجني المحاصيل والفواكه وغيرها من العوامل والمؤثرات التي تتبع تغير المشارق والمغارب بحيث يصعب حصرها وتعدادها.

أما الصورة الثالثة فهي في سورة الرحمن حيث يقول سبحانه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ فبما أن الله سبحانه لا يذكر شيئا في القرآن عبثا أو بدون قصد (تعالى سبحانه

عن ذلك علوا كبيرا)، فلابد أن هناك معنىً محدداً لكلمة المشرقين وآخر لكلمة المغربين، وبالتالي فإنه لابد من وجود مشرقين ومغربين محددين يمتاز كل منهما عن غيرهما من المشارق والمغارب الأخرى.

وحتى لا أطيل عليك فقد شرحنا أنه يوجد حوالي ٣٦٥ مشرقا ومثلها من المغارب خلال العام الواحد فهل من هذه المشارق والمغارب ما هو مميز.؟؟

نعم فعندما تكون الشمس عمودية على مدار الجدي في يوم ١٢/٢١ يحدث في هذا اليوم ما يدعى (بالانقلاب الشتوي)، وفيه يكون أطول ليل وأقصر نهار في نصف الكرة الشمالي، وفيه يبدأ فصل الشتاء، وفيه تكون الأشعة الشمسية أشد ميلا على نصف الكرة الشمالي، فلعل هذا هو أحد المشرقين، ويمكن تسميته **مشرق الشتاء**، وفي يوم ٦/٢١ يحدث (الانقلاب الصيفي) حيث تكون الشمس عمودية على مدار السرطان وفيه يكون أطول نهار واقصر ليل، وفيه يبدأ الصيف في نصف الكرة الشمالي، ولعل في هذا اليوم يكون المشرق الثاني والذي يمكن تسميته **بالمشرق الصيفي** .

هذا يعني أن المشرقين هما إشراقا الشمس يومي ١٢/٢١ وإشراقها يوم ٦/٢١، وهذان المشرقان لا يتكرران خلال العام إلا في هذين اليومين فقط ... وفيهما يتم شروق من أقصى الجنوب الشرقي، وشروق من أقصى الشرق الجنوبي.

ونفس ما ذكرت عن المشرقين ينطبق أيضا على المغربين، وكل هذا الشرح منطبق على نصف الكرة الشمالي، وعكسه يكون في نصف الكرة الجنوبي.

وقد تسألني وتقول: لماذا لا نعتبر المشرق الأول هو يوم ٣/٢١ وهو يوم (الاعتدال الربيعي) والذي تكون فيه الشمس عمودية على خط الاستواء، وفيه يتساوى توزيع الضوء والحرارة على نصفي الكرة الأرضية الشمالي والجنوبي، كما ويتساوى فيه طول الليل والنهار على جميع بقاع الأرض.

وفي هذه الحالة نعتبر المشرق الثاني يوم ٩/٢٣ وهو الاعتدال الخريفي وكذلك يتساوى فيه توزيع الضوء والحرارة وطول الليل والنهار على نصفي الكرة الشمالي

والجنوبي؟؟

جوابي أن سؤالك هذا، منطقي ولعل المشرقين الذين قصدهما الله في هذه الآية هما هذان المشرقان وهذان المغربان.

لكن الذي يُضعف ويدحض هذا الرأي هو قوله تعالى:

﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ [الزُّخرُف:٣٨].

فهذه الآية تقول: إن بين المشرقين بُعد ومسافة غير قصيرة، وبما أن هذا الرأي يقول إن المشرقين يحدثان فوق خط الاستواء وبالتالي لا توجد مسافة ولا بعد بينهما، فهذا يدعم ويؤكد الرأي الأول القائل أن أحد المشرقين هو شروق الشمس من أقصى الجنوب الشرقي عندما تكون عمودية على مدار الجدي، والمشرق الثاني هو شروقها من أقصى الشرق الجنوبي عندما تكون عمودية على مدار السرطان وأن البعد بين المشرقين هو المساقة بين مدار الجدي ومدار السرطان **والله أعلم!!!**

وكما قال السيد قطب رحمه الله في ظلال القرآن:

فإن هذه الإشارة تملأ القلب بنبض غامر من الشعور بوجود الله، حيثما تتوجه وحيثما تلتفت وحيثما امتد نظرك في الآفاق، وحيث الشروق وحيث الغروب هناك الله بربوبيته وبسلطانه وبمشيئته ونوره وتوجيهه وهدايته ..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [١٨]

أبتعدد المشارق والمغارب؟ أم في اختلاف مطالع الشمس زمانا ومكانا (رغم أنك تراها بأم عينيك) تكذبان؟

أم تكذبان بما يتبع هذا التعدد من تغيرات في حالة الجو (وما ينجم عن هذه التغيرات من نتائج) على مدار السنة؟

أم بتغير المواسم الزراعية وتوزيع المحاصيل والثمار على مدار السنة بناء على هذه المشارق؟؟

أم بتغير نشاط وحيوية الإنسان تبعا لهذه المواسم التي تتبع تغير المشارق والمغارب؟

وهل تعلم أن المهندسين الإسلاميين الذين شيدوا قصر الحمراء في الأندلس قد جعلوا فيه فتحات للإنارة بعدد أيام السنة، بحيث تدخل أشعة الشمس من كل منها مرة واحدة في السنة تبعا لمشارق الشمس ومغاربها؟.

كذلك قد صمم مهندسو المعابد في مصر القديمة نوافذ في بعض المعابد (خاصة الأقصر) بحيث تدخل منها الشمس في أيام معينة من السنة، وصمموا تلك النوافذ بزوايا محسوبة ومعتمدة على مشارق الشمس ومغاربها.

بعد كل هذا اعتقد أنك ستقول مع القائلين:

ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب ولك الحمد.

***وعلى درب أفضال الله وأسرار عظمته نسير فنقرأ***

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [١٩]

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [٢٠]

كلمة ﴿مَرَجَ﴾ تعني في اللغة العربية: أرسل – أهمل – خلط.

وقد تعددت وتباينت أراء المفسرين لهذه الآية فمنهم من قال: إن الله سبحانه مرج بحر السماء وبحر الأرض فيلتقيان كل عام أو يلتقي طرفاهما.

وقال آخرون: إن البحرين هما بحر فارس وبحر الروم يلتقيان في المحيط لأنهما خليجان يتفرعان منه، وقال آخرون: إنهما البحر المالح والأنهار العذبة واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان:٥٣] وقالوا: إنه بحر المشرق وبحر المغرب يلتقي طرفاهما، وقيل: هما بحر اللؤلؤة وبحر المرجان.

كما وتشير بعض التفاسير إلى أن الله أرسل المياه العذبة في الأنهار والمياه المالحة في البحار، متجاورة على سطح الأرض ومتصلة الأطراف، ومع ذلك ولحكمة من الله لم يختلط ماؤهما، فبقي المالح على ملوحته، والعذب على عذوبته، وذلك عندما وضع بينهما برزخا أي حاجزا من أجرام الأرض فبذلك منع بغي أحدهما على الآخر حتى لا يختلطان.

ومنهم من فسر البحرين بالمياه الجوفية تخرج عذبة رغم أنها تستخرج بالقرب من مياه البحار المالحة، فعندما نحفر بئرا في الأرض ورغم أنها تكون قريبة من البحر المالح، إلا أننا نجد أن ماءها يخرج عذبا، ورغم اقتراب البحرين، إلا أنه لم يبغ أحدهما على الآخر، ولم يختلط ماؤهما ولم يفقد أي من الماءين صفاته وخصائصه، ويعود ذلك

لوجود برزخ وحاجز وضعه الله بينهما لا تراه العين المجردة لكنه موجود.

أما كلمة ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ فقد فسرها البعض على أنهما لا يبغيان على الناس.

ولتعميق فهم معنى هذه الآية نقول: نعمة أخرى من نعم الله علينا، يُذكرنا بها سبحانه وهي ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ، بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾.

وكعادته سبحانه فإنه يخاطبنا بجوامع الكلم، فبعبارةٍ بسيطةٍ (هي هذه الآية الكريمة) يخبرنا أنه خلق الأرض وسخر لنا كل ما عليها.. ومن هذه المسخرات المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار والخلجان والوديان بل والمياه الجوفية (على اختلاف درجة عذوبتها).

سخر لنا هذه المسطحات المائية لتُسهم بشكل إيجابي ومباشر وغير مباشر في كل مناحي حياتنا ووجودنا على هذه الأرض.

ولو أنك تدبرت شكل الأرض ومساحة سطحها، ونسبة المساحة اليابسة إلى المغمورة بالماء، لعلمت أن يد العليم الخبير وراء هذا التوزيع الجغرافي والمساحي لمسطحات الماء على الأرض، فقد غطى سبحانه حوالي٧١٪ من سطح الأرض بالمياه، وربع مساحتها تقريباً هو المغطي باليابسة، وبما أن يد الله السميع العليم هي التي فرضت ذلك فلا بد أن هذا التوزيع هو الأنسب والأكمل بل ولا يصح غيره.

أضف إلى ذلك أنه سبحانه قد خصص لكل بحر مساحة معينه، وعمقا يختلف عن غيره من البحار، بل ويختلف هذا العمق من منطقة إلى أخرى في البحر الواحد، كما وجعل لكل بحر خصائصه الفيزيائية والكيميائية ودرجة ملوحته ودرجة الحرارة التي تتعرض لها مياهه، وكل ذلك ليتناسب مع المهمة التي هو مسخر لها في منطقته وما حوله من شواطئ وبلاد، ويلبي حاجات الشعوب التي ستعيش على شواطئه، والكائنات الحية التي ستعيش داخله.

أما عن وظائف وفوائد الماء والمسطحات المائية فهي كثيرة لا تحصى، وخير دليل على

ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠] ومما يؤسف له أن المجال هنا لا يتسع لذكر جميع هذه الفوائد.

وسأكتفي بذكر فكرة بسيطة عما يمكن أن تعنيه هذه الآية ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾، وعن البرزخ الذي منعهما أن يبغيان﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾.

ولكن قبل ذلك أقدم لك ملاحظة سريعة: نحن نعلم أن لكل دوله خصوصيتها، حيث تتم المحافظة عليها بواسطة حدود محكمة الضبط، ورغماً عن ذلك فإنه لا بد لهذه الدول من التواصل والتعامل مع غيرها من الدول وخاصة الدول المجاورة لها، عبر مراكز حدودية محكومة بقوانين وأنظمة تلك الدول.

وبالمقابل فإن لكل خلية في جسم الكائن الحي خصوصيتها وصفاتها، ويحفظ لها هذه الخصوصية أنها محاطة بغلاف (جدار سليولوزي في الخلية النباتية وبغشاء بلازمي في الخلية الحيوانية).

لكن لا بد لهذه الخلية أن تتبادل الغذاء والأكسجين والفضلات مع غيرها من الخلايا المجاورة لها، وكذلك مع السوائل من حولها، ومنها الدم والسائل البيني.

كما أن هناك اتصالات بينها وبين الخلايا المجاورة لها، ويتم ذلك بالانتقال والعبور خلال قنوات اتصال تتواجد في جُدُر هذه الخلايا.

وعلى نفس هذا المبدأ العام للحياة، فإن للشعوب كذلك خصوصياتها، وللأفراد خصوصياتهم إلا انه لا بد من قنوات اتصال بينهم يتم عن طريقها ممارسة أنواع العلاقات التجارية والثقافية والاجتماعية... الخ وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة:١٦٤]

ويقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ........﴾ [الإسراء:٧٠]

والذي فرض هذا الناموس وعممه على سائر مخلوقاته ومنها البحار، هو الذي مرج بين البحار ووصل بينها وجعلها تلتقي وتتواصل عبر فتحات وقنوات تسمح بمرور الماء والفلك والحيوانات البحرية فيما بينها، لكن عظمة الله والإعجاز في خلقه أنه رغم هذا الاتصال بين البحار إلا انه احتفظ لكل منها بخصوصيته وبصفاته، وتم ذلك عن طريق برزخ أوجده الله سبحانه ووضعه بين البحرين بحيث يسمح بتواصلهما لكنه يمنع أن يفقد أي منهما خصوصيته، كما لا يسمح لأحدهما أن يبغي على الآخر.

ومما يزيد هذه الصفة إعجازاً هو أن هذا البرزخ غير مرئي (كما هي العمد التي ترفع السماء ولا تُرى) ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ وغير محسوس، رغم أنه يقوم مقام السد المنيع والحاجز الدقيق الذي يمنع اختلاط خواص البحرين بل ويحفظ لكل بحر منهما ما قَدّره الله له من الصفات التي تؤهله لخدمة البيئة بداخله ومن حوله وليساهم في حفظ واستقرار التوازن البيئي على هذه الأرض.

فيبقى الماء المالح على ملوحته، وذلك لان الكثير من الكائنات لا تحيا الا في الماء المالح، وكذلك ليبقى البحر مصدرا ومخزنا للأملاح. ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر:١٢].

ويبقى الماء العذب على عذوبته متوفرا في أماكن متعددة من سطح الأرض ليفي بحاجة الإنسان والحيوان والنبات، وقد خلق الله سبحانه القدر الكافي من الماء العذب خاصة إذا أُحسن استغلاله واستثماره، كما وزّعه بالعدل وبالحق المشروع فوفر لكل شعب من شعوب هذه الأرض حصته المشروعة واللازمة من هذا الماء دون طغيان ولا اغتصاب.

مياه جوفيه ومسطحات مائية موزعة بقدر محسوب، فلكل بقعة من الأرض ما يكفيها وما تحتاجه.

وجعل منه الماء العذب ومنه المالح، وجعل لكل منهما أهميته احتياجاته ونَوّع في محتويات ومكونات كل بحر، وجعل بين البحار التقاءً وتواصلاً تمخر عبابه سفنكم وبواخركم، وأنتم عبرها تتواصلون وتتبادلون سلعكم وحوائجكم.

ورغم هذا المرج (التواصل) بين البحار إلا أن الله سبحانه قد جعل وأوجد بين كل بحرين متجاورين ومتصلين حاجزاً (برزخاً) يحفظ لكل بحر منهما خصوصيته وصفاته، بما يضمن التمتع والاستفادة من هذه المياه، وهذه البحار كل حسب صفاته وحسب خصائصه.

**فبأي من هذه النعم يا معشر الإنس والجن تكذبان؟.**

## ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[٢٢]

يواصل سبحانه تعداد آلائه ونعمائه علينا فيذكّرنا بأهمية البحار ويسرد لنا بعضا من فوائدها حيث يقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾.

الناس كافة يعلمون أن البحر من أكبر وأهم مصادر الغذاء على هذه الأرض، وفي مقدمتها الأسماك التي تتميز بطراوة لحمها ولذيذ طعمها، وفي ذلك قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[النحل:١٤].

كما أنه مصدر كبير للدهون التي تؤخذ من الحيتان ومن بعض الحيوانات البحرية، وكذلك نستخرج منه القواقع وغيرها من الأطعمة البحرية، حتى أن منها ما يسمى بفاكهة البحر. أضف إلى ذلك العديد من الأملاح المعدنية، وخاصة ملح الطعام، وأملاح اليود والفسفور التي يدخل معظمها في صناعة الأدوية، لكن قليلاً من الناس من يعلم أن البحر يعتبر مصدراً للكثير من الحلي ومواد الزينة وتدخل الكثير من منتجاته في مواد التجميل وفي ذلك قال سبحانه: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[فاطر:١٢] ومن هذه الحلي اللؤلؤ قال سبحانه: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾[الحج:٢٣].

ويؤخذ اللؤلؤة من حيوان بحري من فصيلة الرخويات، حيث يصنع هذا الحيوان حبة اللؤلؤة داخل صدفته، ويحدث ذلك عندما يدخل جسم الصدفة جسم غريب كحبة رمل أو كائن بحري صغير وربما مجهري أو حتى واحدة أو أكثر من البكتيريا.

عندها يدافع الحيوان عن نفسه بأن يفرز مادة اللؤلؤة حول هذا الجسم الغريب مكونا حبة اللؤلؤة.

فبذلك يتكون اللؤلؤة عند مرض أو إصابة حيوان اللؤلؤة بمكروه، وفي هذه الحالة ينطبق عليه المثل القائل (مصائب قوم عند قوم فوائد)، أي أن مصيبة

حيوان اللؤلؤة هي فائدة للإنسان وذلك من حيث أنها تتسبب في إنتاج حبات اللؤلؤة.

وقد كان اللؤلؤ مصدر رزق كبير لشعوب الخليج العربي لفترة طويلة من الزمن، خاصة قبل قيام بعض الدول باستزراع هذا الحيوان وحقنه بما يحثه على صنع حبات اللؤلؤة، وقبل ظهور النفط والغاز في تلك البلاد.

كذلك سخر لنا سبحانه حيوان المرجان (وهو من فصيلة جوفيات المعي يعيش مُثبّتا على صخور البحر ويكثر هذا الحيوان في البحر الأحمر ولعل اسم هذا البحر وقد اشتُق من لون المرجان (خاصة الأحمر منه) وذلك لتوافر هذا الحيوان فيه).

يصنع هذا الحيوان لنفسه هيكلا، ومن هذا الهيكل يتكون المرجان بكل أشكاله الجميلة وبكل ألوانه الزاهية.

ولا ننس حوت العنبر الذي يفرز لنا عطر العنبر، ويحدث ذلك إذا ما أصيب هذا الحوت بمرض في جهازه الهضمي، عندها يفرز مادة العنبر (وهي مادة صلبة) تخرج مع فضلاته.

ولعلك تلاحظ هنا أن كثيرا من الفوائد التي تعود على الإنسان يكون سببها اعتلال صحة بعض الأحياء مثل حيوان اللؤلؤ وحوت العنبر.

!! لله في خلقه شؤون !!

كما وتكثر في البحر أنواع من الطحالب والأحياء البحرية التي تعتبر مصدراً للكثير من مواد التجميل ومركبات الزينة التي تستخدمها السيدات، كما يمكن استخدامها كأسمدة وكأعلاف.

أضف إلى ذلك أن هذه الطحالب تقوم بما يعادل ٨٠٪ من عملية البناء الضوئي على سطح الأرض، علاوة على ذلك فإن البحار تُعتبر من اكبر مصانع الكربوهيدرات والأكسجين على الأرض، كما أنها أكبر عامل تنقية للهواء الجوي من غاز ثاني أكسيد الكربون.

ولعلك تلاحظ أن الله سبحانه قد ذكر اللؤلؤ والمرجان مباشرة بعد ذكر عبارة ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾، وهذا يجعلني أجزم بأن البحرين المشار إليهما في هذه الآية هما بحران مالحان، لأن حيواني اللؤلؤ والمرجان لا يعيشان إلا في المياه المالحة.

مع العلم أنه يمكن التقاء ماء عذب بماء عذب كما يحدث في التقاء الأنهار العذبة مع بعضها (النيل الأبيض مع النيل الأزرق في السودان مثلا). وقد يصب نهر عذب في بحيرة عذبه، كذلك يمكن التقاء الماء العذب بالماء المالح (كما تصب كافة الأنهار في البحار المالحة)، وكثيرا ما يلتقي بحران مالحان عبر مضائق وقنوات كما هو حادث بين معظم البحار وبعضها وبينها وبين المحيطات.

## ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٢٣]

بعد كل هذا، بماذا يا معشر الجن والإنس تكذبان؟

أبنعمة اللؤلؤ(*) أم بنعمة المرجان أم بنعمة مرض حيوان اللؤلؤ النافع لكم تكذبان؟.

أم بهذه الزينة الطبيعة (التي خلقها الله لكم) تكذبان؟؟.

وفي وضع كهذا فلا أظن أن أياً منكما من ينكر أو يكذب بأية من هذه النعم.

---

(*) اللؤلوة الكبيرة تسمي دانة.

اللؤلؤة المتوسطة تسم حصة.

واللؤلؤة الصغيرة تسمي قماشة.

ومنها اشتقت بعض الأسماء الخليجية.

## ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾[٢٤]

لا يزال ذكر نعم الله يتوالى تترى، فبعد أن بَيَّن لنا سبحانه البحار والتقاءها، ووجود البرزخ (الحاجز) بينها، أورد سبحانه مثالاً على نعمها وخيراتها وهو هذان المرَّكبان الكريمان وهما اللؤلؤ والمرجان، ولكنه لم يذكر لنا أن البحر مصدر كبير للغذاء ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[النحل:١٤] لان ذلك قد يكون من نافلة القول، فذلك لا يخفى على احد، ثم واصل سبحانه تعداد نعمه وآلائه التي أودعها هذا البحر فجعله مصدر رزقٍ للكثيرين من البشر، وميداناً واسعاً لأعمال كثيرة، ومساهماً كبيرا في مكافحة البطالة وإتاحة فرص العمل لليد العاملة من بَحّارة وعمال موانئ ومستخدمين يعملون في المرافئ وعلى البواخر التي تمخر عباب البحار.

كما أن البحر يعتبر أكبر وسيلة نقل في العالم، فرغم أن الماء سائل ومائع، إلا أنه يحمل الجواري المنشآت وهي سفن كالجبال، تَطال عنان السماء بضخامتها وبعلوها فوق سطح البحر، ينطبق عليها المثل القائل: (علم على رأسه نار) تحمل وتنقل صادراتنا وتجلب لنا وارداتنا، كما وتنقل ملايين البشر من مسافرين وسائحين في أرجاء هذه المعمورة، ومن هذه السفن ما هو خاص بالأبحاث العلمية وبخاصة المائية منها. كما أن منها ما هو خاص بنقل المواد الأولية، والآلات اللازمة لثرواتنا الصناعية، والزراعية.

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾[النحل:١٤].

سمّاها سبحانه المنشآت، نِعْمَ الاسم فهو اسم على مسمى، فهي جبال من الحديد ومن الخشب، تحمل مئات آلاف الأطنان من البضائع تجوب بها بحار العالم متنقلة من بلد إلى آخر ومن ميناء إلى آخر.

تجري الأيام متواصلة بدأب وعزم لا يفتران ولذلك سماها سبحانه:

﴿ٱلْجَوَارِ﴾ وفي ذلك قال سبحانه: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١].

والجارية مفرد جوار.

قال الشاعر ملغزاً في السفينة

الماء يغرقها والنار تحرقها والفأر يخرقها واللص يسرقها

وتشبيه هذه السفن بالجواري هو تشبيه دقيق، فنحن نعلم أن الجارية هي المرأة المملوكة، وهي دائمة الجري والسعي لتلبية مطالب سيدها، وكذلك هذه السفن فهي دائمة الجري في خدمة مالكها وفي خدمة البشرية كافة.

وانظر الدقة والبلاغة في القرآن العظيم حين يقول سبحانه ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾، ولم يقل (والجوار) بل نسبها لذاته العلّية، وما ذلك إلا لأن مبدأ جريانها سواء أكان بطاقة الرياح أم بطاقة الوقود فالمبدأ واحد حيث أن مُصَدِّر هذه الطاقات وخالقها ومُسخرها هو الله، كما وأنها تمخر عباب البحر محمولة بقانون من قوانين الله في الكون هو قانون الطفو، أضف إلى ذلك أن طريقة صناعتها جاءت بوحي من الله، فقد أوحى سبحانه إلى نوح بذلك حيث قال سبحانه ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [المؤمنون:٢٧].

وكيف لا يكون هذا البناء وهذه الصنعة بإيحاء من الله وهي التي سوف تجري وتسير على سائل مائع هو الماء؟ وهل يدور بخلد الإنسان (خاصة في تلك الأيام الخوالي) أن هذه المسطحات المائية التي لا تستطيع حمل حجر أو مسمار يمكن أن تحمل منشآت وبواخر بكل أوزانها وبكل ما تحمله من أثقال وأحمال؟.

وحمّال أثقال البريّة قادر ويعجز إن حملته نصف درهم

يسير بأيدى الناس شرقاً ومغرباً فيسري بلا رجل له سير أرقم

هل كان ذلك ممكنا بغير هدايةٍ ووحيٍ من الله؟

ولعل ذلك هو سبب، أو أحد أسباب قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ....﴾.

أليست سرعة الرياح واتجاه حركتها ومساحة الشراع وارتفاعه فوق هذه المنشآت، كلها عوامل تحدد سرعة هذه المنشآت ؟.

ولو أننا سألنا أنفسنا: من الذي أوجد هذه الرياح ومن الذي يتحكم في سرعتها وفي اتجاهها؟ أليست هي يد الله العليم الخبير؟

حتى السفن التي تسير بالنفط، فمن أوجد لها هذه المادة الاستراتيجية؟ ومن أودع فيها خاصية الاحتراق وقدرة تحويل الطاقة الكيميائية إلى طاقة حركية؟ أليس هو الله؟ أما يكفي ذلك سببا أن ينسب سبحانه هذه المنشآت لذاته العلية؟

**لكن ما هي المنشآت ؟ ولماذا سماها سبحانه بهذا الاسم ؟**

فكلمة منشأة توحي ببناء ضخم قام على جهد عدد كبير من الخبراء والمهندسين والعمال، وله أهمية اقتصادية بالغة في حياة الناس ومعاشهم.

وهل ثمة ما هو أجدر بهذا الاسم من هذه البواخر التي تخالها جبالاً عائمةً فوق البحار، جبالٌ تتهادى فوق صفحة الماء تفصح وتعلن بجريانها هذا عن عظمة الله وقدرته؟

جبالٌ تكاد تكون مُدناً عائمةً على سطح الماء، تجري في خدمة الإنسان مُسبّحةً ربها وخالقها وملبيةً لمشيئته.

ويفرق بعض المفسرين بين السفن والفلك والمنشآت، فقالوا أن المنشآت هي التي ترفع القلاع والشراع (وأتصور أن هذا التمييز غير دقيق لأن كل السفن في الماضي لم تكن لتسير المسافات الطويلة وهي محملة بالأوزان الثقيلة من البضائع والركاب إلا إذا كان لها شراعٌ مرفوعٌ وقلاعٌ مشروعٌ عليها يواجه الرياح ويستغل طاقاتها).

وكلمة منشآت لم تتكرر في القرآن سوى مره واحدة (هنا في هذه الآية الكريمة).

كما يُميِّز البعض بين السفن والفلك، فيقولون أن الفلك هي السفن، لكن خلال مرحلة التصنيع التي تكون في بداية وأثناء عملية البناء حيث قال سبحانه مخاطبا نوح ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ [هود:٣٧].

لكن بعد تمام صنعها فإنها تسمى السفن حيث قال سبحانه: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت:١٥].

وقد استعرضت كلمة الفلك في القرآن فوجدت أنها مكرره ٢٣ مرة أما كلمة سفينة فقد تكررت ٤ مرات، لكنني لم أجد ولم ألحظ هذا التمييز بين الفلك والسفن.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [٢٥]

آلاء كثيرة منها هذه المسطحات المائية بكل ما أودعه سبحانه فيها من خصائص (من عمق وكثافة ومساحة)، وبما فرضه لها من نواميس وقوانين للطفو وللحركة.

وهذه السفن العملاقة، التي تمخر عباب البحار وكأنها جبال عائمة تنقل وتحمل البضائع والركاب.

وهذه الرياح ذات الطاقة الحركية العجيبة والتي تدفع السفن الشراعية بما تحمله من آلاف الأطنان من البضائع.

أضف إلى ذلك ما سخره سبحانه من مصادر للطاقة مثل طاقة البخار والنفط والذرّة تحرك هذه الجبال العائمة بما ينفع الناس.

فبأي من هذه الآلاء تكذبان ؟

## ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [٢٦]

ولتفسير هذه الآية بدأ العلماء بتوضيح معاني كلماتها على النحو التالي:

﴿كُلُّ﴾: تعني جميع الأحياء بدون استثناء حتى أن الموت سوف يطال أصل السماوات.

﴿مَنْ﴾: هي إما للتغليب أو للثقلين (الإنس والجان).

﴿عَلَيْهَا﴾: ويعود الضمير إلى الأرض حيث في أوائل هذه السورة قال سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾.

﴿فَانٍ﴾: هالك وميت وزائل.

مجمل معنى هذه الآية أن كل من على الأرض سوف يهلك، وكذلك كل من وما في السماوات لا بد هالك في يوم من الأيام، ومما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]

فالهلاك والموت هو المصير المحتوم لكل حي، ولن يبقى سوى الله الحي القيوم الباقي، ولذلك فعندما تقرأ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تقف بل أتبعها بالآية التي تليها ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

وعن ابن عباس أنه قال: عندما نزلت هذه الآية قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فأنزل سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، فأيقنت الملائكة أنهم هالكون أيضا.

وكما تلاحظ فقد بين لنا سبحانه في تسلسل رائع بعضا من أفضاله ونعمائه علينا في هذه الحياة الدنيا التي تنتهي دائما بالنهاية المحتومة. وتأكيداً لذلك فقد جعل سبحانه الحقيقة الوحيدة التي تلد مع الطفل هي أنه سوف يموت وبذلك فقد جعل الموت نهاية كل حي.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُمَر:٣٠] ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فيقرر سبحانه حقيقة الفناء لكل

من على هذه الأرض.

ناموس آخر وُسَّنةٌ أخرى من سنن الله في الأرض أنه بعد هذه الحياة (ومهما طال أمدها) فلا بد من الفناء ولن يبقى في هذا الكون حي سوى الواحد الديان.

ولقد درسنا في علم الأحياء أن للكائن الحي صفات تميزه عن الجمادات منها: التنفس، التغذي، النمو، التكاثر، الحركة، الإحساس(للحركة وللإحساس درجات تختلف من كائن إلى آخر) وعندما تناولت (في كتابي آيات قرآنية في الآفاق والإنسان الجزء الأول) الآية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القصص:٧٢]. أضفت إلى صفات صفة أخرى هي احتواء كل كائن حي على الساعة البيولوجية، وبذلك فهذه الساعة موجودة في جسم كل كائن حي.

وهنا وعند تناول الآية: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أُضيف صفة أخرى للأحياء وهي الموت، فكل من يعيش على هذه الأرض لابد أنه سيموت.

ومن الطريف أن بعض العلماء يقول: أن الموت لم يظهر على الأرض إلا بعدما ظهر الجنس والتكاثر التزاوجي الجنسي، فمثلا الكائنات الحية الدنيا على سلم الحياة من نباتات أو حيوانات وكذا الأوليات والطلائعيات، فهذه تتكاثر بطريقة لا جنسية (بطريقة الانقسام)، فهذه الكائنات عملياً لا تموت، لان المادة الحية عندما تنضج وعندما يريد الكائن التكاثر فإن هذه المادة تنقسم إلى قسمين كلاهما حي ثم إلى أربعة وهكذا فهي بذلك لا تموت بل تبقى حية.

لكن الأمر في حالة التكاثر التزاوجي الجنسي يختلف كليا، حيث تضع الأنثى البيض، ثم يخصبه الذكر بالحيوانات المنوية وفي هذه الحالة يتم التكاثر الجنسي إما عن طريق البيض أو عن طريق الولادة وفي كلتا الحالتين وبعد فترة من الزمن تطول أو تقصر (حسب نوع الكائن) فإن الأبوين يموتان، ويحل محلهما نسلهما الذي يكرر نفس الدورة ثم يستسلم إلى الموت المحقق وتتوالى هذه الدورة كما يتوالى الليل بعد النهار.

وخير دليل على ذلك ذكر النحل الذي يموت مباشرة بعد تلقيح الملكة.

واضح أن الكائنات التي تتكاثر تزاوجيا تعيش لفترة من الزمن حتى تكتمل دورة حياتها، وعندما يحين أجلها فإنها لا تتأخر لحظة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٤].

لكن عندما تقوم الساعة فسوف يسود ناموس آخر، فيطوي الفناء جميع الكائنات ابتداء من الأوليات والطلائعيات، حتى أرقى الكائنات الحية، كما وسيطال مسلسل الموت هذا حتى الملائكة ولن يبقى في هذا الكون حي سوى خالق هذا الكون.

وكلمة ﴿مَنْ﴾ تستعمل في اللغة للعاقل، أما لغير العاقل فتستعمل كلمة (ما)، لكن في القرآن الكريم فتستعمل ﴿مَنْ﴾ أحيانا للعاقل وأحيانا أخرى تنزل منزلة غير العاقل، وأحياناً أخرى ينزل غير العاقل منزلة العاقل وهذا من الإعجاز في القرآن الكريم ومثاليه الآية الكريمة ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]. استعمل لها أولئك وهي غير عاقلة لأنه أنزلها منزلة العاقل.

قلنا أن الموت سيطال جميع الكائنات الحية، ولست أدري هل سيطال الجمادات أيضا أم لا؟.

فإن كان الموت من صفات الأحياء فكيف إذن تموت الجمادات؟ (إن كان لها موت).

نعلم أن للدنيا سننا وقوانين، وكذا للآخرة سنن ومواصفات وقوانين أخرى غير قوانين الحياة الدنيا.

فالأحياء في الدنيا وربما الجمادات أيضا لا تستطيع أن تتلاءم أو تتوافق مع نواميس الآخرة، لذلك فلا بد من فنائها وإعادة خلقها. على نحو يناسب نواميس الآخرة. ولهذا السبب سوف يموت كل شيء ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ لتُعاد صياغته بما يلائم الحياة الجديدة (الحياة الآخرة)

ولأن دار الدنيا هي دار ابتلاء وعمل فقد خلق الله سبحانه الإنسان على نحو يتلاءم

مع معطياتها، ولأن الدار الآخرة دار جزاء لذلك سوف يعاد خلقه بما يتلاءم مع نعيم الآخرة أو عذابها.

## ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [٢٧]

إن الله حي لا يموت، ولذلك فعندما ندعوه فإننا نقول: يا حي يا قيوم، وذلك لأنه الذي يبقى حيا عندما تفنى جميع الخلائق.

أما كلمة ﴿وَجْهُ﴾ فلعها تعني ذاته ووجوده عز وجل لأن ذات الله هي التي تبقى.

وقالوا عن ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ إنها تعني: أنه صاحب العظمة والكبرياء والاستغناء المطلق عما سواه.

أما في ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ فقالوا: إنها تعني صاحب الفضل التام، وذلك لتجاوزه عن سيئات البشر، ولإحسانه وإكرامه للطائعين منهم، كما أنه مُكرَم ومُنزَه عن كل أمر لا يليق به وبمقامه!! سبحانه وتعالى.

ولتعميق فهم هذه الآية الكريمة فلا بد من تَفَهُم معنى مفرداتها، فكلمة ﴿وَيَبْقَىٰ﴾ هي الفعل المضارع من بقي، وهذه في اللغة العربية تعني دام وثبت وحفظ.

والحياة الباقية هي الحياة في الآخرة، وهي الحياة الدائمة الأبدية التي لا انقطاع لها، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى:١٧].

كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:٧٣] وقال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١] وقال: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [القصص:٦٠].

والأبقى هو الأدوم، وما عند الله هو الأدوم.

أما ﴿وَجْهُ﴾ فهي من وجيه وشريف وذو الجاه، ومنها وجهاء ويقال لسيد القوم وشريفهم: ﴿وَجْهُ﴾ ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩].

وهي هنا تعني ذات الله العلية المتصفة بالعظمة والجلال.

وكذلك فقد قال سبحانه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٧٢] وقال ايضا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٩].

وكما تلحظ فإن المعنى في كل هذه الآيات أن وجه الله هو ذاته ووجوده عز وجل.

وفي اللغة العربية يذكر الجزء ويراد به الكل: أي ﴿وَجْهُ﴾ الله تعني ذاته.

أما كلمة (الباقي) بالإضافة إلى أنها صفة من صفات لله عز وجل فهي أيضا اسم من أسمائه الحسنى.

أما ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ فقد وردت في القرآن الكريم مرتين فقط وهما في هذه السورة بالذات.

و﴿ٱلْجَلَٰلِ﴾ هو العظمة والقوة، فعندما يجاوز الشيء حداً في النواحي المحمودة التي تُضفي على أصحابها شيئا من القداسة والتبجيل يقال له عندها انه جليل.

والجليل هو اسم من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته الفُضلى.

أما ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فهذه الكلمة (أيضا) ورد ذكرها في القرآن الكريم مرتين فقط، وفي هذه السورة بالتحديد، ولهذه الكلمة عدة معان، منها: العطاء، الجود بأريحية وبدون مِنةَ، كما وتعني العزة والفضل، وهي مشتقة من الكرم، والكريم هو أحد أسماء الله الحسنى.

ولو تمعنت في هذه الآية لوجدت أنه يصعب فهمها ويصعب تصورها، فكيف يمكن لنا أن نتصور هذا العالم الذي ينبض بكل أنواع الحياة والحركة والحيوية، وقد اعتراه

الفناء وانتفت عنه جميع مظاهر الحياة وغشيه السكون والعدم؟

هل يمكنك أن تتصور نفسك في حال كهذا؟

لا شك أنه صعب وعسير، فأنت إن وجدت نفسك في مكان معزول وحيدا فلا بد أنه سيعتريك شعور بالخوف وبالفزع والمهابة!.

فكيف بك لو وجدت نفسك وحيداً في هذه الأرض وقد أخذ الموت والفناء جميع الأحياء من حولك؟ ويطويان كل روح، ويحيلان كل حركة إلى سكون كسكون القبور؟ كيف تتصور حالك في وضع كهذا؟؟

لذلك فلتحمد ربك أنك لن تمر بابتلاء مثل هذا.

ومما تجدر الإشارة إليه أننا نستخدم عبارة (البقاء لله) في عزائنا لأهل الميت اعترافا منا بأنه لن يبقى في هذا الكون حي إلا الله، فلا تحزنوا يا من فقدتم عزيزاً لأن الباقي هو الله فقط.

ولم يكتف سبحانه بأن أخبرنا أنه الباقي وجهه وذاته، بل أضاف إلى ذاته العلية اسما من أسمائه الحسنى، وصفة من صفاته الفضلى وهي (ذو الجلال والإكرام) ذو العظمة والمهابة ذو العطاء والطَول.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [٢٨]

أين هي الآلاء هنا وسبحانه يخبر بأن الكل سوف يموت ويفنى؟؟ أين هي والجميع من عاصٍ وطائع سيكون لهم نفس المآل ونفس المصير؟ الموت والفناء!!

لكنك لو تدبرت هذه الآية بعقل نيّر لوجدت أن الآلاء والنعم، تكمن هنا في أجّل صورها وأوضح معانيها، حيث تكمن فيها العدالة الإلهية المطلقة التي لا تفرق بين الناس والتي لا ينجو منها صالح ولا ظالم، فمن العدالة أن يموت الجميع، ومن العدالة أن يُبعث الكل بعد الموت، وبعد ما يتساوون في مصير الموت والفناء، سيتساوون أيضا في مصير البعث، فالكل سوف يُبعث حيّاً، والكل سيقف بين يدي الله... لكن في هذا الموقف سوف يختلف المصير من شخص إلى آخر، بل قد لا يتساوى شخصان في نفس المصير، فمنهم من يدخل الجنة ويتمتع بنعيمها (بما عمل من خير في الدنيا) وسيكون قدر النعيم على قدر ما قدم من خير ومن عمل صالح، وفي هذا لا يتساوى اثنان من البشر، فكما أن البصمات لا تتشابه، فإن المصائر وأن كانت في الجنة فهي غير متشابهة فلكل بقدر ما قدم وبقدر ما ضحى (كل على قدر الزيت فيه يضيء). قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدّثر:٣٨].

ومنهم من يُقذف به في النار ويكتوي بعذابها جزاء ما اقترف من معاصي وما انتهك من حرمات الله، ومع ذلك فلكل منهم كفل من العذاب على قدر معصيتهَ، ولكل منهم دركة في جهنم على قدر ذنوبه.

أليس في هذا العدل نعمة وآلاء؟ أليس في ذلك زجر للعصاة ومنع لهم من إرتكاب المعاصي واجتراح الذنوب؟

أليس في هذا العدل دافع لعمل الخير وحض على طاعة الله ؟؟.

أليس في اطمئنان الإنسان (خاصة المظلوم والضعيف) أن هناك من سيأخذ له حقه ولو حتى بعد حين (في الآخرة)؟ أليس في ذلك آلاء ونعم؟.

أبهذه العدالة وبهذه المساواة يا معشر الإنسن والجن تكذبان؟؟

﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [٢٩]

قال المفسرون إن في هذه الآية إخباراً وإعلاناً واضحاً وصريحاً أن أهل السماوات وأهل الأرض في افتقار واحتياج دائمين لله تعالى ولرحمته ولعطائه، فهم جميعا وبدون استثناء يسألونه، وكل يسأل حاجته.

فأهل السماء مثلا يطلبون منه العون، ويسألونه الرحمة فقط لكنهم لا يسألونه الرزق، بينما أهل الأرض يسألونه الاثنين معا الرحمة والرزق.

ويقول مفسرون أخرون: إن أهل الأرض يسألون الاثنين معا، وكذلك الملائكة تسأل الاثنين معا لكن سؤال الملائكة ليس لهم بل لأهل الأرض، فأهل السماء وأهل الأرض يسألون الله لأهل الأرض ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ .....﴾[غافر:٧ – ٩]. ومنهم من قال إنهم يسألونه العون على العبادة وعلى الطاعة.

وفي حديث الرسول (ﷺ) أن أحد الملائكة له أربعة أوجه وهي:

أ- وجه كوجه الإنسان وبه يسأل الرزق لبني آدم.

ب- وجه كوجه الأسد وبه يسأل الرزق للسباع.

ت- وجه كوجه الثور وبه يسأل الرزق للبهائم.

ث- وجه كوجه النسر وبه يسأل الرزق للطير.

وقبل أن أُعقِب وأضيف توضيحا وفهما أريد أن أبين معنى سأل، ويسأل والسؤال. لورود أكثر من معنى لها في اللغة وفي القرآن واليك بعض الأمثلة:

أ- سأله يعنى استنجده واستفسر منه ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]+ [الأنبياء:٧] وقال:﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى﴾ [البقرة:٢٢٢]

وقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء:٨٥] وفي القرآن الكريم العديد من الآيات من هذا القبيل.

ب- وقد يكون معناها السؤال والاستعطاء وطلب الصدقة مثل سؤال الفقير ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[الضُحى:١٠] وقال: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات:١٩].

ت- وقد يكون معناها استرجِعوا مثل: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ [الممتحنة:١٠].

ث- وقد يكون معناها المحاسبة والجزاء مثل: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٣]وقال: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[سبأ:٢٥]

ج- وقد يكون معناه هو طلب شيء مثل العون أو المغفرة أو الرحمة أو المساعدة... الخ مثل: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[إبراهيم:٣٤] وقال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[يس:٢١].

أما في هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقد يكون لها معنيان.

١) فقد يكون هناك استفسار واستخبار من أهل السماوات والأرض عن شيء ما، وعن علم ما، فهو الذي ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وقد يكون السؤال عن الشأن القائم، فيقول لهم سبحانه أنا كل يوم في شأن فيخبرهم أن الحال متغير ومتبدل.

٢) وقد يكون معنى يسأله هنا هو الطلب منه، وما أكثر ما نطلب من الله وما أكثر ما نحتاجه، ولذلك يقول ﷺ: إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله.

فنحن نحتاج رحمته ومغفرته وعطاءه ورزقه وعونه في كل أمورنا، من قبل الولادة إلى ما بعد الموت.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون:١٤].

فنحن بذلك بحاجة إلى عون الله ورحمته ونحن في طور النطفة والعلقة، وكذلك ونحن أجنة في الأرحام ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم:٣٢].

وما أحوجنا ووالدتنا لرحمته تعالى أثناء عملية الولادة وأثناء آلامِها المبرحة، يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ [غافر:٦٧].

فنحن في حاجة الله سبحانه منذ تكوننا في بطون أمهاتنا وبعد ولادتنا حتى اللحد، بل بعد اللحد وبعد الموت تكون أشد حاجة لرحمة الله وعطائه منا ونحن في الحياة الدنيا.

الكل يحتاج رحمة الله ويحتاج عونه لكن لكل حاجته، فمثلا الإنس تكون حاجته غير الجن، وأهل الأرض غير أهل السماء، والمريض غير المعافى، والفقير غير الغني، والمزارع غير الطبيب غير المهندس غير العامل... الخ. لكل من هؤلاء ومن غيرهم حاجات عند الله، وكلهم منوط وجوده واستمرار حياته برحمة الله وبعطائه، فلا أحد في هذا الكون يستغني عن عون الله لحظة واحدة، بل إن الفرد الواحد تختلف حاجاته من ظرف إلى آخر، ولو أعطى سبحانه كل الخلق في السماوات وفي الأرض كل ما يحتاجونه وكل ما يسألونه لما نقص من ملكه شيء.

يا قاضي الحاجات يا رب !!!

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ فقد قيل: إن هذه الآية نزلت في يهود حيث قالوا: إن الله تعالى لا يقضي ولا يعمل يوم السبت شيئا، فهو في هذا اليوم في إجازة، فكانت هذه الآية رداً على أعداء الله وتكذيباً لهم، فالله سبحانه في كل ساعة وفي كل لحظة قائم على شؤون خلقه، يرعاهم ويهتم بأمرهم، لا يشغله شأن عن شأن، فهو يُغير في أحوالهم حسبما

تقضيه مشيئته عز وجل، هذه المشيئة المبنية على حكمة بالغة تعرف كل ما في الكون، فلا يشغله شأن عن شأن.

فالله سبحانه في كل لحظة يُحدث أمورا ويُجدد أحوالا، وكلها شئون يُبديها ويظهرها ولا يَبتدئها ولا ينشئها، لآن القلم قد جف على ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة، فهي أمور مقدرة في علم الله الأزلي مسطورة في اللوح المحفوظ، لا تعد ولا تحصى، ففي كل لحظة تنفذ مشيئته سبحانه في خلقه، فيغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويخفض قوماً، يجيب داعياً، ويحيى ويميت، يعز ذليلاً ويذل عزيزاً، يرزق محتاجاً،يفقر غنياً ويغني فقيراً، يمرض سليماً ويشفي مريضاً... الخ.

ومن العلماء من فسر الآية: على أن الدهر عند الله تعالى يومان، اليوم الأول الحياة الدنيا على امتدادها وفيه الأمر والنهي والأمانة والإحياء.

وثانيهما هو يوم القيامة، فشأنه سبحانه في هذا اليوم الجزاء والحساب.

وفي محاولة لإضافة بعد أعمق لمعنى هذه الآية أبدأ بتعريف معنى كلمة شأن حسب معجم اللغة وحسب القرآن الكريم، فلها عدة معان منها:

١- الشأن وجمعها شؤون وهي الخطب العظيم.

٢- وقد يكون معناها الحال والأمر (وما تكون في شأن).

٣- وقد يكون المنزلة والقدر (إنه رجل ذو شأن).

٤- وقد تكون الحاجة (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم...).

٥- وقد تكون الحالات التي نعتني بها بفئة من الناس مثل شئون الطلبة، والشؤون الاجتماعية.

عرفنا في أكثر من موقع أن للكون نواميس لا يحيد عنها ومن هذه النواميس الحركة والتغيير والتبديل.

ولو توقفت حركة الكون وما فيه لما كان هو الكون الذي نعرفه، فالقمر يدور حول

نفسه وحول الأرض ومع الأرض حول الشمس، وكذلك الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس ومع الشمس حول المجرة، والشمس تدور حول نفسها وحول المجرة، وكل الأجرام السماوية بما فيها المجرات تجري وتدور بحسبان دقيق فرضه وقدره الله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزُمَر:٥].

كذلك الدم في العروق يدور، الإلكترونات حول النواة تدور، والماء في دورته الطبيعية من البحر إلى السماء ثم إلى الأرض ومنها ثانية إلى البحر يدور ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[المؤمنون:١٨].

والعصارة في النبات تدور، والرياح حامله السحب والأمطار والأرزاق، ومزيلة للتلوث تدور ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر:٩].

كما وأن الحكم من يد إلى يد ينتقل ويدور ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٤٧].

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦].

وقالوا في المثل: (لو دامت لغيرك ما أتصلت اليك)

وأناس ترزق وأخرون يغنون وغيرهم يفقر والمال يدور قال تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر:٧]. ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد:٢٦] ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾[النجم:٤٨]﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[النور:٣٢].

وأقوام يُنعم عليها سبحانه بالعزة وأخرى يبتليها بالمرارة المذلة ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ

﴿مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦].

وأناس يولدون وآخرون يموتون ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾[آل عمران:١٥٦] ومواد ميتة ومعدنية وجامدة تتحول إلى مواد حية، وأخرى حية تتحول إلى ميتة ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ [آل عمران:٢٧] .

ويتوالى الشتاء والصيف والليل والنهار ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج:٦١].

ومن الناس من يمرض ومنهم من يشفى ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ [الأنعام:٤٦].

هذا نزر يسير من التحولات والتغيرات التي تحدث في كل لحظة، ومثل هذه التغيرات ملايين الملايين فكيف لا يكون سبحانه ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾.

مثل بسيط أسوقه لك، أنت ربٌّ أسرة صغيرة وراع لها ولا حول لها، وقد لا تكون جميع أمورها تحت حكمك وبين يديك، وقد تكون راعياً ناجحاً (إن شاء الله)، أو فاشلاً (لا سمح الله) ورغم ذلك فأنت دائم التفكير والانشغال والتدبير والعمل لرعاية شئون أسرتك، كل لحظة لك شأن وكل لحظة مضطر لتغيير قراراتك وتبديل خططك، خاصة إذا اعترضك عارض لم يكن في الحسبان، ولعل النوم يهجر عينيك ولا يفارقك الأرق.

هذا شأن عائلة صغيرة، وربما لا تستطيع أن تدير وتؤمن كل شؤونها كما يجب، فكيف بالله العزيز الحكيم القدير الذي يرعى ويدبر كل هذا الكون كل ما فيه من أحياء وجمادات، كل هذا الكون من الذرة إلى المجرة؟ ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾[يونس:٦١]. رب عظيم هل ينام أو

يغفل؟ ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ رب عليم يرعى ويتابع كل حامل وكل واضعة حِملها ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾[فاطر:١١] ولا تنبت ورقة شجرة ولا تسقط إلا بعلمه ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[الأنعام:٥٩] ولا تصيب الإنسان حسنة أو سيئة إلا بعلمه وبإذنه ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النساء:٧٩] ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[التغابن:١١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[فاطر:٤١] ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[الحج:٦٥].

ألا يكون من يتولى شؤون هذا الكون ورعايته ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ ؟

أنا أقول أن عبارة ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ هنا مجازية، ليذكر لك الوقت والزمن، لكن الحقيقة أنه في شأن متغير ومستمر في كل ثانية، بل هو في كل فمتو ثانية في شأن جديد، (في عام ١٩٩٩ حصل العالم العربي المصري على جائزة نوبل في الكيمياء حيث بحث في كيفية تحطيم الروابط الكيميائية، ثم إعادة تكوينها خلال فترة زمنية تتراوح ما بين ١٠٠-٢٠٠ فمتو ثانية، وذلك بتوجيه نبضات من أشعة الليزر على التفاعلات الكيمياوية وجعل الزمن بين كل نبضتين هو ١٠٠-٢٠٠ فمتو ثانية وتتبع وسجل التغيرات التي تحدث على الذرة وعلى الكتروناتها خلال هذا الزمن القصير الذي يساوي واحد على ألف مليون مليون من الثانية وخرج بنتائج مذهلة علميا ومفيدة عمليا).

إذا كان عالم إنسان على هذه الأرض استطاع أن يحدث ويتتبع تفاعلات زمنها (كما ذكرت) فمتو ثانية، فالأولى أن الله خالق هذا العالم وخالق هذا الكون أن يغير شئوون هذا الكون في كل آتو، آتو ثانية (والاتو ثانية هي اصغر وحدة زمنية تعامل معها الإنسان، وهي تساوي واحد على مليون مليون مليون من الثانية).

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ والله الحسيب، المحصى، ذو التسعة وتسعين اسما، وهي التي سمح

لنا أن نعرفها، وهناك غيرها لا تحصى ولا نعرفها، فقد قال الرسول الكـريم في دعائـه: "أسالك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحداً مـن خلقـك، أو أنزلتـه في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك". وقال تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]. وهذه أدلة على أننا لا نعرف أسماء الله جميعها.

فعندما يمارس سبحانه فاعلية هذه الأسماء على عبادة، وعلى الكون (السماوات والأرض) فلا بد أنه سيكون كل لحظة في شأن.

## ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٣٠]

بأي من الآلاء المذكورة في هذه الآية تكذبان؟

أبحاجة الإنس والجن الدائمة لرحمة الله وعطائه الذي لا نستغني عنه لحظة واحدة؟.

أم بسؤالكم الدائم لرزقه وعفوه في الدنيا والآخرة؟.

أم بقضائه لحاجة كل محتاج ووقوفه مع كل مضطر وبنصرته لكل مظلوم؟ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢].

أم برعايته لهذه الأرض ولهذا الكون ولكل ما فيهما وما عليهما مـن مخلوقـات، يرعـى شئونهم، ويدبر أمورهم، ويُقلّب أحوالهم في كل يوم وفي كل لحظة لما فيه خيرهم وخير هذا الكون.

لا أعتقد أن عاقلاً واحداً يُكذب بأيةٍ من هذه الآلاء!!.

## ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[٣١]

لقد قال مفسرونا الكثير في شرح هذه الآية الكريمة، لكن ولتسهيل فهم ما قالوا نبدأ أولاً بالتعرف على معنى وقصد الله سبحانه من كلمتي سنفرغ، والثقلين.

فقد تبين أن لكلمة ﴿سَنَفۡرُغُ﴾ أكثر من معنى سأذكر لك أمثلةً منها:

أ- فرغ فلان من العمل أي انتهى منه وأنجزه وتفرغ منه.

ب- استفرغت مجهودي في أمر كذا أي بذلت قصارى جهدي فيه.

ج- سأفرغ لك تعني سوف أتفرغ لك، وهذا نوع من الوعيد والتهديد الشديدين.

د- تفرغ فلان لك أي قصدك وأقبل عليك؟.

أما ﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾ فالجميع يعرف أنهما الإنس والجان، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا سُميا بهذا الاسم؟.

﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾ هي مثنى ثقل، وهناك العديد من الاجتهادات في تحديد سبب هذه التسمية، أذكر لك بعضها:

أ) قيل لعظم شأنهما، وذلك لأنهما المكلفان على هذه الأرض دون غيرهما. ويقول الرسول (ﷺ): إني تارك فيكم الثقلين وهما كتاب الله وعترتي.

ب) وقيل لأنهما ثقيلان على الأرض أثناء حياتهما وبعد مماتهما، فقد قال سبحانه: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾ [الزلزلة:٢].

ج) يعزي البعض هذا الوصف أو هذا الاسم لهما إلى أنهما مثقلان بالذنوب والخطايا.

د) ويعلل آخرون ذلك بسبب أنهما أُثقلا وأُجهدا بالتكاليف.

هذا بالنسبة لسبب تسمية الإنس والجن بالثقلين، أما بالنسبة لمعنى الآية الكريمة فقد

وجدت أنه بمراجعة آراء علمائنا الأجلاء والتدبر فيما قالوا يمكنني الوصول إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يكن مشغولاً قبل ذلك ثم بعدها سيتفرغ لنا، بل هو دائماً يدبر أمورنا، ولا يغفل عنا لحظة واحدة، وأنه في الحياة الدنيا قد وعد المحسن بخير العاقبة، كما أوعد المسيء بشر العقاب والعذاب، وأن ذلك سوف يكون في يوم الحساب (يوم القيامة).

ويرى البعض أنه سبحانه بهذه الآية يرسل تهديداً ووعيداً للثقلين وأنه لا بد سيأتي يوم يفرغ فيه سبحانه لسحابهم ولمجازاتهم على ما أسلفوا من أعمال، وسيكون قصده وهدفه في هذا اليوم هو وزن أعمالهم بالعدل والقسطاس المستقيم، ثم مكافأتهم عليها، فإن كانت خيراً فخير، وإن كانت شراً فالنار أولى بهم.

وأعتقد أن هذه الآية تحمل الكثير من الوعيد والتهديد، لكنها في نفس الوقت تحمل بين طياتها الكثير من البشرى والخير.

فسواء أكان معنى سنفرغ هو:

(أ) أننا سوف نتفرغ لكم ونخصص الوقت الكافي لحسابكم.

(ب) أو كان معناها سوف نقصدكم (يقال في اللغة العربية: فرغ للشيء أو للشخص أي قصده) لنجازيكم بما عملتم في الحياة الدنيا من خيراً أو شر.

(ج) أو كان معناها هو الوعيد والتهديد لكم بتأكيد الحساب وبسوء العاقبة لكل من ضل عن سواء السبيل، أو خالف أوامر الله، إلا أنني أضيف هنا وفي هذا المقام معنى آخر لمعاني سنفرغ وهو البشرى والتفاؤل لمن أطاع ربه وعبده حق عبادته.

لعل كل هذه المعاني تنطبق على هذه الآية وتنسجم مع قصد الله سبحانه وتعالى منها.

فالله سبحانه قد أسبغ علينا ما لا يُحصى من النعم والآلاء الظاهرة منها والباطنة ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠].

وسخر لنا كلّ ما في هذا الكون ابتداءاً من الذرة إلى المجرة وما بينهما.

فقد سخر لنا سبحانه الشمس والنجوم والقمر بكل ما لها من أثر ودور في الحياة على الأرض) وفي ذلك قال سبحانه: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف:٥٤].

كما وسخر سبحانه لنا البحر بما فيه من خيرات وخبرات ويحمل لنا وسائط النقل كالفلك، فقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ [الجاثية:١٢] وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل:١٤].

وكذلك سخر لنا سبحانه الليل ننعم بهدوئه وبسكونه، والنهار نبحث عن رزقنا في ضيائه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٣].

كما وسخر لنا سبحانه المياه الجوفية وسخر لنا، والأنهار تمدنا بالماء العذب، وتحمل سفننا وبعضائنا، كما وتروي لنا الزرع وتمدنا بطيب الغذاء من اسماك وغيرها ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٢].

وسخر لنا ما في باطن الأرض من مياه ومعادن ونفط وغيرها من مستلزمات الحياة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحج:٦٥].

كما وسخر لنا الأنعام نأكل من لحومها ونشرب لبنها، وعلى ظهورها نركب، وتحمل متاعنا، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر:٧٩].

ومن نعم الله سبحانه علينا أن خلقنا في أحسن فترة من عمر الأرض، كما وصورنا في أحسن صورة بين خلائقه، وفي ذلك قال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر:٦٤].

كما وهب لنا سبحانه كل ما نحب وآتانا من كل ما نتمنى ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:٣٤].

ومن عظيم نعمة علينا العقل الراجح وَهَبَهُ لنا لنميز به الخير من الشر والخبيث من الطيب، فنختار منها ما يسعدنا في دنيانا وفي آخرتنا ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠].

كما وأنزل لنا الشرائع والقوانين والدساتير والكتب والصحف على أيدي رسله وأنبيائه تضيء لنا طريق التعامل مع الله ومع خلقه.

كما وأكرمنا بان منحنا حرية الاختيار بعد ان أبان لنا سبيل الرشاد وطريق الخير وطريق الشر، وجعلنا المسئولين عن هذا الاختيار وما يتبعه من سلوك وعاقبة، لقد تركنا في هذه الحياة نصول ونجول ونأتي ما شئنا من الطاعات، ونقترف ونجترح ما شئنا من المعاصي والذنوب.

لكنه أوضح لنا أيضاً أن كل ما نسلك فهو مسجل علينا وسوف نُحاسب عليه ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية:٢١]

وقال سبحانه: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣] ومن رحمة الله بنا أنه يعلم أن الإنسان خطّاء (وعلى الأرض يمشي الخطأوون)، وقد يجنح به عن الجادة، لما سيعرض له من ضغوط الشهوة والهوى ومغريات الحياة، فلذلك فقد ترك سبحانه لنا باب التوبة مُشرعاً على مصراعيه لعل الخاطئ يعود إلى جادة الصواب فينجو من عذاب الله، وإلا فليرتقب جزاءه هنا في الدنيا وفي الآخرة.

وفي ذلك قال سبحانه ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢].

كما وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج:١٠].

وقد ذكرنا أكثر من مرة أنه لا يمكن لإنسان على هذه الأرض تعداد وإحصاء آلاء الله

ونعمة، ولو أفرد جميع عمره لهذا الغرض.

وفي ذلك قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

فبعدما منحك الله سبحانه كل هذه النعم وجميع هذه الآلاء، أليس من العدل ومن الحق ومن الإحسان أن يُفرد لك يوماً واحداً هو يوم القيامة يتفرغ فيه ليقيس لك ويزن عليك أعمالك وأفعالك ويسألك عن عمرك فيما أفنيته، وعن مالك كيف كسبته وفيم أنفقته، وماذا فعلت وماذا قدمت لمن تُعيل؟.

أليس من العدل أن يقدم لك كشف حساب دقيق تقرأ فيه كل ما قدمت يداك وتجني وتحصد فيه ثمرة أفعالك؟.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦].

الآن وفي هذا اليوم (اليوم الآخر ويوم الحساب) للأسف الشديد لا مجال لعمل ولا لتوبة ولا لاعتذار، في هذا اليوم تمثُل بين يدي ربك وحيداً من غير معين ولا نصير سوى رحمة ربك.

﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام:٩٤].

فالذي خلق هذا الكون وصممه هو الذي فرض هذا اليوم ليكون يوم حساب لا يوم عمل، ويوم تظهر فيه النتائج، وتُشهر فيه العلامات، يوم تُسلّم فيه الكتب والشهادات ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ [الانشقاق:٧- ٨] ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة:١٩].

في هذا اليوم يتوجه الصالحون إلى الجنة، وكل حسب حسناته تكون درجته في الجنة، فمنها الدرجات العُليا ومنها الأعلى ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام:١٣٢].

وفي هذا اليوم أيضاً يُساق أعداء الله من الكفرة والظالمين إلى المصير المحتوم، إلى جهنم ونارها، وكما للجنة درجات، فإن لجهنم دركات منها السفلى ومنها الأسفل ﴿إِنَّ

﴿الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]. وسواء أنظرت لهذه الآية على انها وعد بالخير وأملٌ بالجنة، أو على انها وعيد وتهديد، فهل سألت نفسك: ماذا أعـددت لهذا اليوم؟ وبماذا سوف تقابل ربك الذي أسدى إليك جميع هذه النعم؟.

لعلك تعلم جيداً أنك لو اقترفت أيّة إساءة لشخص قد قدم لك صنيعاً أو معروفاً في يوم ما، فإنك ولا شك سوف تستحي أن تقابله أو تريه وجهك.

فكيف ستلقى ربك وأنت عاص له وقد وهبك جميع هذه النعم التي لا تحصى؟.

مع العلم أنه قد يكون لك من لقاء ذلك الشخص مهربٌ، لكن من لقاء الله سبحانه فلا مفر ولا مهرب!!.

والآن وقد أتضح لك الأمر، وأصبح الدستور والهداية (القرآن الكريم) بين يديك، وعقلك في رأسك، وقرارك لا يملكه غيرك، أدعو الله أن يهديك إلى الصراط المستقيم، وان تختار الطريق الذي ينقذك وينجيك في ذلك اليوم.

لك أدعو يا أخي الإنسي، ولا أنسى الدعاء إلى الطرف الآخر من الثقلين وهم الجن فلعلهم يدعون لنا، ولعل الله سبحانه يقبل دعاءنا ودعاءهم..

## ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٣٢]

أبيوم الحساب، أم بعدالة الله التي سوف يجازي بها كل عامل بعمله، ويعيد لكل ذي حق حقه تكذبان؟.

أم بتفرغه لحساب الإنس والجن على السواء ومن غير ظلم لأحد منهما (ولو بمثقال ذرة) تكذبان؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠].

وكذلك يقول سبحانه ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

أخبراني بأيٍ من هذه الآلاء تكذبان !!.

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [٣٣]

ماذا قال علماؤنا الأجلاء في تفسير هذه الآية الكريمة؟.

قالوا: إن هذا نداء يخاطب به الله سبحانه وتعالى الجن والإنس قائلاً لهم:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾: أي إن قدرتم على أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض ومن أقطارهما ونواحيهما هاربين من الموت، وفارين من قضائي وعقابي، وخارجين من ملكي فافعلوا واخرجوا.

ثم يضيف علماؤنا أن هذا ما هو إلا مجرد عرض تعجيزي، ذلك لأن الله سبحانه يعلم جيداً أنهم عاجزون ولا يملكون استطاعة الهرب منه ولا من حكمه ولا من ملكه!!.

لن يستطيعوا الهرب إلا بقوة وبقهر وبغلبة، بل وبسلطان من الله (والبعض يقول إن السلطان هنا هو أمر الله).

وبذلك فمن المستحيل على أيٍ منهم أن ينجو أو يهرب من حكم الله وقدره، ذلك إنهم أينما ذهبوا سيجدون أنهم قد أُحيط بهم، وأنهم هربوا من قضاء الله إلى قضاء الله.

وقد خاطبهم سبحانه بأسمائهم (الجن والإنس زيادة في التقرير) وذلك لان الجن يتميزون بقدرات خارقة يعجز الإنسان عن الإتيان بها، فأخبرهم سبحانه أنهم رغم هذه القدرات الخاصة، إلا أنهم سوف يبقون عاجزين عن النفاذ من أقطار السماوات والأرض.

كما ويعتقد بعض المفسرين ان هذا الخطاب موجه للجن والإنس في الحياة الدنيا، ويستشهدون على ذلك بحديث الرسول (ﷺ) يقول بما معناه: إنه بينما يكون الناس في أسواقهم يبيعون ويشترون (يكون ذلك قُبيل قيام الساعة) تتفتح عليهم أبواب السماء

فينزل منها الملائكة، فتحيط بالإنس والجن وتُحدِق بهم لتقبض عليهم وتمسكهم، فيحاولون الهرب، لكن أين المفر خاصة وأنهم بدون سلطان؟؟.

رأي آخر يعتقد أصحابه أن هذا الخطاب موجه إلى الإنس والجن في الحياة الآخرة (وهذا الرأي هو الأرجح) حيث إن الملائكة (عليهم السلام) ينزلون يوم القيامة فيحيطون بجميع الخلائق، فإذا رأتهم الإنس والجن هربوا في كل اتجاه، فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة وقد أحاطت بهم.

ويقول بعض المفسرين: إن معنى ﴿ **إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ** ﴾ هو:

أي أنكم إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات وما في الأرض فاعلموا، لكنكم لن تعلموا شيئاً من ذلك إلا بسلطان وبمشيئة من الله.

وكما ترى فإن اجتهادات وآراء مفسرينا (جزاهم الله خيراً) كثيرة.

لكننا وقبل أن نحاول استشراف بعض من أنوار هذه الآية الكريمة، لا بد لنا من التعرف على معاني كلماتها لعلها تكون لنا عوناً في فهم هذه الآية:

**معشر**: المعشر هم جماعة أمرهم واحد ﴿ **يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ** ﴾ [الأنعام:١٣٠].

**والمعشر** هم العشيرة، وعشيرة الرجل هم أهله وبنو أبيه الأقربون وقبيلته ﴿ **وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ** ﴾ [الشعراء:٢١٤].

وذكرت معشر الجن في القرآن ثلاثة مرات بينما معشر الإنس مرتين.

﴿ **ٱلۡجِنِّ** ﴾: هم مخلوقات خلاف الإنس، ومفردها جني، والجن هو المستور والمختفي ولذلك يقال:

استجن به أي استتر به وفيه، ونقول استجن منه واستجن عنه أي اختفى واختبأ عنه، ومن معاني الجن القبر، والمستور، والولد في الرحم (الجنين).

ومنها أيضاً جَنَ الليل أي اشتدت ظلمته ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗا﴾ [الأنعام:٧٦].

ومن الجِن أيضاً الجنون وفقد العقل.

ويقال: بات فلان ضيف الجن أي بات في مكان خالٍ من الإنس.

وجن الشيء هو أوله وأوج نشاطه وشدته.

﴿وَٱلۡإِنسِ﴾: ومنها الإنسان وهي كائنات حية عاقلة ومفكرة وهم خلاف الجن، وكلمة إنسي مُشتقة من أناسي أناسين وجمعها أناس.

ومنها آنس بفلان أي سكن إليه وذهبت به وحشته، وأنس الشيء تعني أحس به﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص:٢٩].

وقيل: إذا جن الليل استأنس كل وحشي، واستوحش كل إنسي، والإنسانية هي خلاف وعكس البهيمية.

﴿استطاع﴾: استطاع الشيء يعني أطاقه وقدِرَ عليه وأمكنه، ومنها التطوع أي القيام بالعبادة طائعاً مختاراً، وطاع تعني لانَ وانقاد وخضع طواعيةً.

﴿تنفذوا﴾: أنفذ القوم تعني خرقهم ومشى بينهم، ومنها نفذ الرمح، ونفذ الحكم (أخرجه إلى التنفيذ)، والنفوذ هو السلطان والقوة، ونفذ فلان لوجهه أي مضى على حاله.

ويقال الطريق نافذ إلى كذا أي يصل إلى كذا، ويقال نفذ إلى الجهة الأخرى. ونفذ تختلف عن نفد، فنفد ـ تعني خلص وانتهى ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف:١٠٩].

﴿أَقۡطَارِ﴾: مفردها قُطر وهو ناحية.

والقُطر هو جملة من البلاد والنواحي تتميز باسم خاص ولها حدود سياسية.

﴿سلطان﴾: تعني الملك أو الوالي وجمعها سلاطين، كما قد يكون معناها هنا القوة والقهر والحجة والبرهان.

بعد هذا التوضيح لمفردات الآية الكريمة فأني أود أن استشف بعضاً من أنوارها لعلنا نصل سوياً إلى معانٍ أخرى لهذه الكلمات تتلاءم مع قصد الله سبحانه من هذه الآية ومن معناها.

والآن دعنا نتمعن في هذه الآية حيث من المعروف إن المعشر هم العشيرة، وهم الجماعة المشتركة في الكثير من الصفات، فهل أعتبر القرآن أن الجن والإنس معشراً واحداً وجماعة واحدة بالنسبة للنفاذ من أقطار السماوات والأرض؟.

فالإنس والجن حسب آيات القرآن الكريم يشتركون في الكثير من الصفات كما وأنهم يختلفون في صفات أخرى أكثر..

فمثلاً يتشابهون في أنهم أحياء، وأن منهم المؤمنون ومنهم الكافرون، وأن كلاهما مخلوق للعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] وأنهم جميعاً سوف يحاسبون ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩] فالمؤمنون منهم سوف يدخلون الجنة، والكافرون سيدخلون النار. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣].

وإن من الجن رجال كما إن من الإنس رجال ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:٦] وهناك الكثير من هذه الصفات المشتركة يضيق المجال بذكرها.

كما أن الجن يختلفون عن الإنس في الكثير من الصفات، أخص بالذكر منها في هذا المقام، إن الجن أصلاً قادرون على العروج والتنقل في السماوات رغم أنهم لا يستطيعون أن ينفذوا من أقطارها، خاصة بعد بعثة سيدنا محمد (ﷺ) حيث أودع سبحانه في السماء حرساً شديداً ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا

وَشُهُبًا﴾ [الجن:٨] وقال سبحانه: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٩].

ومن صور الاختلاف بين الإنس والجن، إن الإنس مخلوقون من تراب بينما الجن مخلوقون من النار.

وتلاحظ أن الله سبحانه أحياناً يقول: ﴿ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ وأحياناً أخرى يبدأ بالجن فيقول: ﴿ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، ومما لا شك فيه أن تقديم هذا أو ذاك لا يأتي عبثاً، ولا وليد الصدفة، بل إن لله في ذلك حكمة وقصد لعلنا نعرفها لاحقاً.

والآن عودة إلى الآية.. فهل تعتقد أن فيها تحدٍ للإنس والجن في أنهم لا يستطيعون أن يهربوا من عذاب الله وحساب يوم القيامة، وأنهم لا يستطيعون النفاذ من أقطار السماوات والأرض؟.

يؤيد هذا المعنى أن الآية جاءت مباشرة بعد تهديده سبحانه للإنس والجن بقوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، فمن المقبول فهمه هنا أن النفاذ يعني الهروب من قضاء الله سواءٌ أكان من الموت أم من الحساب، ولا شك أن كل عاصٍ يود ويتمنى أن يهرب من هذا اليوم العصيب فلذلك تجد أن الله سبحانه يخبرهم ويتحداهم بقوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولكن كيف ينفذون وقد قيل (يا هارب من قضاي مالك رب سواي).

أم تعتقد أن هذه الآية ما هي إلا تعجيز الإنس والجن وتخييرهم في أمر لا خيار لهم فيه ولا طاقة لهم به؟.

فهم إن أرادوا أن ينفذوا من أقطار السماوات والأرض فأين سينفذون والمُلك كله لله، فالله سبحانه يملك الزمان والمكان (والله هو الدهر)، وهو مالك السموات الأرض، بل إن مُلكه أكبر من السموات والأرض ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١].

أم تعتقد أن هذه الآية كآيات أُخرى غيرها تحمل في طياتها بشرى عظيمة للإنس وللجن، بشرى تنبئ أنهم سوف ينفذون من أقطار السماوات والأرض ويرتادون الفضاء ويطأون أرض القمر وربما بعض الكواكب أيضاً؟ فهي بذلك واحدة من ضمن الآيات المبشرات للإنسان بارتياد الفضاء مثل:

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق:١٧- ١٩].

وفي هذه الآية قَسَمٌ من الله سبحانه أننا سوف نركب طبقات السماء ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ [الملك:٣].

وبفضلٍ وكرمٍ من الله فإن ذلك قد حصل، وركبنا السماء وحلّقنا فيها وعرجنا في أقطارها.

فها أنت ترى الطائرات على اختلاف أحجامها، منها الصغيرة ومنها والعملاقة، تحملنا وتحمل أطناناً من بضائعنا، ليس هذا فحسب، بل إنها تتحرك بسرعاتٍ تتجاوز ألف كيلومتر في الساعة، كما تحلق على ارتفاعات تصل إلى ١٥ كم فوق سطح الأرض..

أليست خطوط سير هذه الطائرات هي بعضٌ من أقطار السماوات؟؟.

وأكثر من ذلك فقد ارتدنا الفضاء الخارجي بصواريخ ومركبات فضائية وأقمار اصطناعية، حتى وطئت قدما الإنسان سطح القمر، وتجولت مركباته ما بين الكواكب، ألا يعني ذلك ويُشكل نوعاً من النفاذ من أقطار السماوات؟.

ومن ضمن الآيات المُبشرة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت:٢٢]. وأقل ما يمكن فهمه من هذه الآية هو أننا سوف نغزو الفضاء ونرتاد السماء، لكنه سبحانه يخبرنا أننا حتى ولو كنا هناك فلن نعجزه ولن نهرب من قدره ولن ننجو من حكمه..

يُبشرنا سبحانه بأننا سوف نغزو الفضاء، لكنه في نفس الوقت يُخبرنا أن البعض سوف يعصيه حتى في السماوات وهذا (مع شديد الأسف) ما قد حصل، فكم من السُكر

ومن الفواحش تُرتكب على متن هذه الطائرات وهي معلقة في أجواء الله، وسائرة بقدرة الله تنفذ أقطار سماواته؟. سامح الله الإنسان ما أكفره، إنه سيبقى إلى يوم القيامة ظلوماً جهولاً.

وكما ترى فإن الله سبحانه يخاطب الجن والإنس بصيغة ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾.

هذه العبارة قد يكون معناها: إن قدرتم وتمكنتم، وقد يكون معناها: إن رغبتم وأردتم وتمنيتم، وقد تكون ﴿اسْتَطَعْتُمْ﴾ من الطواعية وعدم الإجبار.

وتلاحظ هنا أن الله سبحانه يُعقب بعد ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا﴾ بقوله: ﴿فَانفُذُوا﴾.

فهو بذلك يأمرنا بالنفاذ المباشر والفوري حيث إنه سبحانه قد بدأ بـ (فاء) التعقيب قبل أمر أنفذوا، ولا بد أن النفاذ هنا هو عبور واجتياز بل واختراق أبواب السماء والانتقال خلال أقطارها وعبر طبقاتها، فيقول سبحانه: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ:١٩] ويقول: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر:١١]. لكنه سبحانه يخبرنا (هنا) أن النفاذ إن كان ممكناً فلن يكون إلا بسلطان.

**فما هو هذا السلطان؟ هل هو إرادة الله؟ أم هو القوة والعزم والإصرار؟ أم هو علم سوف يُنعم الله به علينا؟.**

أعتقد انه لو كان النفاذ من أقطار السماوات والأرض هو ارتياد الفضاء الخارجي بواسطة المركبات الفضائية واختراق طبقات الجو وهذا هو ما حققه الإنسان (وربما قَبْلَهُ الجان لأننا لا نعرف قُدراتهم ولا مقدار علمهم).

ففي هذه الحالة لا بد أن يكون السلطان هو سلطان العلم والمعرفة والتقنيات الحديثة وحُسن تطبيقها، وهذا يتطلب أشياءً كثيرةً منها: دراسة المنطقة التي سوف ينفذ إليها، والطريق التي سوف يسلكها، وتجنب مخاطر هذه الطريق التي منها مخاطر التصعد في السماء من ضيق للصدر وحرجه ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[الأنعام:١٢٥]، وعليه أن

يعرف أيضاً طرق وأبواب السماء، وطرق العروج فيها، وكيف يتجنب جبال الثلج والبرد في الجو ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور:٤٣].

كما أن عليه أن يحتاط لنقص الأكسجين فيأخذه معه، ويستعد لانعدام الجاذبية وما يتبعه من تأثير على الجسم، كما وأن عليه أن يتجنب الشُهب والنيازك والكِسف والأجسام الصلبة السابحة في الفراغ الكوني وفي الغلاف الجوي ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحِجر:١٨] ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[سبأ:٩].

جميع هذه الاحتياطات تحتاج إلى علم واسع وعميق، ودراسة عظيمة، علم يستحق أن يُطلق عليه اسم سلطان، ولا سبيل إلى هذا السلطان إلا بمشيئةٍ وبعون من الله ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ .

أما أقطار السماوات فماذا عساها تكون؟ هل هي طبقات الغلاف الجوي، أم هي المسافات ما بين كواكب المجموعة الشمسية؟ أم هي الآماد السحيقة ما بين المجرات؟ أم هي الطريق إلى القمر؟ كلها وغيرها احتمالات واردة.

أما أقطار الأرض فماذا عساها تكون؟ وكيف يتم النفاذ (الولوج) فيها؟ وهل هي اليابسة والماء؟ أم هي القارات؟ أم هي البلدان المنفصلة عن بعضها بحواجز وتضاريس طبيعية؟ أم هي طبقات جوف الأرض بما فيها من معادن ونفط؟ ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٦٧] وهل النفاذ إليها والولوج فيها يتم بوسائل النقل والمواصلات الحديثة؟ أم بالحفر في طبقات الأرض بالأجهزة المتطورة؟ أم بمخر عباب البحار؟.

وقد تكون أقطار الأرض هي الجاذبية الأرضية، وهي التي تُعيق التحرك بين أقطار الأرض، وبين الأرض والسماء، كما أن أقطار الأرض قد تكون هي الأنفاق يحفرها الإنسان لتسهيل اختراقه للأرض.

وقد تكون هي المناجم وما بها من طرق وسراديب تحت الأرض يصل طولها

الكيلومترات.

وقد تكون هي الممرات التي استحدثها الإنسان تحت سطح الأرض وتحت المباني بل وتحت الأنهار والبحار تمر منها وسائل مواصلاته وقطاراته، ويالكرم الله سبحانه، فقد أعاننا على النفاذ في أقطار السماوات وأقطار الأرض. حمداً لك يا الله حمداً كثيراً.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٣٤]

بماذا تكذبان، أبكرم الله وفتحه لكم أبواب السماء ونفاذكم منها وعروجكم خلالها حتى ارتدتم الفضاء الخارجي ودرستموه بل ونزلتم على القمر؟ أم بما أنعم الله عليكم به من العلم والسلطان حتى استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض؟ أم بتهديده ووعيده لأعدائكم من الإنس والجن (خاصة الظالمين منهم) بأنهم لن يفتلوا من عذاب الله ولا من حسابه وعقابه، (بل انه سوف يسترد لكم كامل حقوقكم منهم).

أم بما أنعم عليكم من اكتشافات مذهلة نفذتم بواسطتها من أقطار السماء، وولجتم بها أعماق وباطن الأرض، وبنيتم في الأرض ما لا يخطر على بال، واستخرجتم منها كل ّما يجعل حياتكم سهلة رغيدة.

ما أعظم ان يكون الإنسان شاكراً ممتناً لأفضال الخالق المدبر وشاكراً لكل من أسدى إليه أي جميل)!!.

والأجدر والأفضل من كل ذلك أن يكون ردكم وجوابكم: ولا بشيء من آلائك ربنا نُكذب!!.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾[٣٥]

لقد تعددت الآراء والاجتهادات حول تفسير هذه الآية، وزاد الأمر تعقيداً اختلاف العلماء في تفسير معاني مفرداتها وهي: يرسل عليكما ـ شواظ ـ نحاس ـ لا تنتصران.

ففي ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ قالوا:

أ) هذا الإرسال سيكون يوم القيامة وفيه يتم الحساب والعقاب، فترسل على الخاطئين النار الحامية واللهب الشديد ويصب فوق رؤوسهم النحاس المذاب (وهو الصفر المعروف) وبذلك ينالون أشد العذاب.

ب) اعتبر آخرون أن هذا الإرسال هو للإنس والجن الهاربين من عذاب يوم القيامة، فتقوم الملائكة وزبانية جهنم بإرسال لهب من النار ومن النحاس المذاب عليهم ليرجعوا فلا يجدوا منفذاً ولا نصيرا.

أما **الشواظ** فقد تعددت فيه الأقوال أيضاً وإليك بعضها:

أ- هو لهب ومعه دخان أو مختلط بدخان.

ب- هو لهب خالص من الدخان.

ج- هو لهب أحمر متقطع أو لهب أخضر.

أما عن **النحاس** فقال البعض إنه الصفر المذاب يُصب فوق رؤوس الثقلين.

ومنهم من قال إنه دخان لا لهب فيه وذلك لتشابه لونه مع لون النحاس.

أما عن ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ فقد قالوا إنه لا ينصر بعضكم بعضاً ولا يخلصه من عذاب الله. بينما قال آخرون إنكما لن تستطيعا ولن تقدرا على النفاذ والتخلص من عذاب الله.

ولزيادة في فهم هذه الآية الكريمة نحاول التعرف على معاني مفرداتها مستعينين (بالمعجم الوسيط).

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾: لعلها تعني يصب عليكما، وقد تعني يطلق عليكما

من غير تقييد، والمعنى الأكثر قبولاً لي هو يُسلط عليكما كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣]. وفي قوله سبحانه: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:١٣].

﴿شُوَاظٌ﴾: إضافة للمعاني السابقة، فإن شاظ به المرض تعني هاج به ووخزه، وشاظ به الغضب أي أشتد، والشواظ هو لهب بلا دخان مع وهج الحر لشدته.

أما النحاس فإضافة لما ذكرت فهو عنصر فلزي قابل للطرق والسحب، موصل جيد للحرارة والكهرباء، النقي منه يكون له لون احمر أما المختلط بالخارصين فيكون لونه أصفر، ولكلٍ منهما استعمالاته.

وينصهر النحاس عند درجة ١٠٨٣ ° م، وفي حالة كهذه تكون حرارته أعلى من الاحتمال.

والآن وبعدما تعرفنا على معاني كلمات الآية الكريمة دعنا نحاول فهم قصد الله سبحانه منها، عندها سنجد أنفسنا أمام مسارين واختيارين مختلفين، لكلٍ منهما مفاهيمه وتبعاته وهما:

أ) إما أن يكون إرسال الشواظ والنحاس يوم القيامة أي بعد حساب الثقلين الجن والإنس ودخولهم جهنم.

ب) وإما أن يكون ذلك في أثناء محاولتهم النفاذ من أقطار السماوات والأرض.

أولاً: فإذا فهمنا أن هذا الإرسال سيكون بعد ان يفرغ سبحانه من حسابهم وبعد أن يدخلون النار ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩]، فهناك في جهنم سوف يُرسل عليهم ويُسلط عليهم شواظ من نار أي من لهب وحرارة تكوي

أجسادهم كيّاً، وتشوي أبدانهم شيّاً وتحرق جلودهم، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦].

وفي جهنم تلفح النار وجوههم بلهيبها وبدخانها سواءً أكان هذا اللهب أحمر أم أصفر أم أخضر اللون، فكله لهب وكله لا يُطاق ولا يُحتمل، ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٤]. وفي نفس الوقت يُصبّ على رؤوسهم وأجسادهم الحميم والقطر (النحاس المنصهر)، ولك أن تتصور مدى الأذى والألم والعذاب الذي سيصيب الإنسان عندما يُصب على جسمه النحاس المنصهر ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ﴾ [التوبة:٣٥] وقال سبحانه: ﴿..يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩- ٢٠] ليس هذا فحسب، بل يضاف إلى ذلك أصناف أخرى من العذاب لا نعرفها (وقانا الله منها).

ثانياً: لكن (والله أعلم) كما يظهر من هذه الآية أن إرسال الشواظ عليهم سيكون في الحياة الدنيا، وخاصة عند محاولتهم النفاذ من أقطار السماوات والأرض، وأثناء العروج في الفضاء الخارجي بالمركبات الفضائية، لا سيما وأن هذه الآية وردت مباشرة بعد قوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

وأفهم من ذلك أنه وأثناء نفاذهم من طبقات الجو واختراقهم لأقطار السماوات، يُرسِل سبحانه عليهم شواظ. (هذا الشواظ يتكون من المكونين الأساسيين للكون وهما: الطاقة وهي هنا النار. والمادة وهي هنا النحاس). وتسليط هذا الشواظ عليهم يحول دون نجاحهم في مهمتهم ويمنع انتصارهم في النفاذ، (خاصة إن لم يتسلحوا بالسلطان الذي فرضه الله سبحانه على كل من يريد أن ينفذ). ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ:٩].

**أنواع الشواظ:**

للشواظ نوعين، فهو إما أن يكون من النار، وإما أن يكون من النحاس

١- أما الشواظ من نار فقد يكون:

أ- الأشعة الحرارية المرسلة من الشمس بكل حرارتها خاصة عندما نكون خارج الغلاف الجوي فإنها تكون حينئذٍ حارقة.

ب- وقد يكون هو الأنواع المختلفة من الإشعاعات الكونية المهلكة القاتلة مثل الأشعة السينية والأشعة فوق البنفسجية، وأشعة جاما وغيرها الكثير، ويكتمل ويشتد أثر هذه الإشعاعات المدمرة خارج الغلاف الجوي وفوق الطبقة الواقية بما فيها من أوزون ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] لا سيما إذا نفذنا من هذه الأقطار بغير سلطان (ولعل بعضاً من أنواع السلطان هنا هو بزة (بدلة) رائد الفضاء بكل ما فيها من إمكانات وتقنيات علمية عالية).

٢- أما النوع الثاني من الشواظ فهو شواظ من نحاس، فلعله يكون رمزاً وكنايةً عن شواظ المادة، فالذي يريد أن ينفذ من أقطار السماوات والأرض سوف يتعرض إلى شواظ من مادة، لعل هذه المادة هي ما يسمى بالشهب والنيازك (التي هي عبارة عن أجسام صلبة قادمة من الفضاء الخارجي) وهذه الأجسام تكون عبارة عن خليط من العناصر منها النحاس ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾[المُلك:١٧]. ومن هذه المواد والعناصر ما لا يتكون إلا في النجوم مثل عنصر الحديد ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[الحديد:٢٥].

ولعل ذكر النحاس هنا مجرد مثال لبعض العناصر المكونة للنيزك، وقد يكون هذا النحاس منصهراً وبحالة سائلة وبحرارة عالية، وقد يكون ما يزال على حالته الصلبة، وحتى وإن كان على هذه الحالة فإنه سيكون شديد الحرارة نتيجة لإحتكاك النيزك بالغلاف الغازي. وعندما يصطدم هذا الشواظ وهذا النحاس بالإنس أو باجن فإنه

ولا شك سيكون شديد الإيذاء.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف:٤٠]. وأتصور أن الشواظ وكأنه يشبه الألسنة الشمسية التي تمتد إلى آلاف الأميال بعيداً عن الشمس حاملة معها اللهب والحرارة، وهي تُشبه خراطيم رجال الإطفاء الذين يقذفون الماء بشدة لإطفاء الحريق، لكن الشواظ هنا يقذف اللهب والنار والنحاس والحمم بمختلف أنواعها وأحجامها.

ويلاحظ أن كلمة شواظ لم تذكر في القرآن الكريم سوى مرة واحدةٍ هي في هذه الآية.

أما (الانتصار) فقد ربطه سبحانه بالسلطان الذي توقعت أنه سلطان العلم والمعرفة التي يمن الله بها علينا بين الحين والآخر وحسب حاجتنا وظروف معيشتنا على هذه الأرض.

وقد تُقرأ شِواظ بكسر الشين وقد تُقرأ شُواظ بالضم وهما لهجتان (من لهجات العرب)، كذلك كلمة نحاس فقد تُقرأ نحاسٌ بالرفع إذا كانت معطوفة على شواظٌ. وقد سبق وشرحنا معنى كلمة سلطان، ولعل السلطان هنا هو معرفة أبواب السماء التي ننفذ منها، ولعل هذه الأبواب (بحكمة وبرحمة من الله) تكون بعيدة عن الشهب والنيازك، بل وعن الإشعاعات الكونية، الضارة، ويكون ذلك بواسطة خصائص معينة يودعها الله سبحانه عند هذه الأبواب ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ:١٩].

## ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [٣٦]

قد يتبادر إلى ذهنك أن الآلاء والنعم هنا إن لم تكن معدومة فهي قليلة، والعكس هو الصحيح، فمثلاً نجد أن تحديد التحرك في السماء، وتهديد من سيتحرك، بكل هذه المخاطر لا بد أنه سيدفع رجال العلم للبحث والتقصي ولاكتشاف كل ما يؤمن سلامة رواد الفضاء، وفي ذلك دفع للبحث علمي كبير.

وكذلك اتخاذ احتياطات عالية لما يعترض طريقهم من مخاطر (تكون على شكل شواظ مختلف الأنواع). يستوجب أخذ الحيطة والحذر وفي ذلك حماية للرواد وللعلماء.

أما إن كان الذين سينفذون هم من الكفار والمجرمين الهاربين من حساب الله وعقابه فإن الله يطمئنكم أنهم لن ينتصروا، وذلك لأن الشواظ من النار ومن النحاس سيكون لهم بالمرصاد وبذلك سوف ينالون العذاب الذي يستحقون.

أما إن كانوا أصلاً في النار، وقد تم حسابهم فلن ينتصروا لأنهم سيذوقون صنوفاً من العذاب جزاءاً وفاقا بسبب كفرهم وظلمهم، أليست هذه الآية تستحق كل الشكر والعرفان لا التكذيب والنكران؟.

## ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ [٣٧]

اتفق العلماء على أن معنى العبارة ﴿ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ هو أنها تصدعت وتشققت، (ويكون ذلك يوم القيامة وقد فهموا ذلك من سياق الآية وما قبلها من آيات) لكي تنزل الملائكة إلى الأرض، ومنهم من قال: إن الملائكة تنزل من خلال هذه الشقوق لكي تحيط بالخلائق من سائر الجهات والجوانب حتى لا يهرب بعضهم من المحشر ومن الحساب. قال تعالى: ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾.

أما عبارة ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ فقد كثر فيها التفسير وكثرت حولها الآراء، أذكر لك بعضها.

أ- قالوا: كالوردة الحمراء من شدة حرارة النار، ومثل الأديم الأحمر أي الجلد الأحمر (الأدمة هي الطبقة الثانية من الجلد وتقع تحت البشرة).

ب- حمراء كلون الفرس الورد (تكون صفراء في الربيع، وحمراء في الشتاء، فإذا اشتد البرد اغبر لونها) وهو اللون الأبيض الضارب إلى الحمرة.

ج- خُلقت السماء باللون الأحمر وهو لونها الأصلي، لكن لكثرة الحواجز ووجود الهواء وبُعد المسافة بيننا وبينها فإننا نراها زرقاء، كما نرى الدم في العروق أزرق لوجود حواجز بيننا وبينه بينما هو في الحقيقة أحمر.

د- تكون وردة حمراء سائلة كالدهن الذي يذوب من حرارة جهنم ويشبه لونها صفاء لون الدهن.

هـ- بسبب قرب السماء من الأنظار يوم القيامة وزوال الحواجز بيننا وبينها فيمكننا ان نراها بلونها الأصلي كالوردة المدهونة.

ولاقتباس بعضٍ من أنوار هذه الآية أضيف ما يلي:

قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق:٦].

ويقول سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس:٥].

نفهم من ذلك أن الله سبحانه قد بنى السماء بناءاً محصناً لا فروج فيها ولا ثغرات، وجعلها منيعة حتى على الشياطين، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات:٦- ٧] وأنه يحفظها من كل شيء حتى من الشياطين.

لكنه سبحانه جعل لها معابر، وأبواباً محددة وأماكن مراقبة تمر منها الملائكة وتعرج من خلالها في السماء، وكذلك معابر خاصة لأولئك الذين أكرمهم الله بسلطان النفاذ من أقطار السماوات والأرض.

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [الحِجر:١٤].

هذه السماء خلقها الله وبناها بغير عمد وجعلها محفوظة ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢]، وستبقى محفوظة كذلك إلى يوم القيامة، لكن في هذا اليوم تفتح السماء وتفتح الطرق والسبل بين السماء والأرض، وفي هذا اليوم يتفرغ سبحانه لحساب الثقلين ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ ومع هذا التفرغ سيكون هناك انشغال شديد وحالة طوارئ غير مسبوقة للملائكة، فهي تتحرك في السماء صعوداً وهبوطاً وتعرج في أقطار السماوات، لينال كل مخلوق من الثقلين حسابه، ولكي يتم ذلك ففي هذا اليوم تنشق السماء وتنفطر بل وتنكشط فتتشرع أبوابها.

(لاحظ عظمة اللغة العربية (لغة القرآن) حيث لكل حرف فيها مدلول ومعنى فحرف الـ (ش) يرافق: الانشقاق ـ الشرخ، شَرَطَ ـ شدخ، شرش شطر، وكلها أفعال

وكلمات تعني الشق والقطع والتمزيق).

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾ [التكوير:١١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار:١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق:١]، ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [الحاقة:١٦].

ومع هذا الانشقاق ومع فتح الأبواب، نرى أشياءً كثيرة لم نكن نراها من قبل، وتظهر علينا أجرامٌ سماوية كانت خافية علينا (تحجبها السماء) ونرى ألواناً وأطيافاً في السماء لم يكن متاحاً ولا ممكناً لأبصارنا أن تتعامل معها أو تستوعبها، بل كانت هذه الأجرام وهذه الأجسام وهذه الألوان محجوبة عن أنظارنا وأبصارنا بل وحتى عن بصائرنا.

والآن وقد إنشقت السماء وأزيلت الحواجز والموانع فسنرى في السماء ألواناً وكأن شخصاً ما قد دهنها بالدهان وصبغها بالأصباغ حتى صارت تشبه لون الوردة، ولعلها أقرب إلى الوردة الجورية الحمراء من غيرها من الورود، واعتقد (والله أعلم) أن الدهان هنا يعني الصبغ وليس الدهن.

أضف إلى ذلك ما سيحدث يوم القيامة من: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾ [التكوير:١+ ٢] ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ [الانفطار:٢]، ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ [المرسلات:٨- ٩]، ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [القيامة:٧- ٩]، انفجارات لبعض النجوم والكواكب والأقمار وما يتبع هذه الانفجارات من أصوات رهيبة ومظاهر غريبة قد لا نعرفها في حياتنا الأرضية ـ ألوانٌ جديدة وغريبة، ألوان وكأنها الدهان دُهنت بها السماء، ألوان تنتج عن نجوم وشموس وكواكب تنفجر معطية شكل الورود، في هذا اليوم الموعود يوم الحساب وأي يوم أجدر وأحق بمثل هذه الانفجارات الكونية وهذه الألوان الحمراء الصاخبة من يوم القيامة، يوم تحار فيه العقول وتشيب له الولدان. قال تعالى: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾.

ولك أن تلاحظ مجرد عملية الغروب وهي حركة ظاهرية غير حقيقية تتم بين الأرض والشمس، ويظهر فيها أن الشمس تغرب في الغرب (والحقيقة غير ذلك) ومع هذا الغروب تصطبغ السماء بلون رائع وبديع لون أحمر برتقالي هو لون الشفق، تمعن روعة هذا المنظر خاصة إذا شابته بعض السحب الصغيرة المتفرقة. فإذا كان كل هذا الجمال لمجرد غروب الشمس، فماذا تتوقع وماذا تنتظر أن يكون الحال عندما تغرب الدنيا بحالها وبكاملها وكيف تتصور المنظر عندما تنشق السماء وتنكدر النجوم وينخسف القمر، وتُسجَّر البحار، وتعم الأهوال؟.

هل تتوقع مظاهر أقل من انتشار هذه الألوان الحمراء الصاخبة؟.

اللهم أجعلنا نراها ونحن مكللون برحمتك وبعنايتك.

## ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٣٨]

قد تسألني: أين النعم والآلاء في هذه الآية.

أقول لك إنها كثيرة وكلها يستحق الشكر والحمد لله سبحانه، فمنها أن الله سبحانه قد زَيَّنَ السماء باللون الأزرق الذي يبعث في النفس الهدوء والسكينة.

كما أنه سبحانه قد أخفى عنا أهوال يوم القيامة ومنحنا على الأرض حياة هادئة، وجعل السماء لنا سقفاً حافظاً يعزلنا عما فوقه من أهوال.

أضف إلى ذلك أن الله سبحانه قد مَنَّ علينا بالكثير من النعم التي تستحق منا الشكر والعرفان ولا التكذيب والنكران.

## ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾[٣٩]

آية تثير الجدل بين المفسرين، لعدم سهولة فهمها، ولذلك فإنك ستجد أكثر من فهم وأكثر من اجتهاد في تفسيرها، أسرد لك بعضاً منها:

١) البعض يقول: إنه في هذا اليوم تنشق السماء، وفيه يخرج الناس من قبورهم، فيكون يوماً رهيباً عصيباً، فلا يُسأل في هذا اليوم أحد من الجن أو من الإنس عن ذنبه، ويعزون ذلك إلى أن للمذنبين علامات بادية وسمات ظاهرة على وجوههم كاسوداد الوجوه، وزُرقة العيون، وبذلك فلا داعي لسؤالهم: من منكم المذنب؟. فالعلامات واضحة بيّنة، بل وملازمة لهم بمجرد نشورهم من قبورهم.

٢) يفسر آخرون الآية على أن الله سبحانه وتعالى قد أحصى على المذنبين أعمالهم، وأن الملائكة قد حفظوها وسجلوها، وفي حالة كهذه فلا داعي للسؤال. وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[القصص:٧٨].

وكذلك يقول سبحانه: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[يس:٥٩] ويقول كذلك ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[السجدة:١٢].

أما سؤال المجرمين فله موقف آخر غير هذا الموقف، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر:٩٢]. ويقول ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[الصافات:٢٤] ويقول سبحانه : ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[العنكبوت:١٣] وموقف السؤال هو عند الحساب، وللحساب يوم فيه يتم السؤال ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[ص:٥٣].

ويقول سبحانه: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[إبراهيم:٤١].

٣- ويفسرها البعض على أن السؤال لن يكون: هل عملتم ذنب كذا؟ لأنه سبحانه

أعلم بذلك منهم، لكن السؤال يكون: لماذا عملت ذلك الذنب؟ فيكون السؤال سؤال توبيخ واستنكار لا سؤال استفهام واستفسار، فالذنب مثبت ومعلوم لكن السؤال عن الباعث والدافع على اجتراح هذا الذنب واقتراف هذه المعصية.

٤- فريق رابع قالوا: إن المسألة كانت قبل ذلك اليوم، أي قبل أن يختم الله على أفواههم، فالذي يتكلم الآن هو أيديهم وأرجلهم وجوارحهم، وهي التي سوف تشهد عليهم، ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس:٦٥].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤] وقال سبحانه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٥- ٣٦].

٥- ويعتقد آخرون أن عدم السؤال هذا يكون بعد أن يؤمر بهم إلى النار، ففي ذلك الوقت لا يُسألون عن ذنوبهم بل يُقادون إلى النار ويُلقون فيها.

كما ترى فقد سردت لك أكثر من رأي وأكثر من اجتهاد في تفسير هذه الآية، أما بالنسبة لي، فلست أدري ماذا أقول ولا كيف أتعامل مع هذه الآية أو أفهمها.

سوف أحاول إعمال فكري وأقدّم لك محاولات لفهمها لعلي ألمس من قريب أو من بعيد قصد الله سبحانه من هذه الآية.

١) قد يكون عدم السؤال عن الذنوب في هذا اليوم لأن النتائج قد ظهرت، والحسابات قد دُققت، وبناءً على هذه النتائج قد انجلى الموقف، وتحدد المصير، وبالتالي فلا داعي للسؤال ولا للاستخبار، لان الجميع قد عرف طريقه وأين مآله؟.

ففي هذا اليوم يُجنى الحصاد، وتتوزع المكافآت، فنحن نعرف أنه ومنذ لحظة الوفاة يرى الشخص مقعده، فإما أن يكون في الجنة (عسى أن نكون منهم) وإما أن يكون في النار (أعاذنا الله منها).

وفي القبر يكتمل الموقف وتنجلي الصورة، فإن كان القبر روضة من رياض الجنة فما معنى السؤال بعد ذلك؟.

وإن كان حفرة من حفر النار فالجواب واضح ومعروف.

٢) رؤية أخرى أتصورها فهماً لهذه الآية وهي أن السؤال في هذا اليوم لن يكون: هل عملت ذنب كذا أم لم تعمله؟ لان ذلك مُثبت ومكتوب منذ لحظة اقترافه لهذا الذنب ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:١٧].

فالملائكة تسجل على الإنسان كل عمل يعمله، بل ولعلها تُرحِّله إلى ميزانية أعمال الفرد أولاً بأول، فهناك سجل جزاء، جزء منه للسيئات وآخر للحسنات.

ومن رحمة الله أنه يأمر ملائكته بالتريث والتأخير في تسجيل السيئات لعل المسيء يرتجع ويُقلع عن الذنب فلا يُسجل عليه ولا يُحاسب عنه.

لكن السؤال هنا قد يكون عن الدافع لاقتراف هذا الذنب وعن الباعث على الجرأة على حدود الله وعلى الكفر برسله ومخالفة أوامره. وعن المبرر الذي سوَّغ لهذا المذنب وأجاز له التطاول على دين الله وعلى خلقه فأعمل الظلم واجترح المعاصي والآثام بدون رادع.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨- ٩].

فالسؤال هنا ليس هل قتلت أم لا؟ بل هو: لماذا وبأي ذنب قتلت؟.

٣) من الآية التالية والتي يقول فيها سبحانه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن:٤١].

أفهم أنه لماذا السؤال وعلامات الاجرام بادية وسمات الذنوب واضحة على الوجوه، كل الوضوح.

وفي ذلك قال سبحانه:

﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزُمَر:٦٠] وقال أيضاً: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾ [الحج:٧٢]. وقال كذلك: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾، وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾، وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾.

آيات كثيرة تقول إن العلامات على الوجوه يومئذ تكون بدرجة من الوضوح بحيث تغني عن السؤال، حتى أنه معها يكاد المريب يقول خذوني.

فإذا كان الحال كذلك فلا داعي للسؤال وعندها تتحقق الآية الكريمة: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾.

٤) رأي آخر أسوقه إليك رغم تأكدي من ضعفه: يومئذ هذا يوم محدد، ولعله يكون يوم تنشق الأرض فتكون وردة كالدهان، أو يوم خروج الإنس والجن من قبورهم أو يوم يفرغ فيه سبحانه للثقلين. فقد تكون جميع هذه الأيام هي يوماً واحداً هو ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ حيث لم يعد هناك حساب للزمن (على الأقل الزمن الذي نعرفه ونقيس فيه).

وأياً كان هذا اليوم فهو يوم هول وخوف ويوم ترقب مهيب وعصيب، يوم انتظار وحشر، يوم لا طاقة للإنس أو الجن على احتماله.

في هذا اليوم تصل حركة الملائكة (صعوداً وهبوطاً في السماء) إلى أوجها، وتكون الطوارئ في قِمتها.

في هذا اليوم لا يوجد ظل إلا ظل الله حيث قال الرسول (ﷺ) (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله).

في يوم كهذا ألا تعتقد ان الله سبحانه سوف يُضيف فضلاً وكرماً إلى أفضاله وكرمه على مخلوقاته من الإنس والجن، فيستضيف الخلائق الخارجين من القبور، فمن أوجه

إكرام الضيف أن لا يُسأل حال وصوله وقدومه، وقد قال الرسول (ﷺ): (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) ومن هو أكرم من الله؟.

فلعله سبحانه في هذا اليوم وفي هذا الموقف لا يسألهم، بل يتركهم يعيشون الأمل بالعفو وبالرحمة، وقد يتركهم ليتذكر كلٌ منهم أعماله ويحاسب نفسه، والله سبحانه قد تَحملهم في الحياة الدنيا سنين طويلة وأملى لهم الكثير ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف:١٨٣]، وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ...﴾ [الحج:٤٨].

وبالتالي فلو أملى لهم وتحملهم يوماً آخر، فذلك ليس كثيراً على الله. لقد عرضت هذا التصور وهذا الرأي على صديق لي هو الأديب الفذ اللواء خليل أمين - ربايعة لكنه لم يرق له وكان اعتراضه أن هذا يوم الحساب وليس يوم ضيافة، وقال إن العفو والرحمة لا يجتمعان مع الكيد المتين.

فما رأيك أنت؟ (أعتقد أنا أنهما يتجمعان عند الله القادر على العقوبة والقادر على المغفرة).

## ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [٤٠]

أليست واحدة من آلاء الله أن يميز المجرمين بعلامات وسمات ظاهرة تعرفها الملائكة وحتى غيرهم من البشر؟.

أليست نعمة من الله أن يميز المكرمين ويجعلهم على منابر من نور في ظل عرشه؟.

فبأي من هذه الآلاء تكذبان.

## ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ [٤١]

ولتسهيل فهم هذه الآية الكريمة نتعامل معها كشطرين منفصلين، **الشطر الأول:** ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ فقد فسر العلماء هذا الشطر من الآية بقولهم أن للمجرمين سمات تميزهم عن غيرهم وهي غالباً ظاهرةٌ واضحة، ويُعرفون بها حال خروجهم من قبورهم عند الحشر في الموقف.

فتظهر عليهم علامات منها اسوداد الوجوه، وزُرقة العيون، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ [آل عمران:١٠٦].

ويقول سبحانه: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ [طه:١٠٢].

كما وأن من بعض هذه الصفات ما يعلو وجوههم وما يغشاها من الكآبة والحزن بسبب سوء أعمالهم والخوف من سوء مصيرهم، كما قد يكون العمى والصمم والبكم بعضاً من هذه الصفات، وتزداد هذه الصفات تألقاً ووضوحاً عندما تظهر على وجوه عُتاة المجرمين. وكما أن للمجرمين سمات تنبئ عن سوء أفعالهم، كذلك للمؤمنين سمات تليق بمكانتهم مثل العزة والتبجيل الناجمين عن إسباغ الوضوء، ونضرة الوجوه التي تعكس ما بهم من فرحة غامرة.

وإن كان لي أن أدلي بدولي في هذا المقام، فسأعرض عليك أولاً الآيات التالية:

﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩] ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [محمد:٣٠].

﴿...ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ﴾ [الزُّمَر:٦٠].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [النحل:٥٨].

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَ﴾ [الحج:٧٢].

﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس:٤٠- ٤١] .

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾ [الغاشية:٢- ٣].

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطفِّفين:٢٤].

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾[الغاشية:٨- ٩].

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ [عبس:٣٨- ٣٩] .

ويوجد مثل هذه الآيات الكريمات في القرآن الكثير، وكلها تقول بصريح العبارة أن الله سبحانه جعل لكل شيء ولكل فئة من الناس سمات وصفات تشي عن واقع حالهم.

فجعل للصالحين سمات، وللمجرمين سمات، كذلك جعل للعلماء وللجهلاء، ولأهل الجنة ولأهل النار، ولطيبي الأعمال وخبيثي الأعمال جعل سمات بها تُعرف الأشياء فيمكن بواسطتها الحكم عليها..

ومن هذه السمات ما هو ظاهر ويعرفه الجميع، ومنها ما هو باطن (يحتاج إلى فطنةٍ وخبرةٍ بل وفراسةٍ أحياناً).

لذلك قيل: الحلال بيّن والحرام بيّن، وكذلك الشر والخير، والغضب والسرور، فلكل من هذه ومما شابهها علامات تظهر منذ الوهلة الأولى وبدون أن يفصح عنها صاحبها.

وبقليل من الفراسة تعرف الخبيث الماكر من الطيب الوادع، والكريم من اللئيم، أما المتعلم ذو المعرفة فيُعرف من حديثه، فتلحظ على محياه من الصفات ما لا تجدها في وجه الإنسان الجاهل أو البدائي الساذج الذي يُبنئ وجهه أنه فطير بسيط.

وما أوسع وما أعمق الفرق بين سمات المؤمنين الصالحين القانتين.. وبين سمات الكفار العصاة المجرمين.

فالمجرمون قد خصهم سبحانه بسمات وصفات تُسهّل التعرف عليهم حتى يسهل تجنبهم واتقاء شرورهم (وهذه من نعم الله علينا)، كما أن هذه السمات يعرفها الملائكة فتساعدهم وتسهل عليهم التعرف على هؤلاء المجرمين، فيسوقونهم ليتبوّؤا مقاعدهم من النار.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿... وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه:١٢٤]. وقال سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[الإسراء:٩٧].

وما اختلاف البصمة الوراثية، وبصمة الأصبع، ونوع فصيلة الدم ولون قزحية العين إلا أنواع من السمات يودعها سبحانه في الناس ليميز بعضهم عن بعض.

**أما الشطر الثاني**: من الآية الكريمة والذي يقول فيه سبحانه: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾، فقد فهمه علماؤنا على أن الله سبحانه عندما يأخذ، فغالباً ما يكون الأخذ للعذاب وللعقاب.

وعلى سبيل المثال لا الحصر أذكر لك ما يلي:

فأخذتهم الصاعقة ـ فأخذتهم الرجفة ـ فأخذتهم الصيحة ـ وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ـ فأخذناهم بالبأساء والضراء ـ أخذناهم بغتة ـ فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ـ فأخذهم الطوفان فأخذهم أخذة رابية...

غيض من فيض لأنواع أخذ الله سبحانه للعصاة الكفار.. وكما ترى فإن أخذ الله شديدٌ.

أسوق إليك الآن مجمل ما قاله المفسرون في هذه الجزئية من الآية: فقد قالوا: إن النواصي هي جمع ناصية، وهي الشَعر في مقدم الرأس، قالوا بهذه العبارة يبين لنا سبحانه طريقة أخذ ملائكة العذاب (الزبانية) للمجرمين، فمن المفسرين من يقول:

إن الزبانية تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي، ثم يسحبونهم ويلقونهم في النار.

ومنهم من يقول أن الملائكة تأخذ بناصية المجرم وبقدميه فتكسره (كما يُكسر الحطب في التنور) ثم تلقيه في النار.

ويقول آخرون: إن النواصي تُجمع مع الأقدام بسلاسل وراء ظهر المجرم حتى تكسر ظهره ثم يُسحب ويلقى في النار.

ويقول آخرون: إن الملائكة تسحبه إلى النار تارة آخذة بناصيته ساحبةً إياه على وجهه، وتارة تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه.. مشاهد عنيفة، ومصير جد صعب لكنه عادل (وقانا الله وحمانا منه) أن يُلقى المجرم في النار بهذه الطريقة أمرٌ يبعث على الرهبة، لكنك عندما ترى ما يفعله الكثير من المجرمين (في خلق الله وفي أوطانهم ومواطنيهم) دون مراعاة لضمير أو شرف أو إنسانية تقول: نِعم الأخذ أخذ ربك، إنه جزاء عادل.

فبعدما تتعرف الملائكة على المجرمين، وتحددهم بواسطة علامات وسمات واضحة عليهم، عندها لا بد من أخذهم إلى حيث يستحقون من العذاب، إلى نار الله الموقدة، لكن هل تعتقد أن الملائكة سوف تنقلهم بحافلات مكيفة أو بعربات فارهة؟ ما رأيك؟ الآية تجيب عنك!!.

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [العلق:١٥- ١٦] (نزلت هذه الآية في أبي جهل حين كان يتوعد الرسول ﷺ إذا صلى في الكعبة).

وكذلك يقول سبحانه: ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ [غافر:٧١].

(والسفع) هو القبض على الشيء بقوة ثم جذبه جذباً شديداً، وقيل إن السفع هو الحرق مثل سفعته النار أي أحرقت وجهه وجعلته أسود، ومثل هؤلاء المجرمين يلاقون ألواناً من العذاب والإهانة والإذلال جزاء وفاقا لما كانوا يعملون.

مباشرة بعد الحساب يبدأ العذاب بالسحب سواء على الوجه أو على الرأس، لكن الله سبحانه وإمعاناً منه في إذلال هؤلاء (الجبابرة في الدنيا) فإن الملائكة تسحبهم من مركز تكبرهم، فجعل سبحانه الناصية التي كانت مركز الأنفة والكبرياء جعلها موضع الإهانة

والإذلال، ومنها يُسحب المجرم إلى النار وفي هذه الحالة يستوي السحب على الوجه أو على البطن أو على الظهر، المهم أن مركز الاعتزاز الذي كان يتطاول به المجرم على خلق الله متكبراً في خُيلاء هو الذي يُسحب منه إلى النار، وهو الذي منه يُهان.

## ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٤٢]

قد تقول لي أين الآلاء هنا وأين هي النعم في هذه الآية؟

أقول لك: إن من أكبر النعم أن لا يفلت المسيء من العذاب، ومن العدل أن ينال الظالم والمجرم ما يستحقان من العقاب، ومن أكبر الكرم أن تجد من يأخذ لك حقك من مجرم طاغية باغ ظلمك في الحياة الدنيا!.

ألا يرضيك ما قاله سبحانه في حقهم؟: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج:١١- ١٤].

رُحماك ربنا ما أعظمك، تنتقم للمظلومين الضعاف، وتقصم ظهور الظلمة العتاة، يجري فيهم حكمك، ويحلُّ فيهم قضاؤك لا شفاعة لهم ولا فداء.

فلتطمئن قلوب المظلومين، ولتقر عيون المستضعفين، هذه ولا شك نعم وآلاء، فبأي منهما تكذبان؟.

## ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [٤٣]

قالوا في تفسير هذه الآية أن الزبانية سوف يقولون توبيخاً وتقريعاً للمجرمين: لقد أخبركم الله سبحانه بجهنم وتوعدكم بها، فكذبتم بوجودها وأنكرتم أنها سوف تكون،

والآن ها هي حاضرة أمامكم تشاهدونها وترونها رأي العين، حقيقة ماثلة للعيان أمامكم ولا مجال لإنكارها.

واعتقد أنه عندما تَسحب الزبانية المجرمين من نواصيهم ويصلون بهم إلى النار، سيقولون لهم وقبل أن يلقونهم فيها: ما رأيكم لقد كذبتم بجهنم وأنكرتم وجودها، وتحت هذا التكذيب والإنكار اقترفتم ما شئتم من المعاصي والآثام غير مصدقين بوجود النار.. والآن ولكي تصدقوا وتتأكدوا أن النار حق سوف نلقيكم فيها وستعرفون عما قريب ما هي جهنم وما هو طعمها، وكيف أنها المصير الأنسب والجزاء الأوفى للمجرمين الفاسقين المنافقين، ويكفيها قبحاً أنها مصير ومأوى هذا النوع من البشر.

لقد ورد ذكر جهنم في القرآن الكريم سبعة وسبعون مرة، ووردت فيه بعدة أسماء لها منها: النار ـ سعيرـ سقر ـ الحطمة- الجحيم.

وإليك بعضاً من مواقع جهنم في القرآن:

﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران:١٩٧].

﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ [آل عمران:١٦٢].

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٦].

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء:٥٥] ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النســـاء:٩٧] ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم:٢٩].

وهناك كثير من الآيات تتحدث عن جهنم.

لكن لماذا يكذب بها المجرمون ولماذا ينكرونها؟.

هل يعتقدون بعدم وجودها؟.

لا!!، لكنهم يكذبون بها غروراً، وضلالاً وختماً على قلوبهم، يكذبون بها لأنهم لا يريدون أن يصدقوا أو يتصوروا أنها هي مصيرهم ومأواهم!!.

ومَن يرجو ومن يقبل أن يكون هذا مآله ومأواه؟. لعل ذلك هو تكذيب الخائف الوجل الذي لا يريد أن يرتدع أو يثوب إلى رشده أو يعود إلى سواء السبيل.

قال تعالى على لسان الشيطان (لعنة الله): ﴿**وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا**﴾[النساء:١١٨] فلعل هؤلاء المكذبين من عداد ونصيب الشيطان.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [٤٤]

قال علماؤنا الكرام في تفسير هذه الآية: إن في هذا وصف لشدة العذاب الأليم الذي سوف يلاقيه المجرمون يوم القيامة.

فهم يطوفون ويترددون بل ويتراوحون بين التصلية بنار جهنم وبين الحميم الذي هو الماء والسائل الذي بلغ أقصاه من الحرارة، فلم يعد يُحتمل وكأنه الطعام الناضج على النار.

فهم بذلك يعذبون تارة في الجحيم، وتارةً أخرى يُسقَون ويصب على رؤوسهم الحميم، (الذي يقول البعض أنه النحاس المصهور الذي يُقطِّع الأمعاء والأحشاء).

ويُجسِّمُ آخرون هذا المشهد حين يقولون: إن المجرمين يُحرقون في نار جهنم، ومن شدة الألم ومن قسوة العذاب يستغيثون فتسعى بهم الزبانية إلى الحميم فيسقونهم منه ويصبون منه فوق رؤوسهم، ومن الهول يستغيثون ثانية فتأتي النجدة بأن يسعى بهم الزبانية إلى النار ثانية وهكذا يترددون، ومن شر البلاء والجزاء يلاقون.

﴿... يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج:١٩- ٢١].

أما الحميم فقد قالوا فيه عدة أقوال منها:

١- هو الماء أو السائل الذي انتهى حره وحميمه فأصبح على درجة من الحرارة لا يُطيقها البشر.

٢- سائل طبخه الله منذ خلق السماوات والأرض والآن يُسقى منه المجرمون ويغمسون فيه.

٣- هو السائل الحاضر الذي آن شربه وبلغ من الحرارة غايته ومداه.

٤- هو واد من أودية جهنم، يجتمع فيه صديد أهل النار، فيغمسون بأغلالهم فيه حتى تنخلع أوصالهم، ثم يُخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً، فيلقون في النار، وعلى ذلك يستمرون.

وبعون وبإلهام من الله أضيف بعض التوضيح.

فالطواف في الحج شرعاً هو الطواف سبعة أشواط حول الكعبة على شكل شبه دائري، ومنها المطوف وهو شخص حرفته ومهنته إرشاد الحجاج إلى ما يتعلق بمناسك الحج، ومنها أيضاً الطائف وهو العاسّ الذي يدور حول البيوت ونحوها ليحرسها (وبخاصة في الليل).

وفي المعجم الوسيط: طاف حوله، وبه، وعليه، وفيه.

والطواف قد يكون نوعاً من الدوران كما هو الطواف حول الكعبة كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨] وكقوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩].

وقد يكون الطواف هو التنقل بين مكانين ذهاباً وإياباً، فيأتي هذه المكان مرة ثم يأتي الآخر مرة ثم يعود إلى الأول وهكذا دواليك، ولعل هذا النوع من الطواف هو الذي ينطبق على الآية الكريمة: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾.

وهذا النوع من الطواف يشبه إلى حدٍ كبير (مع الفارق في السبب وفي الهدف) السعي بين الصفا والمروة فالسعي هنا هو تنقل بين مكانين ذهاباً وإياباً.

وما أكبر الفرق؟ (بل تنعدم المقارنة) بين الذين ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور:٢٤].

والذين ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾ [الإنسان:١٥].

والذين ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة:١٥٨].

نعود الآن إلى الآية الكريمة ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾. فمطلع الآية يمكن أن نقرأه (يطوفون) وقد نقرأه (يطَّوفون)، وفي كلتا الحالتين فهم يُنقَلون ويترددون بين الجحيم وحرها ولهيبها تارة، وبين الحميم الآن (الذي هو أشد حرارة) تارة أخرى، وبئس الطواف هو، وبئس الطائفون هم.

ربما كان هذا الطواف رحمة من الله وشفقة عليهم (لان مجرد التنقل والتغيير والتبديل حتى ولو كان بين عذابين، فهو نوع من تخفيف الألم ونوع من الراحة النفسية ولو للحظات على الأقل، فمجرد الاستفادة من فترة الانتقال هي في حد ذاتها مكسب) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩].

أم أنه زيادة في العذاب وفي الإهانة، فما أن تسمع زبانية العذاب استغاثته حتى يجد نفسه بكل الذل وبكل الإهانة يُسحب على وجهه، فينتقل من عذاب إلى عذاب أشد منه ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]. كما ويقول سبحانه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران:٨٨].

فلعله في هذه الحال قد ندم أن طلب العون واستغاث للنجدة (فحاله كالمستجير من الرمضاء بالنار).

وقد وردت كلمة حميم ومشتقاتها في القرآن الكريم واحداً وعشرين مرة وكان معظمها ينذر بالعذاب الشديد.

وفي أكثر من آية ينبئ سبحانه أن الحميم شراب أليم فيقول سبحانه أن الحميم شراب أليم فيقول سبحانه: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ [الأنعام:٧٠] + [يونس:٤].

وهناك فرق بين النار وبين الحميم ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج:١٩].

ويُشبّه سبحانه الحميم بالمُهل وهو فائق الحرارة ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٥- ٤٦] وللمهل أكثر من معنى أحداها أنه المعدن المصهور مثل الذهب والفضة.

والحميم قد يُسقاه المجرمون وقد يُصب فوق رؤوسهم ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٨].

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥] وقد يتبع الحميم الغساق ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص:٥٧] ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ:٢٥].

وكما هو واضح فإن معنى كلمة حميم هي سائل أو ماء بالغ الحرارة نحن نعلم ان الماء المغلي عالي وشديد الحرارة لكن حرارته لا تبلغ درجة حرارة الحميم ولا حتى قريبة منها، ولعل في ذلك إشارة واضحة في القرآن الكريم أن هناك ماء يمكن ان ترتفع درجة حرارته لأكثر من درجة غليان الماء والتي هي ١٠٠°م.

واعتقد أن في ذلك دعوة للإنسان لأن يبحث عن هذا الماء، لأنه ما دام قد ورد ذكره في القرآن فهو بالتأكيد موجود، وعلينا البحث عنه، وقد نجح الإنسان فعلاً في الحصول على ماء يغلي عند درجة حرارة أكثر من ١٠٠°م بكثير، وذلك عندما غلى الماء تحت ضغط أعلى من الضغط الجوي المعتاد، وكان هذا الغلي في أوانٍ خاصة تتحمل الضغط العالي، وبهذا الاكتشاف استطاع الإنسان أن يختصر الزمن اللازم لإنضاج طعامه، وكذلك توفير الطاقة اللازمة لذلك.

وقد يكون هذا الماء المشابه للحميم هو المسمى **بالماء الثقيل** (وهو الماء المستعمل في المفاعلات النووية) ولهذا الماء درجة حرارة عالية جداً.

وقد يكون الماء الذي ألمح به القرآن هو غير هذا وذاك..

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٤٥]

أليس في هذا العذاب الأليم ردعاً كافياً للمجرمين وللطغاة حتى يكفوا أذاهم عن خلق الله؟.

أليس في ذلك موعظة وتحذيراً لكل من تحدثه نفسه يظلم الناس وأكل حقوقهم أن يرتدع.

وإن كابر ولم يرتدع، أليس فيما سيناله من العذاب الأليم، والإهانة البالغة إحقاقا للحق، وإستعادة للمظالم من هؤلاء المجرمين.

أليس كرماً من الله أن يرسل لنا برسالة ويبعث لنا بإشارة تخبرنا أن هناك ماءً، أو سائلاً (هو الحميم) ترتفع حرارته إلى درجات عالية تفوق كثيراً درجة غليان الماء، وأن علينا أن نبحث عن هذا الماء.

وبفضل من الله اكتشف الإنسان أن هناك تناسباً طردياً بين درجة غليان الماء (أو أي سائل) وبين مقدار الضغط الواقع عليه، وبرفع الضغط الواقع على سطح الماء جعله يغلي عند درجات حرارة عالية جداً، فصنع بذلك قدور الضغط التي تُسرّع من نضج الطعام وتوفر الزمن والطاقة.

وبفضل من الله أيضاً اكتشف الإنسان (**الماء الثقيل**) الذي يستعمله في المفاعلات النووية لما له من حرارة عالية جداً لعلها مثل درجة حرارة الحميم.

أليس متعة لك أن تسمع في الدنيا، وترى في الآخرة أن من هضم حقك وظلمك يُسحب من ناصيته وتُنقِله الزبانية بين صنوف من العذاب إكراماً لك واستعادة لحقك؟.

**فبأي من هذه الآلاء تكذب رحمك الله؟.**

## ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [٤٦]

بعد أن أسهب سبحانه في وصف وتبيان حال المجرمين والعصاة من الإنس والجن، وبيّن لنا ما سوف يؤول إليه مصيرهم، وكيف أن جهنم بكل ما فيها من ألوان العذاب والحسرة والمذلة هي المأوى جزاء لم اقترفت أيديهم.

بعد ذلك أنتقل سبحانه موضحاً أجر ومكافأة أولئك الذين خافوا مقامة، واتبعوا أوامره، وابتعدوا عن نواهية.

انتقل سبحانه إلى وصف الجنة وأهلها، وما تزخر به من ألوان النعيم والسعادة، وما تضفيه على نفس المؤمن الصالح من متعة وراحة أبدية.

**بهذا الآية العظيمة بدأت آيات خير الجزاء إلى خير عباد الرحمن.**

فقد تعددت آراء المفسرين حول تفسير ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ وقبل أن نخوض في هذه التفاسير، نوضح بعضا من معاني الخوف، فالخوف هو توقع مكروه أو خطر عند ظهور إشارة متوقعة أو معلومة تنبئ بأن مكروهاً سوف يحدث، مثل استشعار الخوف من حيوان مفترس، وعكس الخوف هو الشعور بالأمان.

أما الخوف من الله تعالى فهو يختلف عن هذا النوع من الخوف، فالخوف من الله تعالى هو في الكف عن معاصيه وتحري طاعاته، ولذلك فقد قيل: لا يعد خائفا من الله من لم يكن للذنوب تاركا.

وقيل إن من أنواع الخوف من الله أن الرجل ينوي أن يقترف المعصية فيذكر الله سبحانه، فيقلع عنها ولا يأتي بها خوفا من الله...

وقد يقترف البعض الذنب في لحظة ضعف، حين تغلبه نفسه رغم خوفه من عقاب ربه، ونلحظ أن في ذلك جمع بين الخوف من الله وبين ارتكاب المعصية، وهذا نوع آخر من الخوف،

**والآن إليك بعض الآراء الواردة في تفسير هذه الآية:**

فمنهم من يقول: إن (**المقام**) هو اسم مكان، أي هو المكان الذي سوف تقف فيه الخلائق بين يدي الله يوم القيامة للحساب منتظرين ما سيحل بهم.

ومقام مثل هذا (لا شك أنه) لا يُحسد عليه إنسان، خاصة الجاحد لنعم الله، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦].

وقيل: إن ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ هو قيام ربه عليه وإشرافه على أعماله وأقواله وإطلاعه على سلوكه ومراقبته وهيمنته على تصرفاته وفي ذلك قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣].

والمقام مصدر أقام، وفي هذه الحالة يعود المقام إلى الشخص نفسه وليس لله... فيخاف الشخص مقامه بين يدي ربه يوم القيامة، ويتبع هذا الخوف ترك المعاصي، واجتناب المحارم والنواهي، والابتعاد عن الذنوب، وأن يؤثر الآخرة عن الدنيا، ويتيقن أن الآخرة هي خير وأبقى، ولمثل هذا الإنسان عند ربه جنتان، وفي ذلك يقول سبحانه:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠].

وبدهي والأمر كذلك أن الذي يخاف مقام ربه لا بد أن يؤدي جميع الفرائض ويجتنب جميع النواهي.

والى هذه الاجتهادات أضيف ملاحظة، سائلا الله أن يوفقني بها، وهي أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ...﴾ ولم يقل لمن خاف ربه،

ففي الحياة الدنيا نحن لا نخاف الأشخاص لأنهم بشر مثلنا، ولهم علينا الاحترام إن كانوا محترمين، ولهم غير ذلك إن لم يكونوا محترمين. فالشخص بذاته لا تخافه الناس لكن يخافون مقامه ومنصبه ومركزه، فالوزير بوزارته والضابط بسلطته والرئيس بمنصبه، والمجرم بإجرامه، لكن عندما يتخلى أو يُبعَد أي من هؤلاء عن مقامه أو مركزه، فيعود شخصا عاديا لا خوف منه.

لكن في هذه الآية يبين سبحانه أنه على رغم رحمته ولطفه إلا أن ذاته العليا وعظمته وجلاله لو اطلع عليها أي عاقل فلا يملك إلا أن يُجلها ويحترمها احتراماً يصل إلى حد الخوف من غضب هذه الذات العلية.

فهو لا يذكّرنا بأن نخاف ذاته، لأنها أصلا مُهابة، جليلة (وكيف لا وهو الجبار – المنتقم – المذل- القادر- القهار.....)

فأمر الاحترام والخوف من ذاته هو أمر مقطوع فيه، خاصة لمن يعرفه ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

لكنه يجازي الخلق ويثيبهم بمقدار خوفهم من مقامه ومكانته وعزته، فالذي يخاف مقام الله هو المهتد ولا جزاء له غير الجنة،

وبالنظر في بعض آيات القرآن الكريم نُلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد ربط الخوف بمقامه أو بأشياء أخرى غير ذاته حيث يقول سبحانه: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ [البقرة:١٨٢]

ويقول: ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِ﴾[هود:١٠٣]

ويقول: ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤]

ويقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ [التوبة:٢٨]

ويقول: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ [الأنفال:٥٨].

أما ذاته سبحانه فقد ربط بها الخشية، لأن مع الخشية يكون الاحترام والتقدير، والمعرفة الحقة لمن تخشاه.

كما أن الخوف يزول بزوال مؤثره أو مسببه، لكن الخشية دائمة لأنها ناتجة عن معرفةٍ، وعن تقدير، وعن احترام، وقناعة بمن تخشاه.

وبذلك تكون الخشية أكثر دواماً وأكبر أثراً، فهي مرتبطة بالذات الإلهية وفي ذلك قال سبحانه:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

ويقول: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:٩].

ويقول: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

ويقول ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة:٤٤].

ويقول: ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:١٣].

ويقول: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة:١٨].

وكما أن هناك علاقة بين الخشية وبين الخوف فإن هناك علاقة بين مقام الله سبحانه وبين ذاته.

وكذلك حار المفسرون واختلفوا في تفسير معنى ﴿جَنَّتَانِ﴾ ؟.

فمن قائل: إنهما جنتان، واحده للولي والأخرى لأزواجه.

وآخر يقول: إنهما جنة لفعل الطاعات وخوفه من ربه، والأخرى لترك المعاصي وترك شهوته.

ومنهم من قال: إن إحداهما كل ما فيها هو من ذهب. والأخرى كل ما فيها من فضة.

وقال آخر: إن إحداهما هي منزله ومحل زيارة أصحابه وأحبابه، والأخرى منزل أزواجه وخدمه.

وقيل: إن إحداهما مسكنه والأخرى بستانه، كما قيل: إن أحداهما أسفل قصره والأخرى في أعاليه، وقيل هما جنة عدن وجنة النعيم، كما وقيل: إنهما واحدة للخائف الإنسي والأخرى للخائف الجني، وقيل جنة لعقيدته والأخرى لعمله، وقيل جنة روحانية والأخرى جسمانية (الأوصاف المبينة تصف الجنة الجسمانية). وقيل إنهما منزلان يطوف بينهما.

كما قيل: جنة يثاب بها والأخرى يُتفضل بها عليه، وقيل جنة داخل قصره والأخرى خارجه.

ويرى آخر أنه عندما يجلس ولي الله على شرفه قصره تكون له جنتان واحدة علي يمنيه والأخرى على شماله، واستشهد صاحب هذا الرأي بالآية التي تقول:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ:١٥]

ويعلل العلماء أن تخصيص الجنتين هو مزيد من السعادة والهناء، ولكي يضاعف له السرور بالتنقل بينهما من واحدة إلى أخرى، ومعلوم ما للتنقل من أثر طيب على النفس خاصة التنقل بين الجنان لا كما يُنقل المجرمون بين جهنم وبين حميم آن، وفي التنقل تتوفر دواعي السرور وتظهر ثمار السعادة.

كل ما سبق من احتمالات معقول ومقبول ولا تضارب فيه، ويا لسعادة من يفوز بالجنة مهما كان احتمال نوعها مما سبق!!

وفي تصوري أن الجنتين هما على شكلين مختلفين، واحدة منهما عبارة عن حديقة عامة وبستان مشترك لكل أهل الجنة أو للجيران وهي متاحة للجميع، بها يلتقون ويمرحون، وبثمارها ينعمون، وعلى خضرتها يتسامرون ويقضون الأوقات المشتركة (ولله المثل

الأعلى)، كما هي الحدائق العامة التي تنشئها الحكومات المتحضرة لشعوبها (طبعا مع الفارق بما فيها من مساحات خضراء ترتاح لها النفوس ويلتقي فيها الأصحاب يقضون أوقاتا سعيدة في جو من الهواء النقي).

أما الجنة الأخرى فهي حديقة خاصة بولي الله وبأزواجه وخَدَمه، بها ما لذ وطاب من الثمار والخضار وما جَمُلَ من الورود والأزهار، لا يشاركه فيها أحد ولا يضايقه فيها إنس ولا جان، فهي مقصورة عليه وعلى أزواجه يمارس فيها حياته الخاصة وسعادته الذاتية لا يعكر صفوه أحد ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٥- ٥٨].

سالماً من نظرة غريب، أو مضايقة عابر سبيل، ويتوفر في هذه الجنة كل ما يشتهيه هو شخصيا من ثمار وفواكه غير تلك الموجودة في الجنة العامة المشتركة.. هذا اجتهاد لعله وافق الحقيقة أو قاربها. والله أعلم.

## ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٤٧]

بأية من هذه الجنات وبأية من هذه الآلاء وبأية من هذه النعم تكذبان؟

هل تكذبان بأن وهب سبحانه لكل منكم جنتين؟ أم تكذبان بجمال هاتين الجنتين؟ أم بمساحتِيهما المترامية الأطراف؟ أم بما يحويانه من ياقوت وزمرد ولؤلؤ وثمار، أخبروني بماذا تكذبان؟؟

ليتكم تقولون كما قال الجن: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، لك الشكر ولك الحمد...

## ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ [٤٨]

لقد اتفق المفسرون إلى حد كبير في تفسير هذه الآية ولم يتخذوا في فهمها سوى منحيين فقط هما:

١- قال بعضهم: إن الأفنان هي **جمع فن**، والفن في اللغة هو النوع، وهذا يعني أن الجنتين تحتويان أنواعا شتى من الفواكه والثمار والأشجار والنباتات التي تطرح مختلف أنواع الثمار وما طاب من الفواكه ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ [الواقعة:٣٢- ٣٣].

كما وقال سبحانه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٧٣].

٢- وقال آخرون: إن الأفنان هي **جمع فنن** وهو ما دق ولان من الأغصان، وهي الأغصان الصغيرة الندية النضرة، وغالبا ما تكون مستقيمة لصغرها، وهي متفرعة من فروع الشجر، وخصّها سبحانه بالذكر وجعلها في هذه الجنات لما تحمله من أوراق غضة خضراء ولما لها به من ظل ظليل، ولكونها مزدانه بشتى صنوف الفواكه... أغصان وارفة الظلال غزيرة الأوراق، تُبعد وتزيل الهم والملل(رغم أن الجنة خالية من أي همٍ ولا يوجد فيها ملل ولا حزن)

وفي هذا المعنى يقول الشاعر أحمد شوقي:

عصفورتان في الحجاز حلتا على فنن

تبعث أفنان البهجة والحبور في نفوس أولياء الله الساكنين لهذه الجنان، تسرهم وتبهجهم إن جلسوا تحتها أو استظلوا بظلها أو تنعموا بألوانها أو أكلوا ثمارها.

تشكل هذه الأفنان لوحات ربانية لا يمكن وصف روعة جمالها ولا مدى ما تبثه في النفس من راحة ومن سعادة، ولك أن تتصور ذلك عندما تدخل حديقة أو بستاناً مُعتنى به على هذه الأرض، فكيف بالأفنان في الجنة؟.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٤٩]

أبأنواع من الفواكه التي لا حصر لها، ولا شبيه للذة طعمها، تكذبان؟

أم بأغصان خضراء ندية وارفة الظلال تتدلى عليكم بكل ما فيها من جمال ورقة تكذبان؟

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [٥٠]

قال المفسرون في هاتين العينين: إنهما تجريان بماء غزير سهل ويسير، وأن ماءهما زُلال، وهما تجريان لسقى أشجار الجنة لكي تطرح الثمر من جميع الألوان.

كما وقالوا: إن إحداهما هي التسنيم والأخرى هي السلسبيل. وقال البعض: إن إحدى هاتين العينين تجري بماء غير آسن بينما الأخرى تجري بخمر لذة للشاربين.

وهناك من يعتقد أنهما تجريان تكريما لمن كانت عيناه في الدنيا تدمعان من مخافة الله. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله (رواه الترمذي) حديث حسن.

وكما تلاحظ فإنه لا تناقض ولا تعارض بين هذه التفاسير، لكنني أضيف هنا إن جريان الماء هو في حد ذاته نعمة ومتعة كذلك، وهو مَيزة عن العينين اللتين في الجنتين الأدنى، فهناك عينان نضاختان، بينما هنا عينان تجريان، وجريان الماء فيه من جمال المنظر ما يسر النفس.

كما أن جريان الماء يُذهب الملل والخمول، وبل يجدد النشاط والحيوية.

كما أن مع جريان الماء ينتج صوت جميل هو خرير الماء، وكم من الناس يشعرون بغاية المتعة مع صوت خرير مياه الدنيا، بل إن منهم من يعشق سماع هذا الصوت فكيف بخرير جريان مياه في الجنة.

إنه موسيقى الطبيعة الحقيقية، ولحن من ألحانها الشجية التي وهبها الله سبحانه لنا.

أما شكل هذا الجريان فنحن لا نعرفه إلا عندما ندخل الجنة (ان شاء الله)، فقد يكون على شكل شلالات هادرة جميلة، أو قد ينزل من رؤوس الجبال منسابا رقيقا، أو قد يتهادى فوق حجارة الجنة التي يعتقد البعض أنها من الياقوت والزبرجد والكافور، كما يعتقد البعض أنه ينحدر من فوق جبال من المسك.

وإن أحدا لا يدري مدى جمال هذه العيون ونوع حصاها ومنظر حوافها شواطئها..

على أية صورة ستكون هذه العيون لا أستطيع أن أجزم، لكنني أؤكد أن جمال هاتين العينين وجريانهما هو في غاية الجمال، فهو جريان لا نعرفه ولا نتصوره لأنه يسير حسب نواميس الآخرة التي وضعها الله له.

وقد يتساءل سائل هل هاتان العينان مختلفتان أم متشابهتان؟ هل بهما نفس السائل أم يختلف؟

والله أعلم أنهما مختلفتان، وقد تكون واحدة في الجنة المخصصة بولي الله ولضيوفه، وهذه يجري فيها سائل يناسب هؤلاء الأولياء، بينما العين الأخرى فهي خاصة بوَلّي الله وأزواجه وخاصته، وبها من السائل ما يناسب هواهم ورغبتهم، وحولها يجلسون ولا مانع أن يكون الاختلاف بينهما في الحجم أو بكمية السائل أو بطريقة جريانه أو بنوع السائل في كل منهما.

كما أن تضاريس جريان كل عين قد يختلف عن الآخر كما أن الله سبحانه لم يحدد نوع السائل فيهما، فقد يكون ماء زلالاً وقد يكون لبناً سائغاً، وقد يكون عسلاً مصفى، ولعله يكون خمراً لذة للشاربين.

ومهما كان حال هاتين العينين فاسأل الله أن يكحل أعيننا برؤيتهما.

## ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٥١]

أبالماء السلسبيل، أم بصوت الخرير، أم بجري الماء كالحرير تكذبان؟؟ ابالشلالات أم بالخمر أم باللبن أم بالعسل تكذبان؟ أم أنكم من الشاكرين الحامدين؟ عساكم تكونون كذلك.

## ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [٥٢]

لقد كان مجمل ما قاله مفسرونا الأجلاء في هذه الآية الكريمة، هو أن جميع أنواع الفاكهة وأصنافها متوفرة ومتاحة بكثرة في هاتين الجنتين...

كما أن من هذه الفاكهة ما هو معروف لنا في الحياة الدنيا، ومنها الذي لا نعرف عنه شيئا، حتى اسمه،

وكلا هذين النوعين له من لذة الطعم وحلو المذاق ما لا نعهده وما لم يسبق لنا تذوقه أو إحساسه في حياتنا الدنيا.

أما معنى زوجان فلعله أن لكل فاكهه صنفان، وضربان يشتركان في الاسم ويختلفان في الطعم والمذاق وهبهما الله لأوليائه.

ومن صور تفسير ﴿زَوْجَانِ﴾ أنهما صنفان أحدهما طري رطب وغض والآخر يابس وصلب، لكن لكلاهما نفس الفضل ونفس الجودة والطعم.

وبما أن (للناس فيما يعشقون مذاهب)، فإن لكل ولي في الجنة مذهبه فيما يعشق، ولذلك فقد مَنَّ سبحانه وتعالى وعلى كل ولي فأعطاه ما يحب ويهوى.. وليس هذا الكرم على الله بكثير!!.

وإن جاز لي أن أضيف شيئا لزيادة فهم هذه الآية فإني أقول:

إن الفواكه موجودة ومتوفرة في كلا الجنتين على السواء وظاهر القول إنهما يحتويان

على كل أنواع الفواكه، ولم لا وهما جنتان ذواتا مقام عال!..

وقد قال (ﷺ): إن في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولم يخطر على قلب بشر.

من ذلك يُفهم أنه يوجد في الجنة أشياء لم نرها من قبل ولم نسمع بها، بل ولم تخطر على بالنا ولا على قلبنا، ومن هذه الأشياء أنواع من الفاكهة، توجد في الجنة ولا توجد في الحياة الدنيا.

وقد تعني كلمة زوجان أنهما صنفان أحدهما ألفناه في الدنيا وعرفناه وذقنا طعمه وتلذذنا بمذاقه، وصنف آخر وإن كان من نفس الفاكهة لكنه بالنسبة لنا جديد لم نعرفه ولم نره من قبل.

جميعنا يعرف أن علماء النبات استطاعوا بعملية الانتقاء وبعمليات التهجين وبعمليات التطعيم وبعمليات النقل والتغيير والتبديل في التركيب الجيني والبيئي للنبات وبفعل عوامل الطفرة، استطاعوا أن ينتجوا من النوع الواحد مئات الأصناف التي تنتمي إلى نفس النوع لكنها تختلف في الكثير من الصفات وفي الطعم وفي المذاق (كلنا يعرف أن للتفاح مئات الأصناف وكذلك للنخيل والتمر وكذلك للقمح ولغيرها).

إن كان الإنسان بعلمه القليل المحدود تمكن من ذلك!! فكيف بالخالق القدير العليم؟؟؟ إن ذلك على الله يسير. والله قادر أن ينتج من الأزواج ما لا نعرف ولا نتخيل. ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩].

ولعله سبحانه قد أراد أن يرسل لنا إشارة واضحة صريحة بكلمة واحدة هي ﴿زَوْجَانِ﴾ لنتعلم منها، ونكتشف أن الأشجار مثل البشر ومثل الحيوان منها أزواج مذكرة وأزواج مؤنثة.

ولكي تطرح هذه الأشجار الثمر لا بد لها من عملية تلقيح تتبعها عملية إخصاب بين الزوج المذكر والزوج المؤنث، كما ويريد سبحانه أن يُعلمنا أن التكاثر في النبات ليس خضريا فقط بل إن هناك أيضا تكاثراً جنسياً، وقد وصلت هذه الإشارة وهذه الرسالة

لعلماء النبات وتحققوا من هذه المعلومة بل واستفادوا منها في إنتاج أصناف جديدة، بل ومحسنة من الفواكه والخضر والمحاصيل لم تكن موجودة من قبل.

وقد يكون معنى زوجان هو أن زوجاً منهما خاص بالأنس وزوج آخر خاص بالجن لان مقام كل منهما يختلف عن الآخر.

كما قد يكون معنى زوجين أن زوجا منهماً للرجل، والزوج الآخر لأزواجه في الجنة بحيث يتوفر لكل منهما ما يشتهي وما تقر به عينه، فلربما يكون طعام ومذاق حوريات الجنة يختلف عن طعام ومذاق ورغبة الإنس أو الجن وهذا ضرب من ضروب عدل الله وكرمه على خلقه من إنس وجن وحوريات.

كما قد يكون زوج من الفاكهة في الجنة العامة يناسب مذاق الجميع وتطلبه نفس جميع سكان الجنة وأستطيع أن أقول إن هذا زوج (جاهز)، أما الزوج الآخر فهو (تفصيل مفصل على مذاق الشخص نفسه ولذلك فهو يكون في جنته الخاصة به وبأزواجه)، وبذلك تتحقق المتعة بكامل صورها... هذه بعض التصورات والتخيلات لمعنى زوجين والله أعلم بقصده وبمراده في هذه الآية.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٥٣]

بأي من هذه النعم تكذبان؟؟ أبمختلف أنواع وأصناف الفاكهة؟ أم بوفرتها، أم بحرص الله على تعليمكم بطرق تكاثر النبات، أم بعدالة الله في توزيعه لهذه الثمار على أهل الجنة؟

**ليتكم تقولون: ولا بأي منهما نكذب، بل نشكرك ونحمدك يا رب.**

## ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ ... ﴾[٥٤]

وكما عودنا الله ورسوله في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة أن يبين لنا ما دق من أمور حياتنا، ويشرح ويوضح لنا أفضل السلوكيات التي تضمن لنا حياة سعيدة هانئة.

فيبين لنا سبحانه وتعالى هنا في هذه الآية بعضا مما سيكون عليه حالنا في الجنة، فهو بذلك يُوضح لنا طريقة: جلوسنا، وطريقة استرخائنا واضطجاعنا هناك بما يمنح أجسامنا الصحة والراحة، كما ويبين لنا سبحانه على ماذا سوف نتكئ.

فبعد أن ذكر لنا سبحانه ما أعد للذين (يخافون مقام ربهم) من أشجار وأغصان وظلال ومن ثمار وينابيع جارية، وذكر لنا أيضاً بعضاً من طعام أهل الجنة. (من فواكه بأنواعها وأصنافها)، عاد سبحانه ليخبرنا بطريقة جلوسهم، وكيف أنهم سوف يجلسون متكئين، والاتكاء هو أكثر أنواع الجلوس راحة للجسم وللأعصاب.

نعود الآن لنعرف معنى متكئين:

فهناك من يقول: إن متكئين هي حال عامله محذوف وتقديره: ينعمون متكئين.

أما الاتكاء فيقال: إنه الاضطجاع، كما ويقال: إنه الجلوس على صفة التربيع،

وسواء أكان الاتكاء هذا أم ذاك فهو ينم عن حالة من السعادة والرضى وعن صحة الجسم وفراغ القلب من الهموم والأحزان. والاتكاء يكون في الغالب مؤشراً على حالة من النعيم والسرور (والله أسأل أن يجعلنا من المتكئين).

وفي العادة لا نرى في الحياة الدنيا من يتكئ وهو مهموم أو محزون أو مشغول البال، وذلك لان الإنسان عندما يتعرض لمثل هذه الظروف، فإن جسمه يتحفز وينشط فيزيد من إفراز هرمون الأدرنالين، هذا الهرمون المُنشط الذي يزيد طاقة الجسم، ويسرع من دقات القلب وحركة الأعضاء، كل ذلك لمجابهة هذه الظروف، فهل تعتقد ان الجسم والحال كذلك يمكنه أن يتكئ؟.

أنا لا أتصور ذلك، بل أقول: لا يتكئ إلا من كان سعيداً مرتاح البال، وأي الناس أكثر راحة بال من أولياء الله الذين أنعم عليهم بأن جعل لكل منهم جنتين وليس جنة واحدة؟.

بل وفي رواية أخرى جنات وجنان وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة:٢٥].

بعد أن عرفنا معنى متكئين، دعنا أن نعرف على ماذا يتكئون؟

يقول سبحانه: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن:٥٤]

ويقول سبحانه: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ [الكهف:٣١].

ويقول سبحانه: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور:٢٠].

ويقول سبحانه: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُّتَّكِئِينَ﴾ [الواقعة:١٦].

ويقول سبحانه: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن:٧٦].

وهذه الآيات تبين لك حرصه سبحانه على راحة وسعادة أوليائه فقد هيأ لهم الاستبرق والأرائك والسرر المصفوفة والسرر الموضونة وكذلك الرفرف العبقري كل ذلك ليتكئوا عليه ليوفر لهم كل راحة وسعادة.

إنهم يتكئون على فُرُش ويقال لها أحيانا فَرْش (وليس على فرشة واحدة كما نستعمل في الحياة الدنيا)، وإن لهذه الفُرُش العديد من الطبقات، ولكل طبقة دورٌ تساهم فيه بقسط من الراحة والاسترخاء وكذلك لكل طبقة دور صحي لمن يتكئ عليها.

(حتى أن بعض الفرشات غالية الثمن ومتوفرة في الحياة الدنيا تتكون من طبقات متعددة، ومختلفة التركيب لكل منها دور صحي لمن سينام عليها).

وفي وصف هذه الفرش اكتفى سبحانه بأن يصف لنا طبقة واحدة من طبقاتها، بل

اكتفى بوصف البطانة فقال سبحانه: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الرحمن:٥٤].

وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على علو شرف هذه الفرش، لأنه ما دامت البطانة بهذا الوصف وبهذا التركيب فما ظنك بحال الظهاره؟.

إن كانت البطانة مصنوعة من إستبرق يقال: إنه الديباج الغليظ الخشن، ويقول البعض: إنه المخمل الحرير الموشى بخيوط الذهب، وأياً كان هذا الإستبرق فإنه لا شك يوفر لمن يجلس أو يتكئ عليه كل الراحة، بل لعل الخشونة الموجودة في هذا الديباج توفر قسطا من المساج الذي يُنْعِم على الأعصاب والعضلات وعلى الأوعية الدموية بالاسترخاء والسكينة.

ولا شك أن لكل طبقة من هذه الفرش من التركيب ومن السماكة ومن الخشونة والنعومة ما هو مدروس ومحسوب ومقنن بما يكفل الهدف الذي خلقه الله من أجله.

أعود وأقول إن كانت هذه هي البطانة المخفية فكيف يكون حال الظهارة التي فوقها والتي هي بادية وظاهرة للعيان؟

## ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ [٥٤]

من حسن حظنا أن اتفق مفسرونا (بارك الله فيهم) على تفهم وتفسير هذا الجزء من الآية الكريمة.

فقد أجمعوا على أن الشجرة تدنو من ولي الله سواء بكاملها أو بأغصانها أو بأفنانها، مما يتيح له جني ما يشتهي من ثمارها مما لذ منه وطاب، ويقطف ما تطلبه نفسه من هذه الثمار دون تعب أو مشقة.(لا كما هو الحال في الدنيا).

بل إن الأغصان والثمار تقترب منه مُتيحةً له أن يقطفها ويجتنيها سواء أكان قائماً أم جالساً أو مضطجعاً، بل وحتى إن كان مستلقياً، ومن المفسرين من يقول: إنه لا داعي له أن يستخدم يديه بل إن الثمر قد يصل إلى فمه دون أن يبذل جهداً.

وفي حالة كهذه لا يمنعه عن الحصول على الثمار لا بُعدٌ ولا شوكٌ.

ومنهم من يعتمد في تفسيره هذا على قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 22-٢٣].

وعلى قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان:١٤].

ومن المفسرين من يرصد ثلاثة فروق بين أشجار وثمار الدنيا وأشجار وثمار جنة الآخرة وهي:

أ ـ الثمار في الدنيا تكون على رؤوس الأشجار، بعيدة عن يد الإنسان المتكئ، لكنها في جنة الآخرة تتدلى للمتكئ فيقطفها.

ب- في جنة الدنيا يسعى الإنسان إلى الثمرة ويتحرك نحوها ليقطفها أما في جنة الآخرة فهي التي تتحرك وتسعى وتدنو منه.

ج- في جنة الدنيا إذا اقتربت منك ثمرة ابتعدت عنك الثمار الأخرى، لكن في الآخرة فإن كل الثمار تدنو وتقترب منك مع بعضها مرة واحدة.

إن لم يكن جميع ما قاله علماؤنا في تفسير هذه الآية صحيحا، فإن معظمه مقبول وصحيح، وأتمنى لو أضيف شيئاً هنا زيادة في التوضيح:

فكلمة ﴿وَجَنَى﴾ تعني الحصول والثمر والرزق الذي توفره هذه الجنان، ومن صفات هذا الجني أنه قريب من أيدي أولياء الله، وسهل التناول بل ومتيسر المنال لكل من يشتهيه.

فهو قريب لا يحتاج تناوله لأي مجهود بل لعله سهل المضغ والبلع والهضم، ويحتوي على كل ما تشتهيه النفس من لذة طعم وطيب مذاق بل انه يحتوي على جميع العناصر الغذائية الأساسية والفرعية اللازمة للجسم.

وقد يعتقد بعضنا (مُحقاً) أن سهولة الحصول على هذه الثمار (حتى أنها كما يقول بعض المفسرين تأتيك قائماً أو جالساً أو مضطجعاً)، يُعتبر ضربٌ من الدلع والدلال الزائد، فقد يكون ذلك في عرف أهل الدنيا غريباً ومستهجناً، وذلك لأنهم لا يعرفون

نواميس وقوانين وطرق توفر المتع لأهل الجنة، وبذلك لا يحق لنا أن نظن أن هذا ضربٌ من الدلع، فمثلا نحن في الحياة الدنيا نُخرج ما نأكل، بينما أهل الآخرة في الجنة لا يُخرِجون، وعلى هذا المقياس يكون الذي نعتبره دلعاً في الدنيا، أمرا طبيعيا ومألوفا في الجنة.

فَمَن أعرافِنا في الدنيا أن من أسباب لذة الطعام أن نبذل الجهد في الحصول عليه، وكذلك في تجهيزه، كما قال الرسول الكريم (ما أكل إنسان طعاما خيرا من جنى يده) لكن ليس من الضروري أن يكون هذا هو عُرف وناموس الآخرة ولا نظامها.

مداخلة أخرى أسجلها: فما المانع أن يكون معنى كلمة ﴿دَانٍ﴾ هو المنخفض والمتدني والقريب من سطح الأرض وليس هو القريب من الشخص كما يقول معظم بل جميع المفسرين ؟؟

ما المانع أن تختص الجنة بصفة تميز أشجارها عن أشجار الأرض، فتكون أعالي أشجار الجنة وفروعها العالية كاملة الخضرة، غضه يانعة ولا تحمل أية ثمار حتى لا تكون بعيدة عن أيدي أولياء الله، حتى وإن حملت هذه الأغصان الثمار، فهذا الحمل يكون لجمال المنظر وللمتعة وليس للأكل، بينما الأغصان والأفنان المتدنية و القريبة من سطح الأرض والقريبة من الناس هي المُحملة بالثمار وبالفواكه لكي يسهل الحصول عليها، وبهذه الميزة تُوفر أعالي الأشجار البهجة وجمال المنظر والبيئة النقية، كما يوفر أدنى هذه الأشجار الثمار، ولعل الآيتين السابقتين يؤيدان هذا التصور، فمثلا عندما يقول سبحانه: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ما المانع أن أفهم أن هناك مقابلة بين علو وارتفاع الجنة ودنو وهبوط قطوفها فسكان الجنة ليسو بحاجة لتسلق الأشجار للوصول إلى الثمار.

كما ويقول سبحانه: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ فدنو الظلال هنا لا يعني اقترابها، بل لعله يعني نزولها وتغطيتها لمن هم تحتها وفي ظلها وفي كنفها، وكذلك تذليل القطوف فلعله يعني نزولها وانخفاضها لمستوى الجالسين في ظل أشجار الجنة،

أكثر مما يعني اقترابها منهم.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[٥٥]

أ بالفرش أم بالإستبرق أم بالديباج أم بالحرير أم بالثمار أم بالفواكه أم بقربها من أيديكم، أم بسهولة الحصول عليها والوصول إليها، أم بعظمة وروعة وفائدة فرش الاتكاء المجهزة لكما تكذبان؟.

قولا لي بأية من هذه النعم تكذبان !!!

﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾[٥٦]

إنك لو دققت النظر لوجدت أن الله سبحانه وتعالى عندما تحدث عن موجودات الجنة مثل ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾، ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ ﴾، ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ ﴾.... إلخ استعمل كلمة (فيهما) وطبعا فيهما تعود إلى (الجنتان).

بينما عندما تحدث عن قاصرات الطرف أو عن الحور أو عن الخيرات فقد استعمل كلمة ﴿ فِيهِنَّ ﴾ ولم يقل ﴿ فِيهِمَا ﴾ ومع علمنا الأكيد أن كل كلمة بل كل حرف في القرآن موضوع في موضعه الصحيح الدقيق الذي لا يحل محله ولا يقوم مقامه غيره. لذلك فأنا أتساءل لماذا استعمل سبحانه هنا كلمة ﴿ فِيهِنَّ ﴾ ولم يستعمل كلمة ﴿ فِيهِمَا ﴾؟.

مع العلم أن الله سبحانه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[الأنبياء:٢٣].

أنا أعتقد أن الضمير في كلمة ﴿ فِيهِنَّ ﴾ لا يعود إلى الجنتان بل يعود إلى غرف أولياء الله

في جناتهم، وفي غرفهم الخاصة التي لا يشاركهم فيها أحد، بل ولا يدخلها أو يراها أحد غيرهم، هم وأزواجهم وبذلك قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ [العنكبوت:٥٨] كما قال سبحانه: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ:٣٧].

يلاحظ أن الغرفات جمع وليس مثنى فقد قال سبحانه: ﴿الْغُرُفَاتِ﴾ ﴿غُرَفًا﴾ وهذا يتوافق مع ﴿فِيهِنَّ﴾، كما قال سبحانه: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾، نعم آمنون من نظر غيرهم.

كما قد تعود كلمة ﴿فِيهِنَّ﴾ إلى الأرائك حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦)﴾ [يس:٥٥- ٥٦].

كما وقد تعود كلمة ﴿فِيهِنَّ﴾ إلى الفرش، أي الفرش التي تنام عليها أزواجهم معهم ولا يشاركهم فيها أحد، حيث يقول سبحانه: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ..﴾ ويقول بعض المفسرين: إن ﴿فِيهِنَّ﴾ تعود إلى الجنتين.

كلمة ﴿فِيهِنَّ﴾ وفيها نون النسوة تستعمل للنسوة ولا تستعمل للجمادات، أما الجمادات فيستعمل لها كلمة ﴿فِيهَا﴾.

## ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ [٥٦]

فبعد أن حاولنا معرفة معنى كلمة ﴿فِيهِنَّ﴾، نحاول تفهم معنى ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾.

قال سبحانه: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ ولدقةٍ في القرآن الكريم قال سبحانه: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ ولم يقل قاصرات النظر أو البصر أو العيون، بل قال سبحانه: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾. والطرف هو أقل واصغر من كل ذلك.

حتى طرفة عين هذه الزوجات الشريفات العفيفات تكون قاصرة ومقصورة على أزواجهن، ولا أحد غيرهم، فطرفها مقصور على زوجها الذي كتبها الله له وكتبه لها ولا تتعداه.

وطرف هذه الزوجات قصير لا يخرج من غرفتها ولا يلمح رجلا غير زوجها، لأنها له، وله فقط حتى طرفة عينها فهي مقصورة عليه لوحده..

هل تعلم لماذا كُل هذا القصر والتحديد؟؟

ما سأذكره لك هو اجتهاد وليس بالضرورة هو الجواب المحكم الصحيح!!

إن الله سبحانه يعلم ماذا وضع في نفس الرجل الحر الشريف من غَيْرَةٍ عارمة، وحرص شديد على زوجته، التي هي عِرضُهُ وشرفه... فهو لا يقبل ولا يسمح لها أن تنظر لغيره، ولذلك فقد خلقها الله سبحانه لتفي بهذا الغرض وتغطي هذه الغريزة، فجعل طرفة عينها قصيرة لا تعدو زوجها... بل اسكنهن في غرف خاصة في الجنة ولعل ذلك يؤكد التفسير السابق لكلمة ﴿فِيهِنَّ﴾ فهؤلاء الزوجات في الغرف ولم يقل في الجنات رغم أن هذه الغرف موجودة في الجنات، لكنه سبحانه يخصص ويحدد مسكن قاصرات الطرف، وهو بذلك يضمن أن لا يعكر صفو أوليائه ولا ينتقص من سعادتهم ومتعتهم أحد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

حين نزلت آية الحدود واللعان، قال رسول الله ﷺ إذا دخل أحدكم على أهله ووجد

ما يريبه أشهد أربعة.

فقال أبي ثابت سعد بن عبادة (وكان رجلاً غيوراً): ءَأجد في أهلي ما يريبني ثم أنتظر حتى أتي بأربعة شهداء؟

كلا والذي بعثك بالحق إني كنت لأعاجلهما بالسيف غير مصفح، وليفعل الله بـي مـا يشاء!

فقال رسول الله ﷺ: كفي بالسيف شاهداً، أتعجبون من غَيْـرةِ سـعد، واللهِ لأنـا أغيَـرُ منه، واللهُ أغيَرُ مني... أو كما قال والله أعلم

وهذا دليل واضح وبرهان ناصع على عدم تحليله سبحانه للاختلاط؟.

حيث انه منعه ولم يسمح به حتى في الجنة التي يسكنها صـفوة خلقـه، أولئـك الأوليـاء الذين أنعم الله عليهم بالاكتفاء المادي والغذائي، وعلى رأسها الاكتفـاء الجنسـي بكـل معانيه فيكون بذلك قانعاً بما عنده.

ولعل في ذلك إشارة واضحة إلى أن الحياة الأقـوم هـي البعيـدة عـن الاخـتلاط بكـل أنواعه وبكل أشكاله ومستوياته، ويصادق على ذلك قوله تعـالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه:١٣١]+ [الحِجر:٨٨].

كمـــــا ويقـــــول ســـــبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾[النور:٣٠].

ويقول سبحانه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ...﴾[النور:٣١].

ولا يخفى على أحد أن مد الإنسان نظره إلى زوجة غيره يؤذيه ويزعجه، ولذلك أمرنـا الله بغض البصر، لكنـه سـبحانه في الجنـة قـد منـع ذلـك بالكليـة، فقـد قصـر وجـود الزوجات في غرفهن الخاصة كذلك قصر طرفهن على أزواجهن، فهن بذلك عفيفات الأبدان والشعور والنظر.

ماذا قال المفسرون عن قاصرا ت الطرف؟

قالوا هن من يغضضن البصر عن غير أزواجهن، فلا يرين في الجنة شيئا أحسن ولا أجمل من أزواجهن، حتى أن الواحدة تقول لبعلها: والله لا أرى في الجنة شيئا أحسن منك، ولا يوجد في الجنة شيئا أحب إلي منك، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك.

وقيل: إنهن المخدرات العفيفات، ومن قاصرات الطرف في الجنة أنواع منها:

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات:٤٨].

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص:٥٢].

وقيل: هن اللواتي يقصرن نظرهن وطرفهن على أزواجهن.

ويقول البعض: إنهن اللواتي يقصرن نظر أزواجهن عليهن فلا ينظرون إلى من سواهن وذلك بما يُقدمنه لهم من كل ما يشتهون بحيث يكتفون بهن ويستغنون عمن سواهن، (ومن هذا التفسير أفهم أن المرأة الناجحة هي التي توفر لزوجها كل ما يحتاجه من المرأة فيكتفي بها عن غيرها وبذلك فهي تصونه).

ولعل في عبارة ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ما يدل وما يؤكد أفضلية الجنتين اللتين ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾عن الجنتين اللتين ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

ففي الأولين ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي اللواتي يقصرن طرفهن باختيارهن وبإرادتهن، بينما في الأخريين ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ﴾ نلحظ أن أحدا أو قوة خارجية هي التي تقصرهن وتقصر طرفهن.

كما نلاحظ أن الأولان ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أن طرفهن هو المقصور، لكن في الأخريين فهن أنفسهن مقصورات ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ﴾

بقي أن أنوه بشيء بسيط هو أن قَصر الطرف هنا قد لا يكون قصر النظر فقط، بل قد يتعداه إلى قصر النفوس وقصر القلوب وقصر الخواطر والمشاعر عن أي شخص غير

زوجها، والله أعلم.

## ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [٥٦]

والآن إلى العبارة الثالثة من هذه الآية الكريمة:

لقد تعددت آراء السادة العلماء في تفسير هذه الآية الكريمة، لكنها جميعها كانت متقاربة متوافقة، وإليك أسوق هذه الآراء، بعد أن مزجتها وألفت فيما بينها، فكان ما أسوق لك هو مُجمل هذه الآراء دون تحديد من قال بهذا الرأي ومن قل بذاك:

فقد وصفوا قاصرات الطرف بأنهن عذارى، أبكار، عُربٌ، أترابٌ، لم يفتضهن بل لم يجامعهن أحد قبل أزواجهن سواء أكان إنسيا أم جنيا، ويعزو البعض ذلك إلى أنهن خُلقن في الجنة ولم يَكُنَّ معهم في الدنيا

كما ويقول البعض أن قاصرات الطرف يرجعن بعد الجماع وبعد افتضاض بكارتهن (كما كن من قبل) عذارى أبكارا.

ولو رجعنا إلى اللغة العربية لنتعرف على معنى الطمث لوجدنا أن له أكثر من معنى ولا تضارب بينها:

فأصل الطمث هو خروج الدم من المرآة الحائض، ويكون ذلك خلال العادة الشهرية، ولذلك فعندما نقول امرأة طامث فنعني بذلك أنها امرأة حائض، وبذلك يسمى الحيض طمثاً.

كما ويقال: إن الطمث هو الجماع المؤدي الى خروج دم المرأة البكر، أي هو افتضاضها، أو هو وطء المرأة للمرة الأولى وإزالة بكارتها مع نزول الدم منها...

ولذلك فعندما نقول طمث الرجل امرأته فمعنى ذلك أنه وطأها وافتض بكارتها.

ولو تدرجنا مع معنى الطمث، لوجدنا في البداية أنه خروج دم الحائض، ثم هو جماع الأبكار المؤدي إلى الافتضاض المصحوب بدم، ثم أُطلق على كل جماع سواء أكان

مصحوبا بدم أم لا، وسواء أكان للمرة الأولى أم لغيرها.. وفي هذه الحالة فعندما نقـول طمثها فنعني بذلك أنه وطئها على أي وجه كان.

ويعتقد البعض إن الطمث هو المس، ومما يؤكـد هـذا الاعتقـاد أن العـرب تقـول: (**ما طمث هذه الناقة حبل ولامسها عقال**) لكن ورد في القرآن الكريم أن المس هو اللمس وأنه هو الجماع والوطء

كما ويمكن أن نستنتج من هذه الآية أن المؤمنين من الجن يـدخلون الجنـة، ولهـم فيهـا أزواج يغشونهن،

ويعتقد البعض أن قاصرات الطرف الإنسيات لم يطمثهن انس قبل أزواجهـن وكـذلك قاصرات الطرف الجنيات،

كما ويقول بعض العلماء: إن الجِني يمكن أن يشارك الإنسي في جماع زوجته الإنسية في الحياة الدنيا إذا لم يذكر الزوج الإنسي اسم الله قبل الجماع (كما أن الجِني قد يشـاركك طعامك إن لم تبدأ بالبسملة)، لكن قاصرات الطرف والحور العين قـد بَـرَأَهُن الله مـن هذا العيب ونزههن.

وإن كان لي أن أضيف في هذا المقام شيئا لما قاله علماؤنا الإجلاء، ولعله مقتبس من آرائهم

الكل يعلم حرص الله سبحانه على أوليائه وعلى عنايته الحثيثـة بمـا يسـعدهم ويحفـظ شعورهم وعواطفهم.

وكيف لا وهو الذي خلقهم ويعلم ما تخفي صدورهم وما تكن، بـل ويعـي فطـرتهم التي فطرهم عليها ولربما أكثر مما يعونها هـم... فقـد خلـق الله سـبحانه للرجـل الحـر نواميس وصفات تسمو به عن الصغائر وترفع مقامه بين أقرانه.

**ومن هذه الصفات:**

الغيرة الشديدة على العرض والشرف (كما أسلفنا عند تعريف قاصرات الطرف).

فالرجل الحر لا يسعده ولا يسره أن تكون زوجته قد عاشرت رجلا قبله، ومـنهم مـن

يرفض ذلك حتى ولـو كـان بـالحلال، فكـثير مـن الرجـال لا يقبـل أن يتـزوج امـرأة تزوجت رجلا قبله سواء أكانت أرملة أم مطلقة.

(نحن هنا لسنا بصدد أن نحـدد إن كـان هـؤلاء عـلى حـق أم عـلى خطـأ، وإن كـانوا يوافقون السنة والشريعة أم يخالفونها).

فمن الرجال من هو مستعد لفسخ الخطوبة إذا نما إلى مسامعه أن خطيبتـه تحـدثت مـع غيره، ولربما بعضهم يفسخ الخطوبة إن علم أنها كانت قد تحدثت مع غيره حتـى قبـل الخطوبة .

وكم من الرجال من يطلب أو يفرض على زوجته لبس الخمار حتى لا يراهـا أحـد غـيره، وكم من الرجال يشتاط غضباً إذا شعر أن زوجته نظرت لغيره، أو أن أحداً نظر إليها (هـذا في الدنيا وعند الرجال العاديين).

إن كانت هذه فطرة رجال عاديون فماذا تتوقع من أولياء الله وأصفيائه الذين استحقوا جنته؟.

نعم فدرجات الغيرة عنـد الرجـال متفاوتـة حتـى إن بعضـهم يصـل إلى حـد المبالغـة والتعنت.

لا شك أنهم أكثر شهامة وعزة من غيرهم، وهؤلاء لا تسمح لهـم كـرامتهم أن تكـون أزواجهم قد طمثها أحد قبلهم، ولا تقبل أنفسهم الأبية أن تكون أزواجهم قد عاشرن أحدا قبلهم، ولعلم الله بما في نفوسـهم مـن حميـة(أودعها هـو في قلـوبهم). وزيـادة في إكرامه سبحانه لهم فقد أراد أن يبشرهم ويطمئنهم أن هذه الأزواج الخاصة بهم، هـذه القاصرات الطرف لم يعاشرهن ولم يطمثهن أحد قبلهم.

فابشروا يا أوليائي بالجنة التي كنتم توعدون، وتنعموا فيها بما كنـتم تشـتهون، ولـيس الوعد وليست الشهوة ظلالاً أو عيوناً أو فواكـه فقـط، بـل هـي مـا يطلبـه أوليـاء الله بالإضافة إلى ذلك من الراحة النفسية والشعور بالعزة والكرامـة وإشـباع غَيرتـه عـلى

زوجه، وأنه لم يطمثها أحد قبله.

يقول معظم علمائنا: إن الطمث هو نزول الدم أو هو الوطء لأول مرة مع افتضاض البكارة ومصحوبا بنزول الدم، ويتساهل بعضهم ويقول إنه الوطء على أي صورة كانت حتى ولو لم يتبعه نزول الدم.

أما أنا فأقول: إن كل ذلك صحيح. لكنني أعتقد أن معنى الطمث في هذه الآية وفي هذا الموقع هو أكبر وأعمق من ذلك بكثير، فعندما يخبر الله سبحانه أولياءه كبشرى لهم ويقول: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ فهو لا يعني أنه لم يعاشرهن ولم يطمثهن قبلهم أحد فحسب، بل أكاد أجزم أن عطاء الله أكبر من ذلك، وأن الطمث هنا يعني أنه لم يكلمهن أحد قبلهم، ولم يلمسهن أحد قبلهم، بل ولم يرهن أحد قبلهم، حتى مجرد النظر لها لم يتمتع به أحد قبلهم. وعندما يكون هذا هو معنى لم يطمثهن، عندها نتصور مقدار عطاء الله وبُشراه للذين يخافون مقامه.

وهل تعتقد أن عطاء الله الكريم ومكافأته لأوليائه يكون أقل من ذلك؟؟

إياك أن تقول نعم!!

لقد خلقهن الله لهم وحدهم، وأسكنهن غرفا لا يدخلها غيرهم، وجعلهن في مواقع لا يراهن غيرهم، بل لا يرين هن أحداً غيرهم، ولعل هذه الغرف والمواقع هي التي قال سبحانه عنها ﴿فِيهِنَّ﴾ وأن هذه الغرف تقع في الجنة الخاصة بكل ولي لوحده، وهي غير الجنة العامة للجميع، وهنا يضيف سبحانه بشارة لهؤلاء الصالحين أنه حتى الجان الذين يتمتعون بقدرات أكبر منا (يرونكم من حيث لا ترونهم) حتى هذه القدرات هنا تعطلت فما استطاع جان أن يرى زوجك قبلك ولن يراها وهي معك (الله سبحانه خلق النواميس وهو القادر على تغييرها).

لاحظ أنه في الحياة الدنيا مسموح شرعا أن يرى الخطيب من يريد خِطبتها، وقد لا تعجبه ثم يخطبها غيره، فيكون أحد رآها قبل زوجها لكن في الجنة فلا أحد رأى زوجك قبلك

كما وأفهم من ذلك أن الغيرة المقننة هي من صفات الرجل الحر، وأن عدم الاختلاط أساسي في نقاء وصفاء حياة ودين المسلم الحق، وأن غض البصر أصوَن للعرض وأحفظ للفرج.

أما كيف يعاشر الجن الزوجات فهو إما باللمس أو باللبس وقد يعاشر الجن إنسية، كما قد يعاشر الإنس جنية وكلا الحالين مرفوض وغير مقبول لا دينا ولا شرعا بل ولا عرفا.. لكن في الجنة لم ولن يعاشر زوجك غيرك.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٥٧]

بالله عليكما قولا لي: أبقاصرات الطرف المخلوقات خصيصا لكم وعلى ما تُقدِّرن وتتمنون ؟ أم بعفتهن وصونهن لعرضكم وعرضهن؟ أم بقصرهن لنظرهن ولطرفهن عليكم وحجبه عمن سواكم تكذبان؟؟

أم بحبهن وعشقهن لكم دون غيركم، وعدم لمس أو محادثة أو رؤية غيركم تكذبان؟

أخبروني بأي من هذه الآلاء تكذبان؟؟

أنا أكفيكم عناء الجواب وأقول:

ما دمتم من أولياء الله فلا شك أنكما تشكران ولا تُكذبان!

## ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [٥٨]

مجمل ما قاله المفسرون في توضيح معنى هذه الآية التي وصف سبحانه فيها قاصرات الطرف كأنهن الياقوت والمرجان.

إن الياقوت هو حجر معروف يمتاز بصفاء اللون وبالشفافية، حتى قيل: إنك لو أدخلت سلكا خلاله لرأيت هذا السلك، كما قال ﷺ: (إن المرأة من نساء الجنة ليرى بياض ساقيها من وراء سبعين حلة من الحرير حتى يرى مخها).

وقيل إن هذا تفسير لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ كما قالوا: إن الياقوت جوهر نفيس لا تؤثر فيه النار وأن أهم صفاته وما يعطيه القيمة العالية هو صفاؤه وليس حُمرته.

أما المرجان فقال بعضهم: إنه مميز ببياضه، أما الأكثرية فقالوا لأنه ذو لون أحمر، بينما قال آخرون: إنه من صغار الدر ويتميز بالبياض والصفار.

تفسيرات وتوضيحات جيدة تساعدنا في تفهم هذه الآية.

لكنني أضيف وأقول: إنه عندما يصف سبحانه قاصرات الطرف بالياقوت والمرجان، فهو بذلك يضرب لنا المثل(ولله المثل الأعلى) على مقدار جمالهن وبهجة حُسنهن، وطيب لقائهن، فكما هو معروف أن الياقوت هو حجر نادر الوجود وغالي الثمن، وتفرح الناس وتفتخر بإقتنائه، أضف إلى ذلك صعوبة الحصول عليه، وجماله الفتان لعل هذه من أسباب تشبيه الله سبحانه وتعالى لقاصرات الطرف بهذا الحجر الكريم.

ويصف (المعجم الوسيط)الياقوت: بأنه من الأحجار الكريمة، وهو من أكثر المعادن صلابة بعد الماس، وتركيبه الكيماوي عبارة عن أكسيد الألمنيوم، أما لونه ففي الغالب شفاف مشرب بالحمرة أو بالزرقة أو بالصفرة،

يُستعمل للزينة والقطعة منه تسمى ياقوتة وجمعها يواقيت.

ولعل هذه الصفات التي نعرفها وصفات أخرى (قد تكون أجمل وأعظم) لا نعرفها هي التي جعلت الله سبحانه يُشَبّه قاصرات الطرف بهذا المعدن.

أما ﴿الْمَرْجَانُ﴾ فقد سبق وتكلمنا عنه عند محاولة فهم الآية ٢٢ من سورة الرحمن. ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾.

ففي (المعجم الوسيط) يوصف المرجان بأنه جنس من الحيوانات البحرية، ثابت في الأرض من طائفة المرجانيات، له هيكل كلسي أحمر، ويعد من الأحجار الكريمة ويكثر وجوده في البحر الأحمر الغني بالشعاب المرجانية.

ولك أن تلاحظ دقة القرآن العظيم حين يقول ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ ولم يقل ﴿هُنَّ﴾ ﴿الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾.

فهذا يعني أنه مجرد تشبيه يربط بين قاصرات الطرف وبين هذه الحجارة، ولعله تشبيه من ناحية معينة، ومن صفات مخصصة، من حيث الصفاء والنقاء والجمال والقيمة العالية، أو ربما لأن الياقوت والمرجان غاليا الثمن، ولذلك يحرص الإنسان عليها ويصونها بكل ما يستطيع، فقاصرات الطرف جديرات بالمحافظة عليهن وصونهن بالنواجذ.

## ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٥٩]

أعدّ سبحانه لكم - قاصرات طرف- جميلات الطلعة عفيفات السلوك كأنهن الياقوت والمرجان (من حيث بعض الصفات) وأجمل وأعظم من الياقوت والمرجان بصفات أخرى.

فبأي هذه النعم تكذبان؟؟

## ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [٦٠]

أراها آية فصيحة الأسلوب، واضحة المعنى رصينة الصياغة وتعتبر مثلا بليغا لجوامع الكلم! يتناقله الناس على ألسنتهم.

لكن ماذا قال فيها المفسرون؟

قال بعضهم: إن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فمن وَصلَت عبادته إلى هذا المستوى من الطاعة والخشية من الله، والالتزام بأوامره، فهل تعتقد أن يكون جزاؤه غير الإحسان؟

كلام سليم ورائع، ويقول آخر(وهو لا يناقضه): ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يُحسن له في الآخرة؟

وهل جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الأجر والثواب؟

ألا يستحق من قدم المعروف والإحسان أن يلقى الإنعام والإكرام؟

أسئلة كثيرة!!

وأنا أقول: إن جوابها في القرآن واضح، فقد قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس:٢٦].

كما وقال سبحانه أيضا: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم:٣١].

وقال رُواة الحديث: إن الرسول (ﷺ) عندما قرأ هذه الآية سأل أصحابه: هل تدرون ماذا قال ربكم؟

قالوا: الله ورسوله أعلم!!

قال(ﷺ): (يقول الله: هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي وحظيرة قدسي ورحمتي؟)

وفي رواية أخرى يقول ربكم: ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟؟.

وأضاف (ﷺ) إن الله سبحانه قد قال: هل جزاء من أحسنت عليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد؟

وجاء في تفسير القرطبي أن كلمة (هل) ترد في الكلام على أربعة أوجه وهي:

١-بمعنى قد كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان:١]. أي قد أتى على الإنسان....

٢- **استفهامية** كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟﴾ [الأعراف:٤٤].

٣- **الأمر** كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ!﴾ [المائدة:٩١].

٤-**الجحد** كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النحل:٣٥].

ولا يفوتني أن أذكر أن بعض المفسرين قالوا: إن الإحسان هنا معناها هو الحسان أي قاصرات الطرف اللواتي تقدم ذكرهن في الآية[٥٦] وبذلك يكون معنى الآية: هل جزاء الإحسان إلا قاصرات الطرف؟

هذا ما قاله المفسرون الأجلاء! لكن هل عندي ما أقول؟ وهل يمكنني أن أضيف شيئا!؟

يقول سبحانه: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

سؤال يطرحه سبحانه، لكنه سؤال يجاوب نفسه بنفسه، سؤال يحمل جوابه علناً وليس في طياته، سؤال يظهر وكأنه بدهية لا لُبس فيها، ولا تحتاج الإجابة عليه إلى تفكير

إذا كان السؤال وجوابه بهذا القدر من الوضوح! فلماذا يسأله الله عباده؟

هل ليقرر لهم حقيقة وبدهية؟ أم ليعمق لديهم مفهوماً يقول: إن من يخاف مقام ربه ويطيع أوامره ويجتنب نواهيه سوف لن يلاقي ولن ينال إلا الإحسان وخير الجزاء الأوفى ؟.

وكما رأيت فمنهم من قال: إن الإحسان هو أن تعبد الله وكأنك تراه فإن لم تكن تـراه فإنه يراك.

فهل يريدنا سبحانه أن نصل إلى هذه الدرجة من العبادة حتى ننال خير الجزاء وهـو الإحسان.

وإحسان ربك كثير وكبير، ولا أعتقد أن أحـداً يسـتطيع أن يتصـور إحسـان الله، ومـا ذكره سبحانه من أفضال ونعم في الجنتين ما هو إلا مثال بسيط علـى كـرم الله وفضـله على المحسنين.

أم أن في هذه الآية حضاً وتشجيعاً لنا على أن نعمل الخـير لأنفسـنا ولمـن حولنـا مـن المسلمين ومن الناس ومن البيئة، ونتيقن أن عملنا لن يضيع، بل لن يكون له جـزاء إلا الإحسان؟

ومن كرم الله أنه في هذا المقام، (مقام ذكر وسرد صفات الجنة وما بها من النعم، وذكر خـير الجـزاء لمـن أحسـن)، لم يكمـل السـياق فيقـول ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى:٤٠].

حيث إنه سبحانه لم يشأ ولم يرغب أن يُفسـد علـى القـارئ ولا علـى المتعبـد تصـوره وتفاؤله وتخيله، بل وأمله بدخول الجنة، والفوز بما فيها من نعم، فالذي يتلو ما في هذه الجنان يحدوه الأمل بالفوز بها ويحلم بذلك، ورحمة من الله أنه سـبحانه لم يُفسـد عليـه خياله ولم يُذَكِّره بعقاب من يجحده.

ومن الآيات الكريمات ما يؤكد حث الله الناس على الإحسان مثل [الآية رقم ٩٠ من سـورة النحل] حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

ولإقرار الأهمية العظمى للإحسان فقد قرنـه سـبحانه بالعـدل وأمـر بـه مباشـرة بعـد

العدل، والعدل من صفات الله بل هو من أسمائه الحسنى، وعلى العدل يرتكز محور جميع المعاملات الإنسانية، والله قد ساواه بالإحسان، كما وأمر سبحانه بالإحسان قبل أمره بإيتاء ذي القربى، وقبل أن ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أهمية الإحسان في حياة الناس بعامة وحياة المسلمين بخاصة.

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ...﴾ [الإسراء:٢٣].

وهنا يطلب سبحانه من المسلم (بل يفرض عليه) مباشرة بعد توحيد الله بالعبادة أن يباشر في الإحسان لوالديه، فيكون بذلك قد قرن عبادته وتوحيده (الذي يمكن أن يَغفر أي ذنب ما عداه) ببر الوالدين حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] + [النساء:١١٦].

فالإحسان للوالدين هو أول عمل فرضه الله على عبده بعد عبادته وتوحيده، وقد تكرر ذكر كلمة ﴿إِحْسَٰنًا﴾ ستة مرات في القرآن وكان خمسة منها للأمر بالإحسان للوالدين، وكذلك ذكرت كلمة ﴿ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في القرآن ستة مرات.

**جعلنا الله وإياكم من المحسنين.**

## ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٦١]

هل الإحسان شيء قليل في نظرك؟.

ألا يرضيك أن يكون جزاء الإحسان هو الإحسان؟.

أليس من العدل أن يُثيبك سبحانه مقابل الطاعة البسيطة بالإحسان الكبير؟.

إن كان جوابك لا!! فأخبرني بأي من هذه النعم تكذب؟.

## ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [٦٢]

لقد اتفق علماؤنا الأجلاء في تفسير هذه الآية في كثير من الجوانب، لكن من المفسرين من دحض أقوالهم ومنهم من خالفهم ومنهم من أنكر تفسيرهم، وسيأتي ذكر كل ذلك حالاً.

فمجمل ما اتفقوا عليه في تفسير هذه الآية أن كلمة ﴿دُونِ﴾ تعني أقل وأدنى.

فالجنتان اللتان ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ هما أعلى منزلة وأكبر قدرا وأرفع مقاما وأكثر فضلا (بل إنهما أحسن في: الزرع، والفواكه، والعيون، والثمار، وحتى في الزوجات) من الجنتين. ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

ومن المفسرين من قال: إن الجنتين الأفضل هما اللتان ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾، فهاتان يكونان للسابقين السابقين، أما الجنتان الأدنيان وهما اللتان ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ فتكونان لأصحاب اليمين.

ومنهم من قال: إن الجنتين الأفضل كل ما فيهما من موجودات وأثاث يكون من ذهب، بينما الأخريان فمحتوياتهما تكون من فضة.

وهناك أكثر من إشارة تبين التفاوت في القدر بين هذين النوعين من الجنان وتدل على شرف الجنتين الأوليين.

ومن أوجه التفضيل أنه سبحانه قد بدأ بالحديث عن الجنتين ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ وبوصفهما قبل الحديث عن الجنتين ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

والتقديم هنا يدل على علو المكانة وشرف التمييز عن التأخير، كما أن ذكر أهل

الجنتين الأولين حين قال سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ ويعني بذلك (وهم الذين خافوا مقام ربهم) بينما لم يذكر أهل الجنتين الأخريين، لعل في ذلك تمييزا أيضا لمن خافوا مقام ربهم.

أما المفسرون الذين خالفوهم فمنهم من قال: (أن من دونهما) تعني أمامهما وقبلهما، وهذا يعني أنهما أقرب وأدنى إلى عرش الرحمن من الجنتين الأولين، وبذلك تكون جنات ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أرفع مكاناً وأعلى قدراً.

كما وقالوا: إنهما أقرب للمُنعم وللنعمة، وإن صفاتهما أكثر مدحاً من صفات جنات ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾.

وفي هذا المقام فإن عندي ما أضيف وما أقول: فقد عَلَّمونا في علم الوراثة: إن كل فرد يخلق هو الأول والأخير من نوعه ولا يتكرر

وهذا يعني أنه لا يوجد في هذا العالم متشابهان ومتطابقان في الصفات الوراثية، وأن المثل القائل: (يخلق من الشبه أربعين) فهو ليس دقيقاً إلا إذا اعتبرنا أنهم يتشابهون ببعض الصفات خاصة الخارجية منها، ويختلفون ببعضها الآخر.

وبالإضافة للفروق التركيبية والوراثية، فهناك فروق في التربية وفي السلوك وفي طرق المعاملة مع غيرنا ومع قوانين الله.

وبما أنه لا يوجد شخصان على نفس القدر من الورع ومن التقى والإخلاص في العبادة والالتزام بأوامر الله.. وأن الناس في ذلك على درجات متفاوتة.

فهل تتوقع أن يكون لهم نفس الجزاء ونفس الثواب عند الله؟

وهل تعتقد أنهم سوف ينالون نفس المقام ونفس الدرجة في الجنة أو الدركة في النار؟

هل تتصور أن العدل هو أن يتساوى جميع الناس في الثواب في الجزاء رغم اختلاف درجاتهم في التقوى والطاعة؟

أستطيع أن أقول لك وبملء الفم: لا

ومع ذلك فإنني سوف أترك للقرآن الكريم الإجابة على سؤالي هذا!!

يقول سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧- ٨].

وإذا كان مثقال الذرة محسوب فما رأيك بالأعمال والحسنات والمعاصي التي هي أكبر من مثقال الذرة؟.

يقول سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٣٢].

وكذلك يقول سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر:٩].

ويقول كذلك: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...﴾ [فُصِّلَت:٣٤].

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:١٦٤].

لعل الجواب قد اتضح لك، ومع ذلك فهناك الكثير من الآيات في القرآن الكريم التي تدعم هذا المعنى. ولعل في ذلك أيضاً تفسيراً للآية ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، نعم فالجنات درجات، فمنها جنة الفردوس، النعيم، عدن، المأوى، ومنها غير ذلك. ولكل مستوى من الطاعة ومن رضي الله جنة خاصة به تتناسب مع مقدار هذه الطاعة ومقدار هذا الإخلاص.

وبذلك ينطبق هنا مبدأ: الجزاء من جنس العمل.

لعل في ذلك رسالة واضحة من الله، ودستورا دقيقا ألزم الله به نفسه وهو العدل، وجعل الجزاء على قدر العمل والعطاء، وهو بذلك يُعلمنا ويطلب منا بل ويأمرنا بأن نلتزم بهذا الدستور، ويأمرنا بالقسط والعدل اللذين هما أساس كل تقدم في هذه الحياة.

كما يأمرنا سبحانه بأن نكافئ كل عامل بقدر عمله وبقدر إخلاصه وبقدر عطائه لا بقدر نفاقه أو جاهه أو سلطانه.

وهذا يفسر اختلاف درجات الجنات ومنازلها بل وما تحتويه من مقومات الهناء والسعادة.

نعود الآن للآية ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ فما معنى كلمة (دون) في اللغة العربية.؟؟. لقد وجدت أن لها العديد من المعاني بل وان بعضها متضارب ومتعاكس.

**(فدون)** تُعتبر ظرف مكان منصوب، ويكون بحسب ما يضاف إليه: فيكون بمعنى.

(تحت) كقولك: دون قدمك بساط.

(فوق) كقولك: السماء دونك.

(خلف) كقولك: جلس الوزير دون الأمير.

(أمام) كقولك: سار الرائد دون الجماعة.

(غير) كقولك: ويغفر ما دون ذلك.

( قبل)كقولك: دون قتل الأسد أهوال.

كما وتستعمل اسم فعل بمعنى (خُذ) وتوصل ب كاف الخطاب كقولك: دونك الدرهم.

**(الوعيد)** كقول السيد لخادمه: دونك عصياني.

من هذه المعاني يمكن أن تفهم أن للآية ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أكثر من معنى، لكن المعني الغالب أنهما أقل من الأولين قدرا ومنزلة، ويزيد في توضيح وتأكيد هذا المعنى ما يحتويه هذان النوعان من الجنات من أشياء رصدها سبحانه للصالحين من عبادة.

ورغم اختلاف وتمايز مستويات هذه الجنان، إلا أنه مما لاشك فيه أنه أدنى هذه الجنان مكانه وأقلها درجة ومستو تحتوي على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولم يخطر على قلب بشر.

## ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٦٣]

حتى وإن فزت بهاتين الجنتين اللتين هما أقل درجة، فهل تكذب بهذا الفوز أم تكذب بكرم الله عليك ومنحك هذه الجنان أم بما تحويه من نِعَمْ.؟؟.

قل لي بربك بماذا تكذب إن كنت تكذب!!.

## ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [٦٤]

إتفق علماء التفسير إلى حد كبير على معنى ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ فقالوا: إنهما جنتان خضراوان شديدتا الخضرة حتى ضرب لونها إلى السواد.

والألوان هي من نعم الله التي لا تحصى. تصور لو أن جميع ما ترى من أشياء تتلون باللون الأبيض والأسود ودرجاتهما المختلفة فكم من متع ونعيم الحياة سوف تفقد.

وكما هو معلوم فإن لكل لون من الألوان درجات تبدأ من الفاتح وتتدرج حتى الغامق، واللون الأخضر كلونٍ من هذه الألوان له العديد من الدرجات.. فإذا ازداد غمقه وزادت كثافته فإنه يقاربٌ ويميل إلى اللون الأسود.

وهذا ما يحدث في نباتات الجنة، حيث لا ينقصها ماء ولا سماد ولا مقومات حياة، فتكون بذلك نباتات غضة نضرة غنية الخضرة، غامقة اللون وكأنها سوداء، وأنسب ما يمكن أن نصفها فيه وحالها كذلك هو﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ .

وفي الحياة الدنيا كثيراً ما نرى من البساتين والحدائق المحاطة بعناية ورعاية مميزة مع توفير الماء والسماد ما يُعطي نباتات يانعة نضرة، ومن علامات حيويتها شدة اخضرار أوراقها حتى لتحسبها سوداء اللون.

ولو رجعنا إلى معنى كلمة (الدهمة) في اللغة العربية لوجدنا أن معناها هو السواد،

ولذلك يسمي العرب الفرس السوداء بالفرس الأدهم، وكذلك البعير الأسود بـالبعير الأدهم، كما وأن من معاني الدهمة هو سواد الليل.

حتى أن العرب يسمون كل أخضر (خاصة إذا غمق لونه) بالأسـود، ولـذلك سميـت قرى العراق سـوادا بسـبب كثـرة خضـرتها (ولم لا وفيهـا نهـران يجريـان علـى طـول البلاد؟) كما ويسمى العرب الليل المظلم: الأخضر. ومن المفسرين من يـربط ويقـارن بـين ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ، ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾ وبـين ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ، مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ فيقول: إن(**ذواتـا الافنـان**) هما جنتان كثيرتا الشجر ذو الفروع والأغصـان الـتي يخـرج منها الأفنان المحملة بشتى صنوف الثمار والفواكه.

بينما **المدهامتان** فهما الجنتان اللتـان يغلـب عليهمـا المسـطحات الخضـراء، والنباتـات المنبسطة والرياحين التي تُغطـي وجـه الأرض وتكسـوه بالخضـرة الـتي تصـل إلى حـد السـواد. ويعـزون ذلـك إلى رفعـة مكانـة الجنتين (**ذواتـا الأفنـان**)، ويعتقـدون أنهمـا للسـابقين السـابقين. حيـث قـال سـبحانه وتعـالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة:١٠- ١١].

بينما المدهامتان فهما أقل مكانة، ولعلهما من نصيب أصحاب اليمين وقـال سـبحانه: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة:٢٧].

وفي تصوري أن شدة الخضرة في هذه الجنان تعـود إلى عوامـل علـى رأسـها فضـل الله سبحانه وتعالى ورغبته في إكرام أوليائه الساكنين في هذه الجنان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٦٥]

هل تكذبان بثمار الجنة أم بخضرتها اليانعة المريحة للنفس؟ أم بجوها المنعش النقي؟.

هل تكذبان بأن لكل منكم جنتين لا ينقصهما من أسباب الراحة والسعادة شيء؟

**أجيبوني بربكم!**

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [٦٦]

تقاربت آراء المفسرين في توضيح معنى ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾، فقد أجمعوا (تقريباً)، على أنهما عينان فوارتان بماء غزير لا ينقطع، ماء يفور في مكانه ولا يجري، وكم من النافورات الجميلة في حدائق المدن المدن الكبيرة تسر النفس ويؤمها الناس يتمتعون برؤيتها وبجمال روعتها.

أما عينا الجنة النضاختان فلا يوجد في الدنيا بروعتهما.

ومعروف أن النضخ أقوى من النضح، وأن النضخ هو وصف لماء غزير متفجر فوار بقوة وبامتلاء لا يخبو ولا ينقطع.

وقال بعض المفسرين أنهما نضاختان بالمسك والعنبر والكافور، ينزل على منازل أهل الجنة كما ينزل المطر على أهل الدنيا، وقال آخرون أنهما نضاختان بالخير والبركة على أولياء الله (سكان هذه الجنان).

ولا يخفى على أحد أن جريان الماء (بمسارات رائعة، وجداول رقيقة، وشلالات هادرة، على صخور وتضاريس الجنة، وما يغطي ارض هذه الجداول من حجارة وصخورٌ، قد تكون من اللؤلؤة والياقوت والزمرد ومن حجارة لا يعرفها الإنسان على الأرض، وما يتواجد على حوافها من أزهار وأشجار ومناظر خلابة..) أفضل

منظراً وأجمل وقعاً وأثرا في النفس من نضحه ونضخه.

ولعل في ذلك ما يوحي أن الجنات التي ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ هي أعلى منزلة وأفضل مكانة من الجنات التي ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾.

فهذه العيون فوارة هادرة بالماء، ذات أصوات شجية ربما لم يسمع مثلها أو بجمالها إنسان في الحياة الدنيا، سواء في أجمل المقطوعات الموسيقية أو في الخرير الطبيعي للماء.

وكم من الناس ترتاح نفسه ويطرب لسماع خرير الماء، لكن من الأكيد أن أصوات مياه الجنة هي من نوع آخر، والنضخ والتفجر والفوران هناك يكون مستمراً ولا يتأثر بعوامل جوية من جفاف ورياح، ولا بعوامل جيولوجبة من صدوع وفوالق، ولا بنضوب الماء بسبب المواسم المتغيرة (كما يحدث على الأرض، فكم من الينابيع جفت وغار ماؤها).

## ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٦٧]

هل تكذبان بالمياه الفوارة، بمياه العيون الغزيرة التي تنضخ الماء، وتُفورهِ بشكل لم تروا بمثل جماله من قبل؟.

هل تكذبان بهذه النوافير المبهجة للروح والمبهرة للنفس؟.

هل تكذبان باستمرار فورانها أم بجمال هذا الفوران؟

**أجيبوني أكرمكم الله !!**

## ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [٦٨]

يستطرد سبحانه في ذكر النعم والخيرات التي أودعها هذه الجنان لأوليائه الصالحين فيقول: إنهما يحتويان على أنواع مما لذ وطاب من الفاكهة، لكنه سبحانه لم يقل(من كل فاكهة) بل إن كرم الله وعدله لا يقبل أن يحرم أهل هاتين الجنتين من أي من أنواع الفاكهة، التي ربما لا تكون نفس الفاكهة التي في الجنات الأولى التي قال فيها سبحانه:

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾.

ونلاحظ أن الله سبحانه وعد أهل هاتين الجنتين بالفواكه عامة لكنه خص بالذكر منها النخل والرمان، وقد تفاوتت تفاسير العلماء لسبب خصه سبحانه لهذين النوعيين من الفواكه بالذكر، فمن قائل أنه بسبب مزيد حُسنهما، وكثرة نفعهما بالنسبة لسائر الفواكه.

ومن قائل: إن السبب هو فضلهما وشرفهما على سائر الفواكه ولأنهما كانا غالب فاكهة العرب في تلك الايام، أي أنها هي الفواكه التي كانت سائدة ومنتشرة عند العرب خاصة في تلك البلاد وفي ذلك الزمان.

كما ويعتقد البعض أن سبب خصهما بالذكر هو أنهما كانا من الأهمية عند العرب في ذلك الزمان كأهمية البر والأرز والدقيق عندنا اليوم، فالنخل كان قوتهم عامة (كما كان هو قوت شعب فلسطين عندما طردهم وهجرهم قسراً بنو صهيون من بلادهم ومن وطنهم في أواخر العقد الرابع وبداية العقد الخامس من القرن الماضي فقد كان التمر غذاء رئيسياً لكثير من العائلات في ذلك الزمان لعدم قدرتهم على شراء القمح)

كما وكان الرمان هو فاكهة العرب حيث كانوا يُكثرون من غرسه في بلادهم، وشهره نخيل مكة والمدينة وأنهما أشهى التمور لا تخفى على أحد سواءً في الزمن الماضي أو الحاضر، ولعل أفضل هدية يعود بها الحاج من تلك البلاد المقدسة هي هذه التمور،

كما ويعرف الجميع شهية ولذة تمر المدينة المنورة، ولذة ونكهة رمان الطائف.

وقد كان العرب يعتبرون التمر نوعاً من الطعام وفي نفس الوقت نوعاً من الفاكهة، كما وكانوا يعتبرون الرمان نوعاً من الطعام ونوعاً من الدواء.

وكما هو واضح فهما ليسا للتفكُه فقط، بل هما غذاء ودواء.

ونلاحظ هنا واحدة من أوجه المقارنة بين الجنات، فالأعلى ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أما الجنات الأدنى ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ففي هذا الجنات توجد أنواع من الفاكهة كثيرة ومتنوعة، لكنها ليست على صورة أزواج وبالتالي فلعلها أقل جودةً سواء في المنظر أو في المذاق والله اعلم.

كما يقول سبحانه: إنه في الجنات الأعلى ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾، وهنا يقول: ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ والظاهر من القول أن أنواع الفاكهة في الجنة الأعلى أكثر، وتنوعها أشمل، بل لعلها تشمل جميع أنواع الفاكهة.

أما أنه سبحانه وتعالى قد خص النخل بالذكر في الجنة الأدنى، فلربما لان التمر يعتبر غذاءً كاملاً يحتوي على جميع عناصر الغذاء التي يحتاجها الجسم، ولذلك كان هو غذاء رئيسياً عند العرب، بل كان الجندي من جيش المسلمين يقتات ببعض التمرات تكفيه طوال اليوم.

وأما عن فوائد التمر ولذيذ طعمه فحدث ولا حرج، ويكفي التمر أهمية وقدرا ومدحاً أن يكون هو أول ما نتناوله من طعام بعد صيامنا، وأن الرسول (ﷺ) قال فيه: (بيت لا تمر فيه أهله جياع)، وليس من الضروري أن يكون الجوع هو أن تشعر بالحاجة للطعام وأن معدتك خاوية وأنك لا تصبر بدون طعام، لكن قد يكون الجوع في هذه الحالة هو نقص واحد أو أكثر من عناصر الغذاء الضرورية والأساسية لنمو الجسم ووقايته من الأمراض ولتحصينه من الأوبئة، بل ومساعدته أحيانا على الشفاء

ومنحه الحيوية والنشاط، كما قد يكون هذا الجـوع جوعـاً معنويـاً بالإضـافة إلى كونـه حسي وصحي.

ولعلم الله سبحانه بأهمية النخيل كرر ذكره في القرآن عشرين مرة، كما خص الرمان بالذكر أيضا (حين كرر كلمة الرمـان في القـرآن ثـلاث مـرات، اثنـتين منهمـا مقرونـة بالشجرة المباركة«الزيتونة»).

وبالرجوع إلى المصادر الطبية تعرف مدى فوائد الرمان لصحة الإنسان، ومقدار أهميتـه سواء كأوراق أو أزهار أو ثمـار، بـل وحتـى قشـرة الثمـرة ثبـت أن لهـا فوائـد طبيـة للإنسان، فهي تشفى المعدة من كثير من الأمراض.

ولا يخفى على من يعرف **زهرة الرمان** (ويطلق عليها العرب لفظ جُلّنار) مـدى جمالهـا وروعتها وما تبعثه في نفس ناظرها من السعادة والمتعة والراحة، ولعلك تلحظ التناسق الرائع العجيب بين لون أوراق شجرة الرمان (بلونها الأخضر الهادئ ودرجته المناسبة) وبين لون زهرة الرمان ودرجة احمرارها النادرة الرائعة ويا لها من متعـة أن تتأمـل هـذا التناسق الإلهي الرائع.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٦٩]

أبالنخل أم بالرمان تكذبان؟ أم بفواكه لا حصر لها من حيث الكمية ومن حيث النـوع تكذبان؟

أم بطعم وبلذة هذه الفواكه الذي لم يعرفه ولم يذقه احد في الحياة الدنيا تكذبان؟

**أم ليس بأي من هؤلاء تكذبان؟**

## ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾ [٧٠]

أبدأ بتقديم مجمل ما قاله المفسرون في هذه الآية الكريمة: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾.

فقد قالوا: إنهن خَيِّرات أي جمع خَيِّرة وهن ذوات الفضل من النساء كريمات الخلق وصالحات الأعمال وحسان الوجوه والسلوك. وقد تكون خيّرات بتشديد الياء فتصبح خيَرّات أو بفتح الياء فتكون خَيَرات.

وقال آخرون أنهن خيْرات ومعناها نساء، ومفردها خيْره أي ذوات خير، وقيل: إنهن أبكارٌ عذارى.

كما قال بعض المفسرين أن خيرات تعني مختارات، أي أن الله سبحانه قد اختارهن واصطفاهن فأبدع خلقهن بهذا الاختيار المميز، واختيار الله طبعاً لا يمكن أن يُشبه اختيار البشر، لأن من يختاره الله لا بد أن يكون على درجة من الحسن والخلق والجمال بما لا يضاهيه أحد.

كما ولك أن تتصور نساء قد وصفهن الله سبحانه بالحسان، عندها يتبين لك مدى ومقدار حسنهن.

وقد قالت أم سلمة: إن الحور العين في الجنة يُغنين بصوت لم تسمع الخلائق بجماله أو بحسنه، بل ولا مثله في الدنيا حيث ينشدن قائلات:

**(نحن خيرات حسان، خُلقنا لأزواج كرام، حبيبات أزواج كرام)**

**ولي هنا تعقيب مختصر:**

فكلمة ﴿فِيهِنَّ﴾ قد سبق شرحها عندما تكلمنا عن الآية ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ [الرحمن:٥٦] وأعتقد أن لها نفس المعنى في كلتا الآيتين.

أما كلمة خيرات فلعلها تكون على وجهين هما:

١- إذا قلنا خيرات فهذا يعني أن الجنة تحوي أنواعا متعددة من الخيرات، ومن هذه الخيرات الحور، وفي هذه الحالة فإن الحورية بحد ذاتها (وهي نفسها) هي خير، ولم لا

وقد خلقها الله بمواصفات خاصة من الجمال، وحسن الخلق لتكون مخصصة لمتعة هذا الولي الصالح الذي أنعم الله عليه بالجنة؟.

ألا تعتبر خيرا تلك التي تضفي عليك السعادة وتنعم عليك بالمتعة التي تسد حاجتك وتسد ما في نفسك من شهوة نفسية وحسية وجسمية وتريحك بجمال منظرها وطلعتها البهية وتسعدك بحسن سلوكها وخلقها؟.

٢- وإذا قلنا خيِّرات فهذا يعني أنهن خيِّرات في الأخلاق وخيِّرات في المعاملة وخيِّرات في جمال المنظر وحسن الجسم والقد والوجه.

هذا يعني أنهن يمنحن الخير ويُقدّمنه لأزواجهن بطرق شتى، منها خدمتهم ومتعتهم وراحتهم، ويضفين على حياتهم من الخير والسعادة ما يجعلهن مانحات للخير أي خيِّرات.

ففي الحالة الأولى نعتبر الحورية هي في حد ذاتها خير، أما في الحالة الثانية فنعتبرها مانحة ومقدمة ومعطية للخير.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٧١]

أبأفضل النساء أم بالخيرِّات منهن أم بذوات الخلق الحسن أم بذوات الوجه الحسن أم بالملاطفة والمداعبة التي تمنحكم إياها هؤلاء الزوجات الحسان تكذبان؟.

**قاتل الله كافر النعمة وجاحدها!!.**

## ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [٧٢]

(الحور) لقد جاء تفسير الحور على عدة معان وعدة صور منها:

منهم من قال: إنهن الحور العين، أي هن النساء اللواتي يحار فيهن الطرف لفرط حسنهن وصفاء بياضهن وجمال ألوانهن، (اللهم ارزقنا بعضا من هؤلاء).

والحور هن جمع حَوراء وهي التي يحار فيها الطرف، ويحار بجمالها العقل.

أما (العْين) فتطلق صفة الحور العْين على المرأة العَيناء وهي الواسعة العينين، كما قيل أن الحور العين هُن النساء اللواتي اشتد بياض أعينهن وكذلك اشتد سواد أعينهن، كما قد يعني الحور اسوداد العين كلها مثل عيون الظباء.

وقيل: إن (الحور العين) هن نساء مُخدرات مستورات لا يخرجن من خُمُرهن وخيامهن حفظا لشرفهن وكرامتهن.. والخمرة هي سجادة الصلاة لأنها تخمر الوجه أي تغطيه.

وخالف بعض المفسرين ذلك فقال: إن الحوراء من النساء هي المرأة بيضاء الجسم، ولا يقصد بذلك حَوَر عينيها، كما قيل: إنهن نساء خُلقن في الجنة، لا كما يظن البعض أنهن خلقن في الدنيا والدليل على ذلك أن من صفاتهن أنه (لم يطمثهن أحد)، بينما نساء الدنيا معظمهن مطموثات. وقيل في الحور العين الكثير غير ذلك.

كما وتطلق كلمة حورية أحيانا على فتاة أسطورية تتراءى في البحار والأنهار والغابات، كما وتطلق على المرأة الحسناء.

أما تصريف كلمة حورية في اللغة العربية (حسب المعجم الوسيط):

حَوِرت العين حَورا أي اشتد بياضها وسوادها واستدارت حَدَقَتُها،وابيض ما حواليها. أو اسودت كلها مثل أعين الظباء والبقر.

ويقال : حورت المرأة فهي حوراء (للمؤنث)

وحور الظبي فهو أحور (للذكر)

والجمع هي حور

وكما ترى فليس عندي الكثير مما أضيفه لما قاله علماؤنا الأجلاء، وإن كان لا بد أن أقول شيئا فأقول: إن الحوريات هن نساء أولياء الله في الجنة، وقال سبحانه: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة:٢٢- ٢٣].

وقال كذلك: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور:٢٠].

وكما ترى فهن من أجمل وأعظم ما كافأ الله به أصفياءه وأهل جنته، كما وأنك بمجرد أن تسمع كلمة حور يتبادر إلى ذهنك نساء الجنة فائقات الجمال، بيضاء البشرة، ومن صفات هذا البياض أنه على درجة من اللون يُسَر به أزواجهن، وبدرجة تبعث فيهم السعادة والهناء، بالإضافة لجمال العيون وسحرها. وهنا أضيف شيئا قد استقيته من صفات حواريي سيدنا عيسى (عليه السلام) وهو أن من صفات الحوريات خلوص النية ونقاء السريرة من النفاق والريبة كنقاء الثوب الأبيض من الدنس، ويعني ذلك أنهن صفيات لأزواجهن مخلصات لهم.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ فعندما تكلمنا عن الآية الكريمة ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ...﴾ [الرحمن:٥٦] أوضحنا بقدر الإمكان معنى قصر الطرف وأهميته ولماذا هو من صفات نساء أهل الجنة.

وأريد أن أضيف هنا بعض الشيء فأقول: هناك تشابه كبير يجمع بين قاصرات الطرف وبين حور مقصورات في الخيام، فكلاهما نساء مخدرات مستورات مُلازمات لبيوتهن، غير طوافات في الطرق حفظاً لشرفهن وكرامتهن، وكلاهما قاصرات لطرفهن وعيونهن بل لأحاسيسهن وقلوبهن على أزواجهن، ومثل هؤلاء النساء يمكن أن توصف إحداهن بأنها قصيرة أو مقصورة أو قصورة، ولكلٍ من هذه الكلمات معنى واحد هو أنهن نساء مستورات مخدرات.

ورغم كل هذا التشابه فلا بد أن هناك فرقا واختلافا بينهما، وبهذا الفرق تتميز الجنة الأولى عن الجنة التي هي دونها، فتكون الأولى أعلى منزلةً وقدراً، ففي الأولى تقصر النساء طرفهن باختيارهن، وبإرادتهن بل وكرما (وبدافع شخصي) منهن فمتى شئن قصرن ومتى لم يشأن لم يقصرن.

أما الحور المقصورات فقد خُلِقن كذلك، والقصر هنا غير ناتج عن إرادتهن بل هو مفروض عليهن، وكذلك يتعذر عليهن ترك هذا القصر حتى وإن أردن ذلك.

## ﴿الخيام﴾

واليك الآن ما قيل عن الخيام، فرغم أن كلمة خيام لم تتكرر في القرآن سوى مرة واحدة، إلا انه يمكنك أن تتحدث عنها الكثير ولا حرج، فقد كثرت حولها الآراء، وتعددت فيها التفاسير، والآن سوف أسوق لك معظمها، ولك أن تختار ما تراه مناسبا لتفسير هذه الآية، وقبل أن أخوض فيما كُتب عن الخيام تعال نتعرف سويا على معنى كلمة خيمة :

**فالخيمة** في اللغة العربية هي البيت المستدير المقام على ثلاثة أعواد أو أربعة من الخشب والمغطى بالخشب والثمام وساتر من الحشائش، ويغطي سطح هذا البيت الخشب وعيدان الشجر، ويُستَظَل في هذه الخيمة من حر الصيف، ولم يطلق على بيت القماش (سواء أكان من الشعر أم من القطن) خيمة بل يسمى في هذه الحالة بيتاً.

وخيمة هي المفرد، وجمعها خيمات أو خيم، أما جمع الجمع فهو خيام، أما عن خيام الجنة فقد قالوا: هي لؤلؤة مجوفة، وقالوا هي درة مجوفة، وقالوا: إنها بيت من اللؤلؤ، ومنهم من قال: إن لكل ولي خيّرة، ولكل خيّرة خيمة لها أربعة أبواب، يدخل عليها من أحد هذه الأبواب كل يوم تحفة وكرامة وهدية، وتكون الحور في الخيمة كأنهن بيض مكنون.

وقالوا: إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا، وفي كل زاوية منها

للمؤمن أهل (لا يرون الآخرين) يطوف عليهم متمتعا مسرورا.

وقال آخر: إن عرض هذه اللؤلؤة ثلاثين ميلا، وقالوا: إن خيمة الجنة عبارة عن لؤلؤة واحدة فيها سبعون بابا من الدر، وقالوا: إن الخيمة هنا درة مجوفة مساحتها فرسخ في فرسخ، ولها أربعة آلاف مصراع من ذهب.

ومن الروايات ما يقول: إن سحابة قد أمطرت من العرش فَخُلقت الحور من قطرات الرحمة، ثم ضرب على كل حورية منهن خيمة على شاطئ الأنهار سعتها أربعون ميلا وليس لها باب، حتى إذا دخل ولي الله الجنة انصدعت الخيمة عن باب فيعلم ولي الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذ ولم ترى هذه الحورية،فهي مقصورة، قد قُصِرَ بها عن أبصار المخلوقين والله أعلم بمدى صحة هذه الروايات.

أما أنا فأتصور أن لمن يدخل الجنة قصراً أو قصوراً حسب درجة تُقاه في الدنيا وحسب مقدار حسناته وطاعته لله، وهذه القصور تقع على ضفاف أنهار وعيون، وفيها من الغرف الكثير. وبالإضافة لهذه الغرف (وقد يكون بداخلها أو على ضفاف هذه الأنهار) أوجد سبحانه خياماً هي عبارة عن خُدور (جمع خِدر)، وهو الستر الذي يشبه الناموسية في المنازل، وقد تكون هذه الخيام من الدر، وفيها تتواجد الحور، تتواجد مقصورة في هذه الخدر وفي هذه المخادع في غاية الجمال والنعومة وهناك يدخل أولياء الله عليهن لا يشاركهم فيهن أحد ولا يراهم فيها أحد.

وفي حديث للرسول ﷺ أن أدنى أهل الجنة منزلة له ثمانون ألفا من الخدم واثنان وسبعون زوجة ويُنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء.

عطايا كثيرة وكبيرة وهي على الله يسيرة وسهلة ونحن نتمنى على الله الرحمة والبعد عن النار والفوز بالجنة ولو بأدنى درجاتها.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

ولربما اختص سبحانه الخيام عند ذكره للحور، لأن الخيام هي نعيم أهل البداوة،

ولأنه ما من بدوي إلا وغاية أمنيته خيمة جميلة رائعة بمواصفات خاصة (ولا يمكن أن يرقى تفكيره أو خياله لجمال خيام الجنة وما بها من الحور العين).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [٧٣]

أبالحور العين أم بجمالهن الذي لا يتصوره إنسان على هذه الأرض؟

أم بقصرهن لطرفهن عَمّن سواك؟.

أم بحبسهن لأنفسهن في الخيام انتظارا لك؟.

أم بحرصهن على شعورك؟أم بالخيام التي يفوق الوصف جمالها مهما قالوا عنها؟

أم بما تحويه هذه الخيام من صنوف المتعة تكذب؟ لا أتصور أن أحدا بهذا يكذب؟؟.

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [٧٤]

لقد سبق شرح هذه الآية عندما شرحنا الآية الكريمة رقم (٥٦)، وهنا يمكنك أن تلاحظ وجود اختلافات بين نساء الجنة الأولى و نساء الجنة الثانية، لكن فيما يتعلق بشرف وغَيرة المؤمن فهو مشترك وواحد في كل درجات الجنة، فالكل لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [٧٥]

أبنعمة أن يرزقكم الله بأزواج ثيبات أبكارا لم يعاشرهن أحد قبلكم تكذبان؟

## ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴾ [٧٦]

لقد سبق شرح معنى كلمة ﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ عندما شرحنا الآية الكريمة رقم (٥٤)أما كلمة ﴿رَفۡرَفٍ﴾ فهي جمع، ومفردها رفرفة، وقد ورد في تفسيرها الكثير من الآراء والأقوال.

وهذه التفسيرات وإن لم تكن متضاربة، إلا أنها مختلفة، فمنهم من قال: إن الرفرف هي الفُرُش المعدة للاتكاء، ومنهم من قال: إنها أفضل المحابس، وقال البعض: إنها وسائد أو فرش مرتفعة، وقال آخرون: إنها الأبسطة (جمع بساط) كأنها من صنع عبقر، وذهب البعض إلى أنها رياض الجنة بما فيها من النبات الناعم الحسن، وبما أن كلمة (رف) تعني ارتفع فنقول (رف الطائر أي ارتفع)

فبعضهم يقول: إنها ما يتدلى من الستور التي تُفْرَش وتبسط على وجه أسرة النوم (بما على هذه الأسرة من فراش) وأن هذا القماش الغالي هو الرفرف، وقيل: إنها ذات لون سندسي أخضر.

وفي تصوري أن الرفرف قد تكون عبارة عن وسائد أو مساند أو مخدات توضع فوق الفراش، وتكون بارتفاع مناسب لعرض جسم الإنسان، وارتفاع أكتافه، ومدى العلاقة والفروق بين الرأس والصدر والأكتاف، بحيث يحقق الاتكاء في هذه الحالة الراحة الكاملة لأولياء الله في الجنة، وأتصور أن ارتفاع الوسادة شيء أساسي في مقدار الراحة.

كما وأعتقد أن الرفرف قد تكون زوائد من قماش ناعم وجميل (ولعله الديباج الأخضر) تتدلى من هذه الوسائد فتزيد من جمالها وتمنحها زينة تُضفي على المتكئ الشعور بالرفاهية والسعادة مما يضاعف بهجته وسروره.

ولعل هذا الرفرف هو زوائد ترفرف وتتحرك وتتماوج كلما هب عليها نسيم الجنة، أو عندما يتحرك أو يتقلب المتكئ عليها، ولا شك أن في ذلك نوعا من الراحة والمتعة والسعادة .

كما وقد يكون هذا الرفرف بُسطاً وفُرشاً ليضطجع عليها أهل الجنة وتكون مزركشة وموشاة وتتدلى مترفرفة.

أما ﴿خُضْرٍ﴾ فهي ذات لون أخضر وهو اللون المحبب لأهل الجنة فقد قال سبحانه: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان:٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف:٣١].

معلوم أن أهل الأرض تختلف أذواقهم عن بعضهم في أشياء كثيرة منها الألوان، فلكل شخص تقريبا لون يرتاح إليه، وتحبه نفسه وقد يكون هذا التفضيل ناتجاً عن موقف أو منظر معين ترك في نفس الشخص أثراً ما.

أما في الجنة فيغلب على أهلها حب اللون الأخضر وما يثيره هذا اللون وما يتركه في النفس من سعادة وهدوء وسكينة.

كيف لا واللون الأخضر هو لون الأشجار والنباتات التي تعطينا الغذاء والثمار والأكسجين والظلال وجمال المنظر، وبهذا اللون تتوشى الأرض وتكتسي في أبهج فتراتها وأجمل مواسمها فهو لباس الأرض في فصل الربيع.

ولعل طول موجات اللون الأخضر ومقدار ترددها يتوافق وينسجم مع نفسية الإنسان ومع المجال الكهربي والمغناطيسي والهالة المحيطه به (خاصة في الجنة)، فتعمل هذه الموجات على تقليل الأثر الضار لأي مؤثرات تحيط بالإنسان، بل إنها قد تحول أضرار هذه المؤثرات إلى منافع.

أما ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ فشأنها شأن رفرف فقد تعددت الآراء في تفسيرها مع عدم التضارب أيضا فقد قالوا فيها : هي أجود أنواع الزرابي، وقالوا: إنها الطنافس المخملة، وهي عبارة عن بُسُط لها أهداب وتكون رقيقة، كما قالوا: إنها بسط أهل الجنة، أو هي ثياب أهل الجنة التي لا يعرفها أحد، كما تطلق كلمة عبقري عند العرب على الثوب الموشى خاصة إذا وُشّي بقماش وخيوط ثمينة مثل السندس والديباج.

وقد تكون هي البسط التي رُسِمَ عليها صور ونقوش وزراكش، ومنهم من نسب كلمة عبقري إلى أرض يصنع بها الوشي.

وكلمة عبقري في القاموس تُطلق على وادٍ كثير الجن، وعلى قرية بناؤها غاية في الحسن.

فعندما يُعجب العرب بصناعة ما، فإنهم ينسبونها إلى عبقر، وهو مكان يعتقد العرب أنه يسكنه الجن، وفيه تصنع الأشياء الفاخرة المعجِبة ذات الجودة العالية.

وفي تصوري أن الإنسان المتكئ على وسائد ومساند، لا بد أن يكون تحته فُرَش، لا مستلقيا على أرض صلبة خشنة، خاصة عندما يكون في الجنة!. وحالة كهذه لا بد أن يكون أسفل منه عبقري حسان وهي عبارة عن فرشٍ وثيرة ناعمة طرية، تُكسب الجسم الراحة والاستجمام والاسترخاء وتزيل عنه الإرهاق والتعب.

قد تكون الخشونة مقبولة في الحياة الدنيا، لكنها لا داعي لها في الجنة، بل لعلها تكون مرفوضة وغير مقبولة هناك، وذلك لأن الجنة هي أرض النعيم والسعادة والهناء.

هذه الفرش الوثيرة تكون مغطاة ببسط، وهذه البسط مغطاة بالمخمل الناعم وبالرفرف المتدلي الهفهاف، وقد تكون هذه الفرش والبسط المطرزة الناعمة هي التي لا يقدر على صنعها سوى عبقري بارع وصانع ماهر، ولذلك وصفت بالعبقري الحسان.

أما الحسان فما هو الشيء الذي في الجنة ليس من الحسان بل ليس من الأحسن؟.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [٧٧]

لأجل أن تتكئ في الجنة وتستريح في جلستك فقد هيأت لك أفضل أنواع المجالس وألين أصناف الوسائد ووضعتها لك على ارتفاع مناسب، بل وكستها لك بالديباج ذو اللون السندسي الأخضر، ووشيت لك الفرش برفارف تتدلى من هذه الوسائد ومن

هذه البسط والسجاجيد وجهزت لك الطنافس المخملية، وكل هذه الوسائل على درجة من الحسن بحيث لا يوجد بمثل جمالها في الحياة الدنيا، فبأي من هذه النعم وبأي من هذه الآلاء والآيات تكذبان يا معشر الإنس والجن؟.

لو قُدِرَ ليَ أن أكون واحدا منكم في الجنة فلن أجيبه إلاّ بما أجابته به الجن عندما قرأ الرسول (ﷺ) عليهم سورة الرحمن ولن أقول سوى: **لا بشيء من نعمك ربنا أكذب فلك الحمد.**

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [٧٨]

قالوا: إن (تبارك الله) تعني أنه ارتفع وتقدس وتنزه، وقالوا: إنه يُجَلَ فلا يُعصى، ويُكرّم ويعبد ولا يعبد سواه، ويُشكَر فلا يُكفَر بأي من آلائه ودائما يُذكَر فلا ينسى.

ومن أسمائه تعالى الجليل، والجليل هو الذي ارتفع عما لا يليق بمقامه من الأمور التي من سماتها الجحود بالنعمة وتكذيبها، وقيل إذا كان هذا حال اسمه من الإجلال فما ظنك بحال ذاته الأقدس والأعلى؟.

وقال بعضهم: إن ﴿تَبَٰرَكَ﴾ تعني التفاعل (والألف فيها هي ألف المشاركة ولا تفاعل إلا بالمشاركة) مع البركة مما ينبئ بكثرة الخيرات، وفيض البركات وتوفر الآلاء والنعم والأفضال من الله على عباده.

وقد قيل في (تبارك الله) الكثير لكنني أتوقف هنا واكتفي بهذا القدر، وأتوجه للتعرف على معنى ﴿ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ فقد قالوا: إنها تعني العظمة والاستغناء المطلق والكبرياء كما فهموها على أنها إمعانا بالكرم والتكريم، وكذلك هي تكميل لما ذُكر عنه سبحانه من التنزيه والتقدير.

وقد ترد أحيانا وصفاً لاسمه تعالى وأحيانا أخرى وصفا لذاته عز وجل.

ويوصف الإكرام على أنه الفضل التام، وذلك بالتجاوز عن السيئات، والتفضل بالإحسان والإنعام على العباد، كما قد يعني أنه يُكَرَّم عن كل شيء لا يليق بمقامه وبذاته. فيبعد عنه.

وذكر ﴿ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ هنا في آخر سورة الرحمن لعله أنسب ختام لهذه السورة العظيمة فهو يتوافق وينسجم ويتناسب مع ما ذُكِرَ فيها من الآلاء والنعم والبركات.

وعن ﴿ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فقد قال ﷺ:

١- (أجِلّوا الله يغفر لكم)

٢- وقال (ﷺ): إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وذي السلطان، وحامل القرآن (غير الغالي فيه ولا الجافي عنه).

٣- وقال (ﷺ): (ألظو بياذا الجلال والإكرام)

ومعنى **ألظوا الدعاء** هو الزموا الدعاء وداوموا عليه ولا تفارقوه ولا تتركوه بل كرروه بإلحاح.

ومن أهمية ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أن الرسول ﷺ يدعو في دبر كل صلاة فيقول: (اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام).

وقال سبحانه:

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان:١٠].

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان:٦١].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر:٦٤].

﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الزُّخرُف:٨٥].

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المُلك:١].

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٧٨].

تبارك الله الذي خلق الإنسان – والذي خلقك فسواك فعدلك.

تبارك الذي علمك ما لا تعلم، الذي علمك البيان وعلمك القرآن.

تبارك الذي جعل الشمس والقمر يجريان بحسبان ومنها وَضَعْتَ التقاويم.

تبارك الذي له النجم والشجر والشمس والقمر والدواب تسجد وتسبح

تبارك الذي رفع فوقك السماء، وأنزل منها رزقا، وجعلها لك سقفا محفوظا وأنزل لك منها ماءًا!.

تبارك الذي خلق لك الفاكهة والحبوب والخضار والغذاء وجعلها من أسباب حياتك، فوفرها لك ويسر لك الحصول عليها.

تبارك الذي جعل للشمس مشارق ومغارب ومع كلٍ خير.

تبارك الذي أوجد البحار وقدَّر لها مساحتها، ومرج بينها، ومنعها من البغي على بعضها، وأخرج لك منها الزينة وحَملَك وحمل فُلكك عليها!.

تبارك قاهر عبده بالموت (ولعدل الله دلالات يعتبر الفناء واحداً منها!).

تبارك الباقي الحي الذي لا يموت!!.

تبارك الذي بَشَّرنا بارتياد الفضاء، ووجهنا لنأخذ بالأسباب في هذا النفاذ لسلامتنا من الشواظ والشهب والنيازك!!.

تبارك الذي وسم وحدد المجرمين بسمات وفرض لهم العذاب!.

تبارك الذي يكافئ المحسنين من عباده (كل على قدر إحسانه) بجنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر!.

هل تعتقد أنني لو قضيت العمر أذكر آلاء وأفضال ونعم الله علينا سأوفيها أو أحصيها؟؟

أرجوك ألا تقل نعم! حتى لا تقع في الخطأ، فَنِعَمُ الله لا تحصى لذلك فقد قال سبحانه:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

نعمة واحدة من نعم الله لو درستها وحسبتها وحللتها فلن تنتهي ولن تحصيها فكيف بكل نعم الله؟

وخير ختام لهذه السورة العظيمة ما ختمها به مُنزّلها الرحمن حين قال:

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

وعند هذا الحد وبهذا القدر تكون سياحتي في أعظم وأقدس رحلة قد وصلت إلى نهايتها، ولو أنني أجزم أن الرحلة مع آيات الله وكلماته لا تنتهي حتى وإن انتهى العمر.

اللهم يَسَّر لنا سياحة أخرى مع سورة أخرى من سور هذا القرآن العظيم.

**آمـــــــــين**



# المراجع


القرآن الكريم

صفوة البيان لمعاني القرآن الشيخ — حسنين محمد مخلوف

زبدة التفسير من فتح القدير — محمد سليمان عبد الله الأشقر

الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) — أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

في ظلال القرآن — سيد قطب

تفسير الجلالين

صفوة التفاسير — محمد على الصابوني

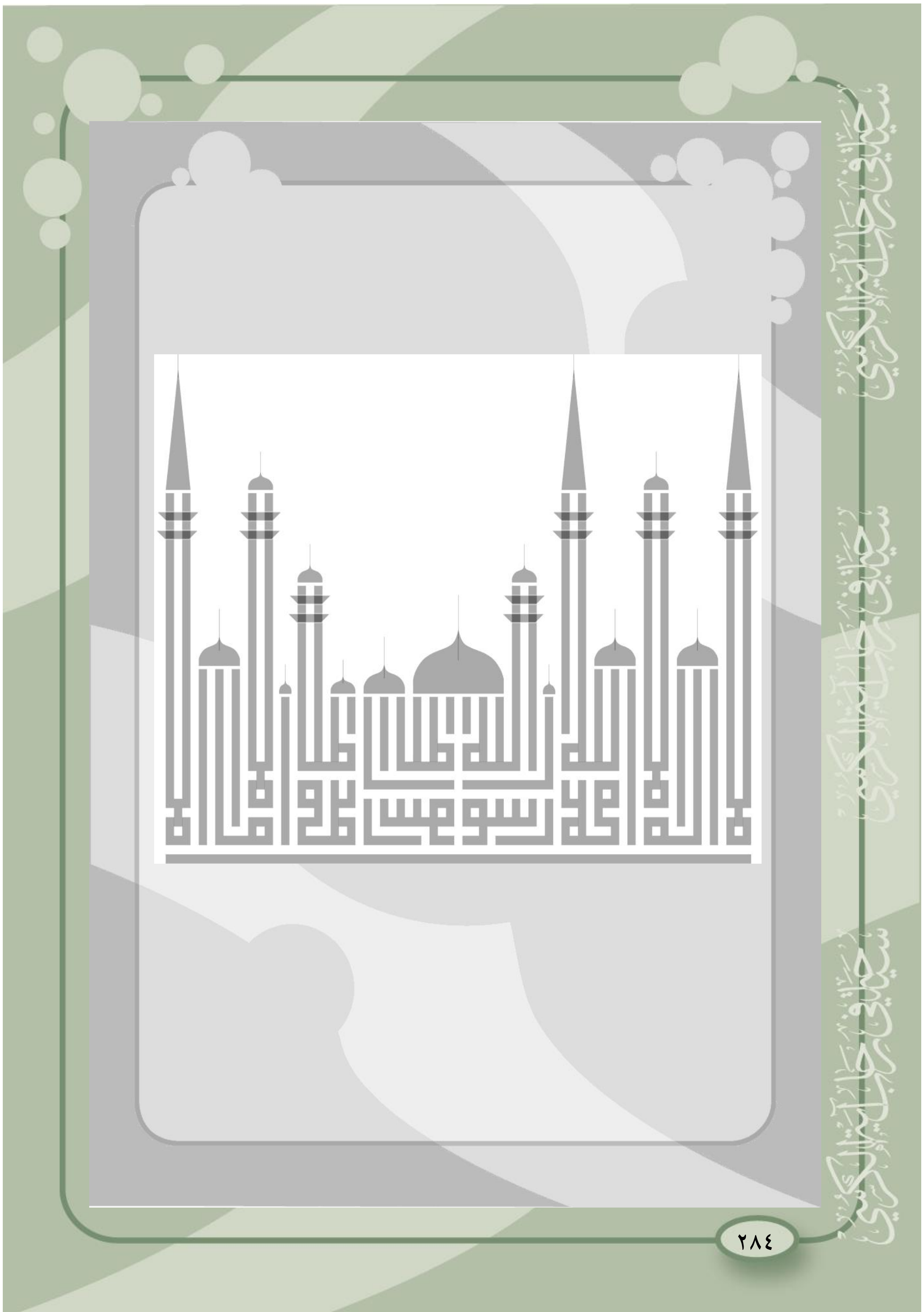
روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني — أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي

تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ — أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي

آيات قرآنية في الآفاق والإنسان — الجزء الأول/ سعيد مفلح هودلي

آيات قرآنية في الآفاق والإنسان — الجزء الثاني/ سعيد مفلح هودلي

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم — محمد فؤاد عبد الباقي



# الفهرس

مقدمة المؤلف........................................................ ٧

تقديم موجه اللغة العربية وليد العورتاني........................................ ١١

نقديم الباحث الإسلامي محمد طه عبد القادر ............................ ١٣

**الفصل الأول**:........................................................ ١٥

تعريف بسورة البقرة التي وردت فيها آية الكرسي ............................ ١٩

- فضائل سورة البقرة........................................ ٢٠
- محاور سورة البقرة ........................................ ٢٠

تعريف بآية الكرسي ........................................................ ٢١

- لماذا سميت بهذا الاسم........................................ ٢١
- فضائل آية الكرسي ........................................ ٢٢
- سياحة في رحاب آية الكرسي........................................ ٢٧
- وقفات تربوية مع آية الكرسي ........................................ ٧٥

**الفصل الثاني**:........................................................ ٧٩

تعريف بسورة الرحمن........................................................ ٨٥

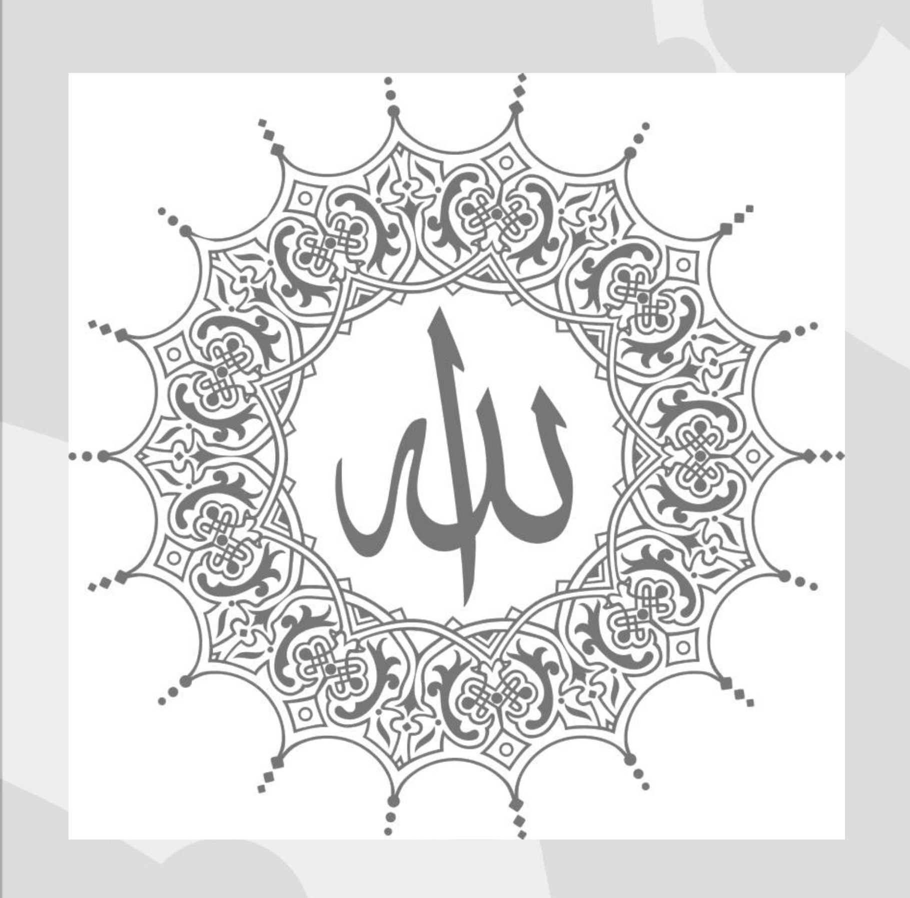
ملاحظات على مواقع ذكر كلمة الرحمن........................................ ٨٥

برنامج السياحة مع سورة الرحمن........................................ ٨٧

سياحة مع عروس القرآن........................................................ ٩١

المراجع........................................................ ٢٨٣

الفهرس........................................................ ٢٨٥



# صدر للمؤلف

**آيات قرآنية في الآفاق والإنسان**

– الجزء الأول – ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾

**آيات قرآنية في الآفاق والإنسان**

– الجزء الثاني – ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

**سياحة في رحاب آية الكرسي وعروس القرآن الرحمن.**

انتظروا الكتاب القادم

بإذن الله

# سياحـــــــة في رحاب

## أم الكتاب (الفاتحة)

## وقلب القرآن (يس)